عبد الله العروي

خواطر الصباح

يوميات

(1967 ـ 1973)



المركز الثقافي العربي

عبد الله العروي

خواطر الصباح

يوميات

(1973 _ 1967)

الكتاب
خواطر الصباح
تأليف
عبد الله العروي
الطبعة
الثانية: 2007
عدد الصفحات: 232
القياس: 14 x 21.5

ISBN: 9953-68-213-3
الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء - المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 2303339 - 2307651
فاكس: 2305726 - 2 212+
Email: markaz@wanadoo.net.ma
بيروت - لبنان
ص.ب: 5158 - 113 الحمراء
شارع جاندارك - بناية المقدسي
هاتف: 750507 - 352826
فاكس: 343701 - 1 961+

شرعت في تسجيل هذه الخواطر وأنا تلميذ في ثانوية مراكش سنة 1949 حسب ما أتذكر ولم أتوقف منذئذ.

استعملت جزءاً منها في كتاباتي السابقة، وبخاصة في اليتيم (1978) وأوراق (1998). ولم احتفظ بكل أسف بالمسودة.

لذا استهل هذا الجزء بخواطر صيف 1967 حيث اندلعت الحرب العربية الإسرائيلية الثانية وأتوقف سنة 1973 في أعقاب الحرب الثالثة.

ولقد استغنيت عن بعض الخواطر التي تتعلق بالوضع الداخلي المغربي.

1967

يونيو 8، الدار البيضاء

بعد 19 سنة قضي الأمر وضاعت فلسطين بكاملها.. مؤقتاً في أحسن الاحتمالات. وطيلة هذه السنوات تعززت الصهيونية بانتظام، بقوى غير ذاتية أساءت إلى العرب وإلى تطلعاتهم.

نجحت خطة إسرائيل: حرب قصيرة وسلام مفروض.

سبب النجاح واضح: نظام عبد الناصر ضعيف سياسياً. اعتمد بالأساس على مساعدة الشيوعية الروسية دون أن يدرك في الوقت الملائم أن طبيعتها قد تغيّرت. لم تتخلّ أمريكا عن إسرائيل في حين أن روسيا تخلّت عن العرب.

الخسارة محدودة عملياً: لم يضِع إلاّ ما كان في حكم الضائع.. كشف عن واقع. والخاسر هو القومية العربية والثورة العالمية. لم يعد هناك أمل في سياسة عبد الناصر ولا في دور الاتحاد السوفياتي. والفائز، بالمقابل، هو الفكر الصيني من جهة، والامبريالية الأمريكية من جهة ثانية.

* *

عودة أمريكا بقوة إلى البلاد العربية، البترولية البدوية.

عودة مصر إلى الفرعونية مع تحرير النظام السياسي وانفتاحه على أمريكا. هذا هو ما يفرضه العقل.

ستتكون على المدى المتوسط دوائر نفوذ في الشرق الأوسط وفي إفريقيا بإيعاز ورعاية الولايات المتحدة. سيتحول العالم العربي من منطقة ثورية إلى ساحة لنمو استعمار جديد بقيادة دولتين: مصر وإسرائيل. وسيكون ثمن المصالحة دفن أمل اشتراكية عربية حقيقية غير بيروقراطية.

يبقى وضع الجزائر: إما تساير التيار وإما تسحق.

مستقبلاً: ماذا عن الجامعة العربية؟

ماذا عن النظام السوري؟

ماذا عن المغرب والجزائر: متى المواجهة؟

* *

تسير الأحداث في اتجاه واضح: القضاء على حكومتي دمشق والقاهرة. . . احتلال كل الأراضي إما في الحين وإما بعد حين عند الإرادة. وإذا ما أعيد توزيعها من جديد فلن يحسب حساب لإرادة الشعوب، إذ لم تعد تمثلها شرعياً أية حكومة.

كانت خديعة محكمة سقط فيها العالم كله: الأمم المتحدة وعبد الناصر وربما الحكومة المدنية الإسرائيلية نفسها. . دور الحسين؟ دور الشقيري؟ لم يسبق أن وجّهت الصحافة العالمية بهذا الإتقان. إنجاز أهم مما حصل أيام محمد مصدّق. . شارك فيه الجميع: الدفاع الأميركي، المخابرات، الشركات البترولية، جيش إسرائيل (ديّان بخاصة) والمعسكر العربي المتعاطف مع أمريكا.

من يكون الهدف لاحقاً؟

واضح أن جيش إسرائيل لم يعد يخدم فقط مصالح الشعب الإسرائيلي. وسيدخل السوفيات الحلبة، طال الزمن أم قصر. لا بد لهم أن يناوروا مع المناورين وإلا ضاع نفوذهم في المنطقة.

قبل عبد الناصر قرار وقف إطلاق النار لأنه فهم الوضع الجديد، بعد أن فات الأوان.

* *

هدفهم القضاء على نظام سوريا وسينجحون إذا لم تتدخل روسيا في الحين وفي إسرائيل بالذات.

يقول السوريون: لن يمرّوا. . كالإسبان أو البولونيين سنة 1934. الشعب الشهيد.

أعلم الآن من الإنسان الأسوأ: المرء الضحية المنفلت من يد معذّبه! لا شك أن المدنيين فقدوا كل نفوذ في إسرائيل.

* *

سياسة عبد الناصر، في آخر تحليل، سياسة بورجوازي صغير حانق ومتحيز رغم البلاغة المصطنعة. الأقوال تعبّر عن الواقع الاجتماعي دون أن تؤثر في السياسة الفعلية. أمام الهزيمة يلجأ إلى المناورة لا إلى المقاومة الثورية.

* *

10 يونيو

خطاب البارحة (9).

مؤثر وصريح. يدعو إلى الرثاء. لاعب خانه الحظ، لم تتوفر لديه الورقة الرابحة. فيفسّر «الطرح».

أول انطباع: كلام بورجوازي صغير في مبناه ومعناه. الرئيس

هو الرئيس قبل وبعد الخطأ والهزيمة. بعد لحظة: هذا تراجع تكتيكي. يتخلّى لكي يعود.

سياسياً، هذه هي الهجمة المضادة الخاطفة التي كنا نتمناها في الميدان والتي لم تحدث. يقدم نفسه على الفور، في أعقاب الهزيمة، أمام المحكمة التي تبرئ ساحته في الحين. وفي الوقت نفسه يبرئ ساحة الجيش. أوليس هذا هو لبّ المشكل؟ لا خوف على البيروقراطية. لن تمسّ مصالحها.

المسؤول الوحيد عن الهزيمة، حسب التحليل، هو تراخي السوفيات.

لم يتطرّق إلى الجوهر: هل يحصل تغيير في النظام؟

هل يؤثر بقاؤه على رأس الدولة سلبياً على المفاوضات المقبلة؟

إذا حلّت المسألة كلها على مستوى القوتين المؤثرتين سيبدو الأمر كما لو أن السوفيات خلقوا في الشرق وضعاً يمكن الأميركان من قبول حلّ في فيتنام. في هذا الإطار كان الاتحاد السوفياتي يحتاج إلى هزيمة العرب حتى يصبح المتكلم باسمهم ويقدم للأمريكان ما يعوضون به تراجعهم في آسيا.

هذه النقطة غابت دائماً عن المحللين المصريين المتحمسين لبطولات الشعب الفيتنامي.

* *

تكلم بومدين عن «تردّد الأصدقاء وتفرج المتفرجين». إنجلترا خانتنا البارحة... وها روسيا تخوننا اليوم. هذا ما نردده. لا يمكن الاعتماد كلياً ودائماً على صديق أو حليف. حليفك هو بالضبط من يريد أن تظل في حاجة إلى مساعدته. لم يعد للعرب، بعد الهزيمة،

أي مجال للاستقلال.

تجرب مصر اليوم ما جربته قبلها بولونيا وإيران و. . و. .

* *

هل أضاع عبد الناصر فرصة تحقيق وحدة العرب عن طريق الحرب الثورية؟ هذا ما سيقوله أنصار الخطة الصينية.

في لحظة الحسم تنكشف ازدواجية سياسة عبد الناصر: الوجه المصري والوجه العربي. التضحية بمصالح مصر، أو ما بقي منها، لتحقيق الوحدة أم إنقاذ ما يمكن إنقاذه من أعمدة الكيان المصري؟ إن عروبة مصر مصلحية في الأساس، أحادية الاتجاه، كما كانت جرمانية بروسيا.

كل خطأ ارتكبه عبد الناصر إنما هو إجراء غير معنون: عربي أم مصري؟

طبعاً لم يضِع إلاّ ما كان في حكم الضائع. لكن ضاع معه أمل الجيل في الوحدة والعزة. أرجئ إلى متى؟

لا تحرير أبداً بمساندة الغير.

* *

11 يونيو

يُقال: إن العرب لم يقدّروا قوة إسرائيل الذاتية حق قدرها. ما معنى هذا القول؟ ما هي قوة إسرائيل الذاتية؟

الواقع إن العرب أخطأوا في تقدير قوة اليهود العالمية وتضامن كل اليهود مع إسرائيل. ما غاب عنّا جميعاً هو تغلغل الوعي الصهيوني في اليهود وفي غير اليهود، في أبناء «العهد القديم» بالمعنى الواسع. مستقبل العرب مرتبط، فيما يبدو، بما يتحقق أو

لا يتحقق، من آمال الثورة العالمية. ليس هناك مخرج آخر نظرياً، لكن ما يترتب على هذا، نظرياً أيضاً، ليس كله في صالحنا. الزمن يجبر بعض لا كل الكسور. لا بدّ أن نؤدي بعض ثمن التغافل. أو لا يكون الوقت كافياً لتتركز أسس «الأمة الإسرائيلية»؟

* *

طال الكلام على ميونيخ جديدة!

على حساب من؟ اليهود أم العرب؟ وأكثر الناس في الغرب يجحدون البديهيات.

* *

الأحد، يونيو 11

كل ما حصل ناتج عن العلمانية! هذا هو التفسير الذي يُراد ترويجه بين العرب وهو نقد صريح موجه لقادة مصر وسوريا.

وما القول في تونس؟ أو لم تسر أيضاً على درب العلمانية حسب قول المعارضين؟

«أمرنا اللّه بأن نتّحد فتفرقنا.. أمرنا اللّه بأن لا نتنابز بالألقاب ففعلنا ذلك علناً.. حبانا اللّه بدستور فأعرضنا عنه وأبدلناه بآخر يفصل الدين عن الدنيا..».

هذه أسباب الهزيمة!. أول محاولة لاستغلالها بغية تركيز نتائجها في محاولة التقرّب من أمريكا: عهد إسلامي، بترول، محاربة الشيوعية، حكم اللّه.. تصور بديل.

* *

قارن بين كلام المهزومين وكلام المتفرجين.

* *

عتاب جان ـ بول سارتر، كاتب **المسألة اليهودية** والموقع على النداء العالمي للدفاع عن إسرائيل:

سبق لي أن شاركت في مجلتكم بمقال عن العلاقات العربية ـ الإسرائيلية وإذا كنتم قد اطلعتم عليه فإنكم تعلمون إنه لم يصدر عن أحد النازيين العرب، حسب تعبير أقرب مساعديكم. وبعد أن حصل ما حصل، بعد أن أمطر العرب بوابل من نار، بعد أن حشدوا في معسكرات قبل طردهم من أرضهم، بعد أن انكشفت نوايا كل طرف، اسمحوا لي أن أذكركم بما لم يعد يحتمل أي شك وهو أن اليهودي حسب تعريفكم له، أصبح ابن إسماعيل وليس ابن إسرائيل.

إذا راجعتم مسلسل الأحداث دون التقيد بمسبقات أصدقائكم فلن يخفى عليكم أنكم وزملاءكم وعبد الناصر والسوفيات واليهود المسالمين في إسرائيل وباقي المعمورة، إن الجميع انخدع لدعاية في غاية الإتقان. لم يكن الأمر يتعلق كما قيل بإنقاذ ضحايا النازية بقدر ما كان الحفاظ على مصالح أمريكا وبريطانيا.

تعلق الأمر منذ البداية بعدن، المعروفة لديكم من خلال ما كتبه صديقكم بول نيزان، وبالبترول. إن أصل الأزمة كان سياسة الحكومة السورية في مجال النفط وسياسة عبد الناصر في اليمن وفي السعودية وفي ليبيا. ومرة أخرى لم يكن للحكومة المدنية في إسرائيل أي تأثير على مجرى الأحداث. إنما استغلتها وأحسنت استغلالها، لكنها في الحقيقة خدمت الغير حيث ظنت أو جعلت الناس يظنون أنها تخدم شعبها. إن المؤثر الحقيقي كان الجيش وبالضبط من يأتمر داخله بأوامر أمريكا.

ارتكبتم أنتم وأصدقاؤكم خطأ فادحاً إذ لم تميزوا بين الجيش

والحكومة المدنية تماشياً مع دعاية الأوساط اليهودية. اقرأوا ما يكتبه اليوم كبار الصحفيين الأمريكان، المقربون من وزارة الدفاع، وسترون أن الواقع بعيد جداً عما اعتقدتم وقلتم. كانت الأزمة مفتعلة ومقررة منذ شهور بين مخططات الجماعات اليمينية الأمريكية.

بدأ مسلسل الاستدراج بعد الإجراءات السورية في الميدان البترولي. فتحرك الجيش الإسرائيلي في محاولة لإسقاط حكومة دمشق. ضخمت تصريحات بعض القادة الفلسطينيين المقيمين في سوريا. نظمت حملات تأديبية ضد الجيش السوري ثم جاءت تهديدات قادة الجيش الإسرائيلي كان الهدف منها وضع عبد الناصر في موقف حرج. إذا ترك الحكومة السورية تسقط بدون أن يحرك ساكناً فقد هيبته وإذا تحرك كان ذاك هو المراد. إلاّ أن العملية كلها كانت تستلزم عدم تدخل روسيا في أي من مراحلها وهو ما اعتبره الأمريكان في حكم المؤكّد وما لم ينتبه إليه عبد الناصر.

أخطأ عبد الناصر وسقط في الفخ المنصوب له لأنه كان يجهل الحالة النفسانية التي سيطرت على الزعامة الأمريكية منذ أن أخفقت في سياستها الآسوية. ثم انخدع فيما يتعلق بالاستعدادات الإسرائيلية. نشرت عدة مقالات في أمريكا وأوروبا تشير كلها، بغرض التغليط، إلى تساوي الخصمين في ميدان الطيران. إلاّ أن الواقع هو أن جيش إسرائيل، منذ 1961 وتجربة الوحدة المصرية السورية، كان قد التصق بالنظام الدفاعي الغربي. لم تكن كل الطائرات الإسرائيلية رابطة في إسرائيل وكذلك الطيارون. هذه الطائرات التي هاجمت مطارات مصر يوم 5 يونيو، هل أقلعت كلها من إسرائيل؟

بمجرد ما تدخل عبد الناصر في النزاع السوري الإسرائيلي هبّت الصحافة الغربية وكأنها تلبي دعوة زعيم منسق للدفاع عن الدولة

اليهودية المهدّدة في كيانها. شرعت كل الجماعات والأندية الموالية لإسرائيل والمرتبطة بالمصالح الأميركية في تنسيق نشاطاتها. تعهدت الولايات المتحدة للاتحاد السوفياتي أن إسرائيل لن تكون البادئة بالهجوم وسارع السوفيات إلى طمأنة عبد الناصر وربما أمروه بالوقوف عند حدّه. وقف عند حدّه واعتمد على المفاوضات فكانت الكارثة.

عندها تغيّرت لهجة إسرائيل واتسعت مطامحها. نحيت الحكومة المدنية وأخذ الجناح العسكري المتطرف المبادرة. لم يعد الهدف الدفاع عن إسرائيل في حدودها الحالية بل الاستيلاء على القناة والإطاحة بنظام عبد الناصر انتقاماً لإنجلترا وبحكومة دمشق انتصاراً لمصالح أمريكا.

إن الأهداف المحققة اليوم هي:

1 ـ تشكيك الجماهير العربية في نجاعة سياسة عبد الناصر المعادية للإمبريالية وبالتالي إضفاء نوع من المشروعية على سياسة الدول المحافظة الموالية لأميركا.

2 ـ تجاوز حالة الخوف من أن تتطور كل حرب محلية إلى مواجهة نووية وهو ما كان يلعب لصالح السوفيات. ما حصل الآن أظهر أن الغرب يستطيع أن يحقق أهدافه بالوسائل العسكرية مع منع السوفيات من التدخل أو التهديد باللجوء إلى السلاح النووي. وفي هذا الأمر إلغاء لدرس فيتنام. سيبعد الاتحاد السوفياتي من آسيا ويرغم على التفاوض والتفاهم.

3 ـ التشكيك في قدرة السوفيات على الوفاء بتعهداته الدولية من برلين إلى كوبا.

4 ـ خسارات الدول العربية الثورية تؤخرها بعشر سنوات على

الأقل وهي مُهلة كافية للبحث عن بديل للنفط العربي. في الوقت نفسه ستتغير نظرة الشعوب العربية وقادتها إلى السوفيات وتقتنع بسلبيات التحالف معهم.

أقف عند هذا الحدّ لأتساءل: أما آن الأوان لتعترفوا أنكم انخدعتم وأنكم شاركتم مع غيركم من المثقفين والفنانين الغربيين في إخراج مسرحية محكمة نظمتها الدعاية الأمريكية؟

أقول الدعاية الأميركية ولا أقول الدعاية الصهيونية لأنني بدأت أتشكك فيمن يستغلّ الآخر: في هذه الحالة بالذات استغلت الصهيونية للدفاع عن المصالح الامبريالية الغربية.

رغم كل التشكيكات الهادفة إلى تبرير ما لا سبيل إلى تبريره لا يسعكم إلاّ أن تلاحظوا أن اليهودي اليوم، عشرين سنة بعد انهيار النازية، ليس الإسرائيلي، وأن شعب إسرائيل ليس هو جيش إسرائيل. إذا تماديتم في موقفكم بعد أن اتضحت الدوافع والتوابع فما ذاك إلاّ بسبب العاطفة التي تعميكم رغم ما كتبتم حول خدع الوجدان.

أما نحن العرب فقد أنقذنا الواقع المرّ من أكاذيب الجدل اللفظي!

* *

لا شكّ أن أكبر أخطاء عبد الناصر هو ظنّه بأنه يستطيع التهرب من المواجهة العسكرية. لو كان متيقناً أن الحرب حتمية لترك الأمم المتحدة في سينا وبدأ الحرب من الأردن أو سوريا. . ممكن؟

لم يتصور، على ما يبدو، مواجهة جدّية مع إسرائيل. كان يجهل أن الجيش الإسرائيلي لم يكن ينتظر إلاّ الفرصة، أية فرصة، للانقضاض عليه.

يقول العرب إن الحرب جدّ، لكن في شِعرهم فقط. أما في حياتهم اليومية فإنهم يتخذونها، كالسياسة، فرجة.. تركة عهد المماليك.. لا يعرفون ماكيافلّي لأنهم لا يزالون بين «أصابع الرحمان».

على كل حال لا يمكن الدفاع عن سينا. الحسم لا يكون إلاّ على ضفاف النيل أو مشارف تل أبيب.

هل كان الأردنيون يستطيعون إنقاذ القدس دون هدمها؟!

العرب أحفاد عنتر!

* *

[إلى فون غرونباوم]

السياسة قدرنا. تتحكم فينا ولا نؤثر فيها. أرى نفسي مضطراً إلى التخلّي عن السفر. أعلم أن الجو قاتم في أمريكا من خلال ما أقرأ في الصحف. نظراً لقناعاتي لا أرى لائقاً بي أن أحل في الولايات المتحدة بعد أسابيع والوضع على ما هو عليه!.

* *

12 يونيو

تتكلم الإذاعة الفرنسية على استسلام الجمهورية العربية المتحدة.. ثم تعلق: قد تخلفها الجزائر في موقع القيادة.

كيف يستطيع عبد الناصر أن يظل في الحكم؟ بلدان الخليج ذاتها المحتاجة إلى العون المصري كيف تعترف به حامياً وحليفاً بعد ارتكابه كل هذه الأخطاء؟ قد يغفر الناس له خطاياه هو، لكن البطانة؟ لم يعد أي حق للجيش المصري أن يمكث في اليمن.

كيف يستطيع أن يعيد تنظيم شؤون بلاده دون أن يقدم تنازلات

تفقده الهيبة والصلاحية للقيادة؟

هزيمة أشنع من يينا! وأوجع من نوفاره.. صدمة نفسانية.. هل يستغلها لإذكاء جذوة الثورة الشعبية الوحدوية التي تجرف بكل الأنظمة والمؤسسات القائمة؟ (الصين بعد الهجمة اليابانية).

الأقرب إلى الواقع هو أن تتّجه مصر صوب إفريقيا كما يدعوها إلى ذلك ومنذ أمد طويل مثقفون كبار.

يقول الإسرائيليون أنهم سيفاوضون كل بلد عربي على حدة! مهزلة. الجزائر وحدها صامدة على ما يبدو. هل تستطيع أن تقنع الآخرين وهي على الهامش؟

عشرة آلاف قتلى.. قاعدة صواريخ في سينا استسلمت دون مقاومة.. يصرخون: متى كنّا عبيداً؟

.. متى كنتم أحراراً؟

أسدل الستار على المأساة وخفّ المبعوثون الصحفيون إلى قواعدهم بعد الاحتفال بالاستيلاء على القدس. لم يبق هناك أي شاهد على مآسي اليوم والغد، يصف ما فعلوا وما يفعلون.

لا أحد يتكلم عن علم على نتائج العدوان. مؤامرة كبرى ضد العرب.

* *

يونيو 14

تسير الأمور حسب ما كان مخططاً.

لم تقم إسرائيل في نظر الأمم المتحدة، أو من يهيمن عليها، بعدوان وإنما بدفاع مشروع عن النفس. لم تتوسع على حساب الغير وإنما قامت بعملية وقائية ضرورية لحماية شعبها. وهي الآن

وصية على كل السكان الواقعين تحت حكمها. تنظم أمورهم حسب ما تقتضيه مصلحتها. . سلوك يتفهمه الغرب لأنه كان سلوكه هو طوال القرن الماضي ولا زال يحنّ إليه.

والعرب، من جانبهم، لا يزالون يعيشون في القرن الماضي بانقساماتهم وتحالفاتهم الهشّة وأنظمتهم الضعيفة وسياساتهم المتهافتة. يعلنون عن مواقف جوفاء لا تمت إلى الواقع بصلة.

تقول الإذاعة الفرنسية: اتسعت الدولة اليهودية الصغيرة، متناسية أنها كانت تدعي قبل أسبوع أن الدولة الصهيونية لا تهدف إلاّ إلى الحفاظ على كيانها.

كل شيء يشير إلى تكوين فلسطين يهودية تعيش على أرضها أقلية عربية محكومة ومستغلة كما لم تحكم وتستغل أية أقلية في العالم. وهذه الدولة التي تريد اليوم إرغام الدول العربية المجاورة على التفاوض معها حسب شروط الغالب ـ تبحث الآن مع الغرب صيغ الحلول الممكن تقديمها إلى العرب كما لو كان هؤلاء بدون إرادة ـ، التي ترفض كل وساطة، سيما وساطة الأمم المتحدة، هي نفسها أنشئت بقرار من الأمم المتحدة ولا تستمد مشروعيتها الدولية إلاّ من ذلك القرار. هذا ما كان يشدّد عليه السياسيون الغربيون قبل أسبوع. إسرائيل جزء من مشكلة موكولة منذ البداية إلى الأمم المتحدة فكيف يمكن أن تتصرف كما لو كانت دولة مثل سائر الدول؟ وهكذا يتحايل الجميع على طمس المسلمات الواضحة!

نعم بمجرد ما رفض الاتحاد السوفياتي أن يتدخل عسكرياً وعجزت مصر حتى على التفكير في شن حرب شعبية، أصبحت إسرائيل تملك كل الأوراق. يمكن لها أن تتصرف كما تشاء، أن ترتكب كل الجرائم، أن تنطق بكل السفاهات، واثقة بأن ما تفعله

وتقوله يفسر دائماً لصالحها على أعمدة الصحافة الدولية.

[بعد الظهر]

الإحالات الإسرائيلية التاريخية: القدس، بيت لحم، سينا.. كلها أراضٍ عربية. ولا ينتبه الأجانب إلى هذه النقطة، مع أنهم في الأسابيع القليلة السابقة كانوا يستهزئون من الاستشهادات التاريخية العربية ويقولون إنها تدلّ على عقلية متخلفة وسيطية. دائماً ازدواجية الحكم!.

الحرب الدفاعية العربية جهاد رهيب. أما حرب الإبادة التي تمارسها إسرائيل فهي مقاومة مشروعة. تعلق العرب بالأرض أمر مضحك. أما بكاء اليهود على الحائط والاحتفال على قمة جبل سيناء، فذاك مشهد مثير!! منطق معكوس.

* *

يونيو 15

بدأ الغرب يهتم بمأساة اللاجئين، بالجنود المصريين التائهين في صحراء سيناء. يساعد إسرائيل على خلق المأساة ثم يهتمّ لنتائجها المؤلمة. ما هذا المنطق؟

موجة عارمة من الكراهية والحقد على العرب، كل العرب، عمّت الغرب. لم تترك أية فرصة للاعتراف بالحق أو الواقع. لا أحد فيهم يغالب الزور.

متى كنّا عبيداً؟! بهذا يتأسى المغلوب البئيس كما لو لم يكن لكل شيء بداية!

* *

تقول فرنسا إنها ترفض الأمر الواقع. لكن برلمان إسرائيل

يصادق على قانون يضمّ بالفعل القدس الشرقية للدولة اليهودية.. تماشياً مع قانون الاستعمار. لا أحد يستطيع تغيير هذا الأمر الواقع كما لم تستطع الأمم المتحدة محو التجاوزات في المناطق المنزوعة السلاح وذاك منذ 1948!

هاجمت إحدى صحف طهران عبد الناصر محمّلة إياه مسؤولية إضاعة القدس. طالبت أن يقدم أمام محكمة إسلامية.

وبالفعل أظهرت الحوادث الأخيرة أن التلاعب السياسي العادي لا ينفع في رقعة الشرق الأوسط. المسألة تفض لصالح أحد الخصمين بضربة واحدة. تربح أو تخسر كل شيء في معركة واحدة. وعبد الناصر خسر كل شيء. يصعب أن يتصور المرء كيف يمكن له أن ينفلت من هذه الورطة.

هل هذه نهاية البيروقراطية المصرية؟

* *

23 يونيو

تقول الصحافة الغربية إن بودغورني طلب من عبد الناصر أن يعلم جنوده حسن استعمال الأسلحة التي توسق إليه.

هذا هو الأسلوب الجديد في التعامل مع المصريين!

* *

العنصرية تولد بالضرورة العنصرية. لكن من البادئ؟

* *

التاريخانية: أدلوجة البلدان المتأخرة. إدراك التأخر هو إمساك بمنحى التاريخ. هذه ليست دعوة بل مجرد ملاحظة.

* *

يوليو 13

ثلاثة مجالات لبلورة الوعي الصهيوني:

ـ أوروبا الوسطى: مجال قومي بسبب وجود لغة متميزة هي اليديش. يكوّن اليهود مجموعة بشرية متميّزة ـ أمة؟ قبيلة؟ عشيرة؟ ـ ما يفصلها عن الباقي أنها لا تملك أرضاً خاصة بها. فيفهم موقف دول شرق أوروبا من قضية فلسطين: موقف مصلحي انتهازي جعل الماركسية تتداخل مع القومية وتتلوّن بلونها.

ـ أمريكا: مجال أخلاقي سلوكي. كل أميركي ينتمي إلى ثقافتين. . لا فرق إذن بين اليهودي والإيطالي والإيرلندي. . لا تناقض بين الولاء لأميركا والولاء لدولة إسرائيل حتى ولو لم ترسم على الخارطة. الواقع هو أنك لا تكون أميركياً كاملاً إلاّ إذا كان لك سند أو مرجع أو ملجأ في الخارج.

ـ البلاد العربية: مجال ديني صرف. حنين إلى أرض الميعاد. إلاّ أن الخصوصية الدينية تتحول بسهولة، مع انتشار التعليم العصري، إلى الصهيونية، أي إلى قومية سياسية كما يحصل لعامّة المسلمين.

* *

ماكيافلّي وضده. أخلاقية السطوة وأخلاقية الضعف.

رواية فكرية نواتها موجودة عند كستلر.

* *

يوليو 23

يُقال إن عبد الناصر كان معتدلاً في خطاب عيد الثورة.

لم تذكر منه الإذاعة المغربية إلاّ ما خص القدر: «ولعل اللّه

أراد بذلك أن يمتحننا.. وعلى أي حال فإننا نقبل امتحانه باعتباره قدرنا..».

* *

27 يوليو

خطبة بورقيبة: «كل قائد أخفق في مسعاه يجب أن يستقيل..».

هلا طبق القاعدة عند مجزرة بنزرت!

* *

14 أغسطس

الجيش المحارب والسند في كل معسكر:

الجنود الإسرائيليون	الفلسطينيون
المدنيون الإسرائيليون	الدول العربية المجاورة
يهود العالم	العرب
الغرب المسيحي	المسلمون.

متى التكافؤ؟

* *

لا حياة بدون نسيان. كل شيء يتناسى حتى مرارة الهزيمة. أوَليست أُم الهزائم أن تنسى الهزيمة؟

قالها تشرتشل في بداية الأزمة: تمرّ الأيام وينسى أبناء العرب ما حدث!

* *

سبتمبر

سفر إلى تونس.. غمّ وألم.

زيارة لمكتب الدراسات الاجتماعية الذي يديره عبد الوهاب بوحديبة الذي كتب في 20 ماي يهنئني على صدور **الإيديولوجيا العربية المعاصرة**.

قال أحد مساعديه: ما كنت أتصور أن مؤلف الكتاب في سنك! قلت: هل هذا تنويه أم نقد؟

الواقع هو أن الكتاب وجد في تونس قُرّاءه أكثر من أي بلد عربي آخر.

يظن الكثيرون منهم أن المؤلف تونسي إما بسبب شهرة القصاص عبد العزيز العروي وإما لأنهم لا يتصورون أن يصدر مثل هذا الكتاب عن مؤلف غير تونسي.

* *

زيارة ضريح سيدي محرز رفقة أحد أساتذة الجامعة.

قلت: رغم كل شيء لا أتحمل حضور السواح الأجانب في مثل هذه الأماكن. من حسن حظنا في المغرب أن قرار المنع اتخذ من قبل السلطات الفرنسية.

شعرت باشمئزاز مرافقي.

* *

حفلة عشاء عند المحامي توفيق بن مراد الذي كان زميلي في معهد الدراسات السياسية في باريس. كم مرة ذهبت عنده زنقة كانيت حيث كان يسكن في شقة متواضعة مع فتاة نرويجية.

تزوج بفتاة تركية. عودة إذن إلى الأصل. لكن من الواضح أنه لا يزال على عادته. تشكو الفتاة التركية من عدم جدّية الرجل التونسي بحضور زوجها.

كان نشطاً في المجال السياسي وهو طالب. دعاني مرة لأعرض على الطلبة الفرنسيين أسباب الأزمة المغربية. كنت أقول: معلوم ان كذا. فيقاطعني: لا.. غير مفهوم.. فسّر للحاضرين كل التفاصيل.

لا أدري ما موقفه من الوضع في بلاده!

* *

مسجد القيروان: منظر مؤثر!

زيارة إلى معمل للسجاد التقليدي. أخرجت من جيبي ورقة وبدأت أسجل بعض الأفكار فيما كان الصانع يصف لنا مراحل صنع السجاد. بعد حين قال بصوت عال: اش يخطط هذا؟ قلت: لا عليك.. أنا من المغرب. فابتسم وتابع كلامه.

* *

أكتوبر 10، لوس أنجليس

وصلنا إلى لوس أنجليس عند الساعة الثامنة مساءً بعد رحلة دامت ثلاث عشرة ساعة. أتصور أن من يصل يوماً إلى القمر يكون مثلنا مخلوعاً عن وعيه. كانت في استقبالنا فتاة قالت إنها من طلبة الأستاذ فون غرونباوم ثم قدمت لنا زوجها. كل ما نشاهد من حولنا وضاء ساطع من الجدّة، يوافق ما كنا نتوقعه من خلال ما نشاهد على شاشة السينما. لا فرق بين واقع وخيال في جوار هوليود، هذا أول ما يخطر على بالي. الفتاة التي تخاطبنا بالفرنسية ألمانية الجنسية. تحاور لطيفة فيما أحاول التفاهم مع زوجها الأميركي. سألت: ما اسم هذا الشارع؟ أجاب: سنتري بلفارد. قلت: آه! شارع القرن. لم يعقب. كان شارعاً فسيحاً مضاءً حافلاً، يخيم عليه صمت مقلق.. كما لو كنّا نلمحه من بعيد، داخل طائرة ومن خلف

زجاج سميك. قالت الفتاة: إني أدرس الأدب المغربي المكتوب بالفرنسية وأعد الآن بحثاً عن صورة الأب في رواية إدريس الشرائبي.

وصلنا إلى **كليرمونت هوتل**، فندق صغير قريب من مقر الجامعة على ما يبدو. ودعتنا الفتاة قائلة: غداً يزوركما أستاذان من المعهد، السيد بوتشلاتي والسيد ڤاردنبورغ. . يتناولان الغداء معكما علىٰ شاطئ البحر، موقع جميل.

قمنا بجولة سريعة في «الحومة». **وستوود ڤيليدج**، حيث توجد جامعة كاليفورنيا. حومة فعلاً. هل تأثر مخططوها بتصاميم الأحياء العربية؟ الأقرب أنهم تأثروا بالمعمار الإسباني المكسيكي. هذا بنك ثم قاعة عرض سينمائي ثم كنيسة ثم مطعم ثم حان ثم متجر. لكل حرفة موقعها. وكل موقع مفصول عن الآخر بمربض للسيارات مزفّت عريض.

على باب قاعة عرض أقرأ كلمة «**بريفيو**». هل بالمجان؟

* *

أكتوبر 16

جرت أول مقابلة مع فون غرونباوم، المسؤول الأول عن مجيئي إلى أميركا، بعد تبادل الرسائل لمدة سنتين. يلقي إليّ نظرات فاحصة، مترددة بين برودة الإنجلوساكسوني وحرارة الأوروبي الجنوبي. يبدو أنه سعيد بكوني جئت بزوجتي. يظن بدون شك أن ذلك دليل على أني أنوي الإقامة هنا بصورة نهائية. يزودني بنصائح أبوية تكشف على أنه لا يزال يفكّر كأوروبي، رغم كل السنوات التي قضاها في أميركا. كما لو كان يقول لي: اعزم وتوكل، لا تخشى المسخ أو الانسلاخ.

لا شيء يهدّدك ولا أحد يودّ أن تتنكّر لهويتك. أميركا ملجأ لا وطن.

خلاصة إيماءاته: كل ما تتفضل به على طلبة هنا فهو مجزئ! يا له من استعلاء!

في وقت لاحق حضرت بصحبته الحفلة التي تقام بمناسبة افتتاح السنة الجامعية والتي يحضرها كبار شخصيات المدينة من العمدة إلى من يليه في المسؤولية. قدمني فون غرونباوم إلى عدد من أساتذة التاريخ، كل واحد منهم ينتمي إلى بلد أجنبي، وكذلك إلى أساتذة اللغات الشرقية. ألاحظ حضوراً إيرانياً كثيفاً، ربما لإغراق العرب. الشرق إيراني وتركي وأرميني وقبطي.. وبالطبع يهودي.. لا كلام على ما جرى.

* *

18 أكتوبر

ألقيت أول درس أمام ثلاثين طالباً من بينهم طالب لبناني مسيحي. لا يسجل بين قائمة المستمعين إلاّ من له اهتمام حقيقي بالموضوع. الطالب هنا كالمشاهد في قاعة العرض، أدّى ثمن المقعد فينتظر أن يستمع إلى محاضرة شيقة. ينصت، يتفهم، لا يضيع أية دقيقة إذ الدقيقة ثمينة. حضر الدرس فاردنبورغ الذي افتتح الحلقة بانتظار وصولي. قال: لم يحصل أي انقِطاع، لقد استأنفت الحديث حيث تركته كشهرزاد من ليلة إلى أخرى. عرضت المسائل من المنظور الذي يروق إلى الطلبة هنا. لم أثقلهم بالتفاصيل واكتفيت بذكر أمهات المشاكل.

* *

نوفمبر 6

نغادر الفندق والمصابيح لا تزال مضاءة لتناول وجبة الإفطار في مطعم كبير يطل على شارع ولشر. نتناول الفطائر الأميركية التي تذكرني بأعياد شبابي في المدينة العتيقة لشدة شبهها بالبغرير. ألمح على الرصيف المقابل، في طريقنا إلى المطعم، الأب قنواتي باللباس الأسود الخاص بالرهبان. ينتظر مرور الضوء الأخضر وبجانبه شرطي زنجي. يرفع الأب يده محيياً. يمرّ الضوء إلى الأخضر فيفسح له الشرطي الطريق في حركة مسرحية تشدّد على احترام السلطة لرجال الدين، أيّاً كانوا. يقترب الأب منا وهو يبتسم ثم يسرّ إلينا: لقد ذكرتكما في صلاتي. انتقل الأب قنواتي، السوري الأصل المصري الجنسية، من الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية وتلقّى تعاليمه اللاهوتية في الجزائر العاصمة. يعيش في القاهرة ويعطي دروساً في علم العقاقير لطلبة جامعة الإسكندرية ويقضي كل خريف في لوس أنجليس لإلقاء دروس في الفلسفة الإسلامية. زارنا منذ سنوات في البيضاء وجرى بيننا حديث يتذكر اليوم كل تفاصيله كما لو سجله على شريط.

* *

نوفمبر 15

تسيّر الفندق الصغير الذي نقيم فيه، صحبة عدد غير قليل من ضيوف الجامعة، امرأة مسنّة تقاعدت بدون شك بعد أعوام من العمل في بنك أو مؤسسة مالية كبيرة. تتقن آداب الاستقبال وتحسن إرشاد الزبائن الأجانب. قالت: أيسر وسيلة للذهاب إلى قلب المدينة هي امتطاء الحافلة التي تتوقف على الولشر قبالة المطعم الذي نتناول فيه عادة وجبة الإفطار. الولشر بولڤارد هو الطريق

القديم الرابط بين مدينتي (سانتا ماريا دي لوس أنجليس) و(سانتا مونيكا) على شاطئ المحيط الهادئ والذي يفوق طوله عشرين كيلومتراً. إذا كانت نيويورك مدينة «واقفة»، حسب وصف سيلين الفرنسي، فإن لوس أنجليس مدينة مضجعة، منتشرة على وجه الأرض بين الجبل والبحر. لا يعرف سكانها المشي على الأقدام. . الراجل يثير الدهشة ويوقف في الحين للتحقيق في هويته. ورقة التعريف هنا هي السيارة.

بادرنا بشراء سيارة حتى لا نبقى سجيني وستوود. قال الأب قنواتي وهو يحدق في شفروليه امپالا الرابضة قدام الفندق: هذه دبابة! . قلت: كانت أصغر وأرخص ما في المعرض. أدّيت عليها 1,400 دولار. والآن نستطيع أن نتفسح وندرج على مسالك الحرية.

* *

نوفمبر 20

أوصلنا الطريق الحرّ المفتوح إلى قلب المدينة وبالضبط إلى المجمّع البلدي للاستماع إلى حفلة موسيقية بقيادة روبن مهتا الهندي الأصل. من تكون دوروتي تشاندلر هذه التي يخلد المبنىَ ذكر اسمها؟ من أين جاءت؟ في أي درب من دروب الحياة جمعت هي، أو جمع أبوها أو جدّها، ثروتها الهائلة؟ أتهجّى الأسماء المنقوشة على المرمر، أسماء الراعين الأسخياء، قلّة إنجليزية وكثرة ألمانية يهودية ويونانية وأرمينية وإيطالية. . أتذكر ما كتبه بول ڤين، مؤرخ روما القديمة، عن علاقة المال والفن، الطبقة الوسطى وروح التباهي بالإحسان وتخليد الاسم. تلك كانت أحباس روما وهذه أحباس أميركا المعاصرة!

* *

نوفمبر 21

يهود وعرب لوس أنجليس. هذه طالبة يهودية تقول إن أمها ولدت وتربت في البيضاء وإنها تزوجت بجندي أميركي كان يشتغل في قاعدة النواصر الجوية قبيل استقلال المغرب. وهذا طالب لبناني، ينتمي إلى الجالية اليونانية الأورثوذكسية، استقدمته عمّته لكي تزوجه بابنة عمته أو خالته. الجدّة تملك متجر إكسسوار شارع هوليوود. لا أدري ما تعني الكلمة بالضبط سوى أن لها علاقة بصناعة السينما. المرأة مسنّة وقورة مهيبة، كغالب الأميركيات المسنّات، بشعرها المصفف الفضّي وعينيها الشيبيتين. تقول إن أسرتها نزحت من رحلة أوائل هذا القرن، سكنت أولاً مدينة بوسطن ثم انتقلت إلى الميدل وست ثم تابعت الزحف نحو الغرب إلى أن استقرت في لوس أنجليس. تقول: كنا نعرف بالشوام (سيرين). لا نقول إننا عرب. العرب هم البدو الذين يختلفون إلى المدن المحصنة ولا يمكثون فيها طويلاً. اليوم تغيّر كل شيء. أصبحنا نقول: إننا عرب أو نحن العرب. أنظر إلى تقاسيم وجهها ثم ألتفت إلى لطيفة وأشعر كأني أغوص في ماضٍ سحيق. أتخيل أني أحد أولئك البحارة المغامرين الذين تاهوا، حسب ما يروى، على وجههم حتى اصطدموا بشاطئ لم يعرفوا اسمه ولا موقعه. ما أحلى أن ترى في التيه وجهاً لا تنكره!

* *

نوفمبر 26

عادت لطيفة من بلدة هميت. هل كان الاسم حماة ثم حرف؟ يُقال إن الأميركان جلبوا في القرن الماضي عدداً من الجمال الشامية. يوجد في هميت معسكراً لكتائب السلام (پيس كور). طلب فون غرونباوم من لطيفة أن تلقن الطلبة بعض الدروس في

اللهجة المغربية. تصف المعسكر، مساكن خشبية أعدت أصلاً لإيواء عمال موسميين يأتون من المكسيك المجاورة. تصف كذلك بهلوانيات شاب مغربي موهوب يُدعى بشير سكيرج، تتنبّأ له بمستقبل زاهر على خشبة المسرح. تقول إن أغلبية الطلبة مولعون بتدخين المارخوانا ويعتقدون أن تعاطيها عادي ومشروع في المغرب. هذا من حسنات الكاتب پول بولز. أتساءل: من يؤثر في الآخر؟

* *

الأب قنواتي: أقرأ افتتاحيات حسنين هيكل كما أقرأ روايات الخيال العلمي.

إن ما يكتبه نوع من الخيال السياسي (پوليتيكس فيكشن). نعم هيكل ساحر منوم، يدغدغ عواطف من؟ رئيسه أم شعبه أم الأعداء؟

* *

رافقت لطيفة إلى المستشفى الجامعي ووقفت أنتظر في البهو. تقدمت نحوي سيدة متوسطة السن وانطلقت ترطن بالإسبانية. اعتذرت بأني لا أفهم ما تقول فسكتت وابتعدت غاضبة. هذه هي الأرضية التي شيدت عليها المدينة. أسماء المدن والشوارع والمعالم الطبيعية كلها إسبانية مكسيكية والتجمعات البشرية كانت في الأصل أديرة. وسيل المهاجرين من الجنوب لا ينقطع. ومع ذلك تلاحظ في الحين أن حالة الجالية المكسيكية هي أسوأ من وضعية الهنود الحمر أو السود. يأتي المهاجر الأبيض من أي جهة فيندمج بسهولة في الحياة العامة إذا كان يملك بعض المؤهلات. أما المكسيكي فإنه يظل طوال حياته خارج اللعبة مهما جدّ واجتهد، إلاّ أقلية رمزية تبرز في المناسبات لدفع تهمة التمييز. هذه هي شارة العصر..

تبتعد آلاف الآميال مما يشوش بالك فتجد ذلك الأمر المقلق هو ذاته ينتظرك أينما ذهبت. يدّعي ساكن لوس أنجليس ـ أهله من ريغا أو وارسو ـ وبكل قناعة أن كاليفورنيا شمال وجنوب، وأن الشمال أوسع وأغنى من الجنوب، لو لم تضمّه إليها الجمهورية الأميركية لاستولت عليه روسيا. أما الجنوب فإنه كان أرض دعوة تسيطر عليه الرهبانيات وجماعات المغامرين، والكل كان خارج سيادة دولة المكسيك المفككة القريبة العهد بالاستقلال عن التاج الإسباني. طبيعي إذن أن أتفهم غضب السيّدة المكسيكية وطبيعي أن يتفهم المهاجر من ريغا أو وارسو المزاعم الإسرائيلية. لا ينفع في الأمر أي بيان.

خرجت لطيفة والسرور بادٍ على محياها. قالت: الطبيب متفائل جدّاً. . مسألة توازن هورموني. أخطأ الطبيب الفرنسي في القياس. عقّبت مسيس ويبر أوفيبر ـ فرنسية متزوجة بأستاذ روماني ـ التي التحقت بنا: وأنت لا بدّ أن تساعد!

* *

نوفمبر 28

جولة أحدية في بفرلي هيلز. . أروقة روبنسون، صالونات هيلتون، محلات فرفاكس، المنطقة كلها تسطع بألوان البذخ. من قال إن المال لا يورث الذوق؟ شريف مفلس. شوارع الحي واسعة، معبّدة، تتلألأ كمجاري المياه من دقة الذزفت وسماكته. تتفرع في كل الجهات ثم تتوقف بغتة على عتبة حي يقطنه الزنوج والمكسيكيون. ليست لوس أنجليس مدينة منتشرة مفككة بقدر ما هي مدائن متحادية عن تجاهل وبغض.

* *

30 نوفمبر

ذهبت إلى نادي الأساتذة لتناول الغداء مع لطيفة. اقترب منها الحارس وقال لها بلباقة: مسيس، **نوسلاك!** (لا نقبل البنطلون هنا).. من بقايا العادات الإنجليزية. لا تمنع النساء من زيارة أندية الرجال بشرط أن لا تتشبّهن بهم. لسنا وحدنا أنصار الحشمة.

* *

في طريق العودة إلى عمارة العلوم الاجتماعية حيث توجد مكاتب أساتذة التاريخ سألني ستانلي وولپرت الذي يدرس تاريخ التوسع البريطاني: ما هو الحلّ في رأيك؟ الاعتراف المتبادل؟ يعني بين الإسرائيليين والفلسطينيين. قلت: الواقع إن حظوظ الحوار المباشر منعدمة الآن. الإسرائيليون يجرون وراء مفاوضة العرب، أي الحكومات باستثناء الفلسطينيين. وهؤلاء لا يقبلون مبدأ التفاوض المباشر إذ يرون فيه اعترافاً مسبقاً بالأمر الواقع. الحلّ الوحيد، بل المسطرة العملية الوحيدة، في فتح قنوات للاتصال بين الزعماء الفلسطينيين ورؤوس الجالية اليهودية هنا في أميركا. نظر إليّ باستغراب وغيّر مجرى الحديث. وولپرت هذا كتب رواية عن مصرع غاندي وحولها إلى فيلم أخوه الذي يشتغل في مصلحة التمويل لإحدى شركات هوليوود. يشاع أنه جنى منه أموالاً طائلة لا تزال تتراكم بعد ما يزيد على عشر سنوات. وبالفعل يقطن مسكناً فاخراً، **بارونيل** في الاصطلاح المحلّي. أقارن كلام وولپرت وموقف ويبر الروماني الذي يرأس شعبة التاريخ والذي ألّف كتاباً عن الحركة اليمينية في فرنسا. قلت إن اليهود لعبوا دوراً في بعث الوعي القومي أثناء القرن الماضي في بلدان كهنغاريا ورومانيا وبولونيا. أجاب: ثم انقلبت عليهم

الشعوب عندما لم تعد في حاجة إليهم!

* *

ديسمبر

نتجول في رحاب سانتا مونيكا، بين **المول** ـ عبارة عن قيصرية عصرية فاخرة ـ وشاطئ المحيط الذي يحفّه طريق سيّار مظلّل بشجر النخيل. بذخ ورخاء ونعومة.. طنجة في عهدها الدولي، آكدير عندما كانت تلقّب بنيس إفريقيا، الدار البيضاء عندما كانت تشبّه بمدينة فُطْرية، كل ذلك مجمّع في بقعة ضيقة بين الجبل والبحر. هذا ما يخلّفه المال. وبالطبع يخلّف أشياء أخرى مناقضة، إلا إنه يخفيها عن الأنظار، جنوباً وشرقاً. لماذا تتركز البشاعة دائماً في الشرق وفي الجنوب، حتى في عواصم الرفاهية؟ وقد تحل البشاعة في قلب البهاء.. رغم محاولات إخفائها. بين العمارات العالية الفاخرة ألمح أبواباً مهملة لا تشرع أبداً، تحمي صالات مضاءة كهربائياً ليل نهار، تلفظ من حين لآخر أشباحاً مطأطئة الرأس مترنحة المشية. لو لازمت هذا المقعد لرأيت يوماً ما شارلز بوكفسكي يغادر إحدى تلك الحانات.

* *

لا تستطيع أن تسير وسط وستوود دون أن تعترضك المأساة مشخصة في رجل أو المرأة: النازية وجرائمها، الستالينية وحماقاتها، إسرائيل وعجرفتها، المكسيك وبؤسها، الزنوج وسخطهم، إلخ. استوقفت اليوم پونا والا المكلّف بتحرير بيبلوغرافيا الآداب الإسماعيلية. سألته: أولا تظن أن حالة المسلمين كانت تكون أفضل لو بقوا داخل الاتحاد الهندي؟ أجاب بما أجاب بصوته الخفيض وأسلوبه الهادئ المتعقل، لكنني شعرت أنه يقول لي

من وراء الكلمات: تظن يا أحمق أنك ملمّ بالمشكلة لأنك قرأت عنها صفحات باردة. هيهات أن تفهم الأزمة وأنت لم تكتوِ بنارها. الصمت وحده يليق بالضحية ومع ذلك يرغم على التعبير، على وصف ما لا يناله الوصف. قمة الظلم أن يضطرّ المظلوم على الإعراب عن آلامه!

* *

لطيفة في رعاية الطبيب وأنا ضيف على ڤاردنبورغ بمناسبة عيد ميلاده. يعيش مع فتاة شقراء، طويلة القامة، لاجئة من إحدى الجمهوريات البالطية. لم تعترف أميركا أبداً بضمّ روسيا للجمهوريات الثلاث بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. يسكن خارج لوس أنجليس في منطقة جبلية تدعي طوپنغا كانيون يعيش سكانها في هلع دائم من خطر الحريق أيام الصيف، يذكرني الموقع بالوادي الذي يحيط بفونتي غرب أكدير. قدمني ڤاردنبورغ لفتاة إيرانية. سألتني عن مشاغلي فأجبتها. لم أدر ماذا فهمت من قولي إذ سألتني بغتة: هل أنت شيعة (هكذا)؟ كدت أن أنفجر ضحكاً.. لا من فحوى السؤال، لا من الفكرة ذاتها، بل من الكيفية التي نطقت بها كلمة شيعة ومن حماس الفتاة ومن بريق الأمل في عينيها السوداوين.

* *

تسير فوق رصيف هوليوود بولڤارد وتقرأ الأسماء المنقوشة بالذهب على مخمسات من المرمر الأخضر: شارلتون هستون، هامفري بوغارت، ألن لاد، إلخ. تقرأ بعض التوقيعات مثل ما كتبته شرلي تانبل: أحبكم جميعاً بتاريخ 3/ 4/ 35 أو ري ميلاند: شكراً على هذا التشريف بتاريخ 4/ 7/ 46. تتذكر الشريط الذي منح من

أجله الأوسكار. كان ذلك بداية عهدك بثانوية مراكش. لم يعجبك الشريط لأنه كان يروي قصة رجل مدمن على الخمر، يبعث على الحزن في حين كنت، وأنت طالب شاب، تتطلع إلى ما يفرح ويفرج. تسبح في الفضاء وتحفظ أسماء النجوم وتبادل الابتسامة رفاق الأمل وتردد: هذا سقف الدنيا. فيغمرك اليأس.

* *

المطلوب من الأستاذ في أميركا أن يحضر كل يوم عمل إلى مقر الجامعة. فيخصص له مكتب يحتوي على كل التجهيزات اللازمة. الدراسة مكلفة هنا، يؤدي عليها الطالب مصاريف باهظة. وكما يجتهد حتى لا يضيع وقتاً يساوي مئات الدولارات فإنه يلحّ على أن يكون الأستاذ تحت اليد كلما احتاج إلى إرشاده. كالمريض قبالة الطبيب أو المتهم قبالة المحامي أو سائق السيارة قبالة صاحب الورش. والعادة أن يترك الأستاذ باب مكتبه مفتوحاً كما لو كان يعرض علمه على الراغب في الاستفادة منه، كما يفعل العدول عندنا في البنيقات المحيطة بمحكمة القاضي. تحتفظ بعض الأعراف الأميركية، الموروثة عن الإنجليز، بطابع القرون الوسطى. قد تكمن هنا جذور الحرية عندهم، في سلوكهم اللاواعي وليس فيما يخطه دستورهم.

* *

نادم على خطأ ارتكبته عن غير عمد، بل بغير وعي، لكنه يلحق ضرراً محققاً بطالب نجيب ومواظب، ينتمي إلى جماعة المورمون المسيطرة على ولاية يوتاه والمعروفة بجدّها واستقامتها. يتعلق الأمر بمسطرة التنقيط المتبعة في أميركا. يفضلون الحروف على الأرقام. إلاّ أن الفرق بين درجتي A و B مثلاً لا يعادل الفرق

بين 20 و16 بل الفرق بين 20 و10. التفوق هو أن يحرز الطالب على درجة A في كل المواد. وإذا ما تخلّف في مادة واحدة فقد يؤثر ذلك سلبياً على مستقبله الأكاديمي. والطالب المورموني كان يستحق أن ينال A. إلاّ أني أعطيته B لأني كنت أنتظر منه إنجازاً أعلى بالنظر إلى مؤهلاته دون مقارنة مع غيره. كان من واجبي أن أتحقق من كل هذه الملابسات قبل السقوط في الخطأ لا بعده، إذ يصعب مراجعة النتائج بعد تسليمها كما يصعب على القاضي أن يلغي الحكم بعد إعلانه. عشت دقيقة مخجلة إذا اضطررت على الاعتراف أني غبي.

* *

يستعدّ الجميع لمغامرة المدينة والالتحاق بأسرهم المتفرقة في كل الجهات لقضاء أعياد رأس السنة. يسافر الأب قنواتي رفقة ڤاردنبورغ لمشاهدة الكاينون الكبير ـ إحدى غرائب الدنيا ـ قبل العودة إلى القاهرة. لا نفكر في مصاحبتها إذ نصح الطبيب لطيفة بملازمة الفراش حتى لا تتجدّد مأساة نعمان. لم يعد يسكن الفندق معنا سوى عدد قليل من الشيوخ المتقاعدين. كلّما نزلت من الغرفة أراهم مجتمعين في الصالون يتحدثون مع المديرة أو مع حارس الليل. يستمعون اليوم في صمت إلى ما يقوله لهم رئيسهم عن مجرى حرب فيتنام. يومئ بيده إلى حركة صعود ثم إلى حركة هبوط. أتصور أنه يرمز إلى تحسن الوضع العسكري. لا همّ اليوم للأميركان إلاّ ما يجري في أدغال جنوب شرق آسيا. يسجلون كل ليلة مع ولتر كرونكايت عدد القتلى والجرحى والمفقودين. فلا تذكر لهم مسألة الشرق الأوسط. هذا ما لم يدركه عبد الناصر. قد يكون قد ظن عن غباوة أو عن استدراج ـ ممن؟ ـ أن الفرصة سانحة للانتقام ومحو العار. ياللسخافة!. لم يدرك أن «وحلهم» في فيتنام

هو ما يدعوهُم ـ سيما تحت قيادة رجل من الجنوب، من ولاية تكساس ـ إلى أن يصبحوا طرفاً في النزاع حتى لا تتراجع أميركا في منطقتين معاً.

1968

يناير

٨ استُئنفت الدراسة في الرابع من الشهر.

عن قريب نغادر فندق كليرمونت وننتقل إلى منزل وولف لسلاو، أستاذ اللغات الإثيوبية، الذي يسافر إلى اديس أبابا في مهمة دراسية تستغرق ستة أشهر. في مثل هذه الحال يرحب الأستاذ المتغيب بزميل زائر يحفظ له المنزل بما فيه ويؤدي له مئتي دولار إيجاراً شهرياً. يبدو أن مسيس لسلاو تعطف على لطيفة.

قال لي فون غرونباوم: تتحسن إنجليزيتك يوماً عن يوم. إنك بليغ بالسليقة. هل يشير إلى موهبة خاصة بي أم إلى بلاغة العرب أو المشارقة بعامّة؟ أجد كل المراجع التي أحتاج إليها في مكتبة الجامعة التي تظلّ مفتوحة إلى غاية العاشرة ليلاً. عثرت فيها على كتب ومجلات بحثت عنها عبثاً طيلة أعوام في خزانات باريس والرباط. أجمع الآن المادة لكتابة مقال عن كارل ماركس والعالم الثالث طلبه مني أنور عبد الملك باسم اليونسكو. لا أتصور أني كنت أنظر إلى المسألة المطروحة كما أنظر إليها الآن لو كنت مقيماً في المغرب.

لولا لطيفة وما تحمل ـ وأتمنى أن يكون حظه أفضل من حظ نعمان ـ لنسيت أين يقع المغرب. كما أن الأميركي أميركي أكان من كاليفورنيا أو من لويزيانا فإن العربي عربي أكان من البيضاء أو من دمشق والأوروبي أوروبي أكان من أوسلو أو من روما. إن الأميركيين يفكرون حسب القارة لا حسب الدولة. وهذا لا ينفي بالطبع التعلق بالأصل والمنشأ، بالوطن الصغير، بالجماعة المحلية، بالقبيلة في تعبيرهم الخاص. ألاحظ هذا الأمر في كل خطوة. السياسة هنا تخضع إما للأنثروبولوجيا وإما للجغرافيا. فتنشأ تقاربات غير متوقعة. أُسأل عن وطني فأجيب: المغرب. فيقول السائل: أين يقع؟ فلا أرى مناصاً، ولا حرجاً، في التأكيد: جنوب إسبانيا.

سمعت بأستاذ يدعى اسكندر بدوي متخصص في الفرعونيات ـ لم أره قط ـ، وبأستاذ يدعى نوتي يدرّس الأدب الإفريقي المكتوب بالفرنسية ـ لم أره قط ـ، وبطالب فاسي يتابع محاضرات الأب قنواتي عن الفلسفة الإسلامية ـ لم أره قط ـ، وبطالب مغربي آخر يتكلم البربرية ويساعد الأستاذ المكلف بتدريسها ـ لم أره قط ـ وعكس ذلك أقابل كل يوم عمل وبير الروماني وفنكلشتاين الروسي وَوولبرت من يهود بروكلين. . قال الأب قنواتي إن أوسعهم اطلاعاً على أحوال الشرق الأوسط وأكثرهم تفهماً لمشاكل المنطقة هو مالكولم كار الذي درس بعمق أعمال محمد عبده ورشيد رضا والذي عاش طويلاً ـ إن لم يكن قد وُلِد ـ في بيروت.

لا كلام هذه الأيام إلا على هجوم التيت (رأس السنة) في فيتنام. يبدو أنه باغت القيادة الأميركية وكشف عن مدى تسترها عن واقع الحال ومغالطتها الرئيس جونسون والشعب الأميركي. كل يوم تزيد قناعتي أن أي تراجع في فيتنام يضاعف من تصلب الأميركان وعجرفتهم في الشرق الأوسط، بحثاً عن تكافؤ استراتيجي موهوم.

أصبحت اللعبة فوق قدرة رجل مثل عبد الناصر.

* *

رحلنا إلى فرفاكس آفنيو حيث منزل لسلاو. ما استقر بنا الحال حتى وصلتنا رسالة تقول إن سكان الشارع يرحبون بنا ويدعوننا إلى نزهة تقام يوم الأحد على شاطئ ماليبو.. هذا أحد أوجه الروح الجموعي عند الأميركان، الموروث ربما من أيام **الفار وست**.. في هذا المستوى لا دخل لأية سلطة مهما تكن.

أشعر أن جو الجامعة قد تغيّر. بدأ الاستعداد لخوض معركة الانتخابات الرئاسية التي ستطغى عليها قضية الحرب أو السلم في فيتنام. لا كلام بين الأساتذة إلاّ على هذا الموضوع، ينتمون في غالبيتهم إلى الحزب الديموقراطي ـ أمر طبيعي ـ ويتطلعون إلى ترشيح روبرت كنيدي. هذا ما أقرأه يومياً في صحيفة الجامعة (البروين The BRUIN) وما أسمعه يتردد عبر مكبرات الصوت في ركن الخطباء، على هضبة شاش، عندما أغادر المكتب منتصف النهار وأقصد المطعم أو متجر الطلبة. في الفصل المنصرم كانت الموضوعات المطروقة تتعلق بحقوق الأقليات وبالسياسة الإسرائيلية وبالأزمة الأخلاقية وبملكوت المسيح..

* *

فبراير

زارني عبد الباقي هرماسي (تونسي) المقيم الآن في جامعة بركلي. ترافقه فتاة جميلة شقراء اسكندنافية الشكل. ينتسب إلى شعبة العلوم السياسية ويبحث في حقل تكوّن القيادات السياسية المغاربية. كلّمني عن كتابي **الإيديولوجيا العربية المعاصرة**. قلت له إن البلد الوحيد الذي كان مستعداً ذهنياً لتقبل فحوى الكتاب هو

تونس، ربما بسبب تجذر الحركة الإصلاحية فيها منذ عهد خير الدين. ثم غيّرت فجأة مجرى الكلام وأطنبت في مسألة الأخلاق العمومية. قلت: ظن الناس أني قصوت على العرب، وبخاصة على المثقفين، وهذا غير صحيح. اكتفيت بفضح خلل فكري وسكتُّ عن الخلل الأخلاقي وهو أخطر. أنظر إلى سلوكنا جميعاً، كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءاً، حكاماً ومحكومين. أين الأمانة؟ أين الصدق؟ أين الجرأة؟ أين الاستقامة؟ كانت سورة غضب، غير متوقعة مني، قد يكون باعثها ما أقرأ عن الشرق الأوسط وما ألاحظ حولي من مسؤولية ومن وعي بالواجب.

لم يعترض.

* *

أوبرلين هو الطالب المرموني الذي ارتكبت خطأ في حقه. مع ذلك لم يحقد عليّ وسجل نفسه في القسم الثاني من الدرس، تاريخ بلاد المغرب بعد القرن 15م، صحبة رفيق له من الولاية نفسها، **يوتاه**. طالبان مجتهدان لامعان (**برايت**). لهما اهتمام خاص بالإسلام، ربما لما يتّهمون به من كونهم لا يزالون أوفياء لعادة مؤسس نزعتهم، أي تعدد الزوجات، رغم انضمامهم إلى دستور البلاد الذي يمنع منعاً تلك العادة. يظن مسلمون كثيرون أن العقيدة البروتستانية، سيما بعض الفصائل كالموحدين (**يونيتارين**) قريبة من الإسلام، وأن الفَرق الوحيد هو الإيمان بنبوّة محمد. هؤلاء لا يدركون أن ما يبعد المسيحيين، كل المسيحيين المعاصرين، عن الإسلام ليس العقيدة بل العادات الاجتماعية المضمنة في الشريعة، وبصورة خاصة ما يخصّ وضع المرأة. بقدر ما تكون المرأة نشيطة ومؤثرة في مجتمع غربي بقدر ما يتضاعف عداء هذا الأخير للإسلام.

* *

انطلقت المعركة حول الترشيح للانتخابات الرئاسية وفي الحين تجنّد الطلبة كما لو كانت السياسة هي أول مشاغلهم. مع أن هذا الأمر لم يكن يلمس في الشهور القليلة الماضية. من زار الجامعة أسابيع في الخريف المنصرم وغادرها نهائياً كان يجزم بأن الأميركيين شعب غير مولع بالسياسة. لم يعد يسمع الآن إلاّ اسم يوجين ماكرثي مقروناً بالدعوة إلى السلم. غريب كم لكلمة (پيس) من وقع في النفوس. ويزيد الاستغراب إذا ذكر المرء أن تاريخ البلاد سلسلة متصلة من الحروب في الداخل والخارج، ضد الهنود ثم الفرنسيين ثم الإنجليز ثم الإسبان ثم الألمان ثم اليابانيين ثم الصينيين ثم الفيتناميين. ونستطيع أن نضمّ العرب إلى القائمة. تناقض صارخ بين هذا الميل إلى العدوان وبين تعلقهم الحقيقي بالسلم. لقد عشنا تناقضاً مماثلاً طيلة قرون عندما كنّا من جهة نعتبر أن الحفاظ على التوازن الاجتماعي هو الهدف الأسمى وفي الوقت نفسه ندعو إلى تغيير المنكر.

* *

دعاني فون غرونباوم إلى محاضرة ألقاها في نادٍ ثقافي. قدّمني للأستاذ تيتسي الذي قال إن والده كان صديقاً حميماً لجدّ لطيفة. ما أصغر رقعة الدنيا! لم أفهم شيئاً من المحاضرة ولا من الأحاديث التي تدور حولي. يبدو أن النادي خاص باللاّجئين من ڤيينا. يتكلمون لهجة ألمانية يستعصى فهمها على سواهم. لماذا حرص فون غرونباوم على دعوتي؟ ليقدم لي السيد تيتسي؟ طبعاً لم تحضر أية امرأة. ذكرني الحادث بفصل من مطوّلة ميوزيل. عندما كنت أحضر مباراة التبريز سمعت أحد الأساتذة الفرنسيين يقول: لا شك سمعتم بغرونباوم ذلك النمساوي الأميركي الذي يهتم بالجماليات.

نعم الثقافة، بالمعنى الكلاسيكي، تعدّ من الجماليات.

* *

لطيفة: لا وجه للمقارنة بين الطبيب الأميركي والطبيب الفرنسي. لا ينحصر امتياز الأول في جودة التجهيزات بل يتعلق أساساً بالعناية. تتكلم طويلاً عن حرارة الدكتور ديغنم وعن برودة واستعلاء فيلي الفرنسي الذي لم يستطع إنقاذ نعمان. وأخيراً أجابت عن سؤالي: نعم كل شيء على ما يرام.

ـ العلق عالق إذن!

* *

في طريقي هذا الصباح إلى المطعم قرأت على أولى صفحات لوس أنجليس تايمز بحروف ضخمة: الأردن تهاجم إسرائيل..

وبالطبع لا صحّة للخبر.

* *

قال يوجين ويبر: للأسف الشديد سيفارقنا الخريف المقبل الأستاذ طومسون ملتحقاً بجامعة ييل. هذه أقرب إلى مزاجه. الأستاذ طومسون من جنوب إفريقيا وزوجته إنجليزية قال لي مرة: إني أقرأ تقارير الأساتذة هنا فأجدها مشوشة. لم يتمرنوا على ترجمة اللاتينية، على ترتيب المفردات والجمل والمقاطع حسب قواعد كوينتيليان. يسجلون الملاحظات كما تسنح. والنقد نفسه جرى على لسان الأب قنواتي. قال: طلب مني فون غرونباوم أن أكتب مقالاً حول أعماله المنشورة. فلم أجد فيها فكرة عامّة، خيطاً ناظماً أعتمد عليه. إنما هي سيل متدفق من الملاحظات المتفرقة. والغريب أن هذا كان أحد مآخذ فون غرونباوم على طريقة أدباء العرب مثل الجاحظ أو التوحيدي.

الواقع هو أن الأميركيين يتكلمون كما يتنفسون، بطلاقة وبدون تمتمة الإنجليز المصطنعة. كلام ديموقراطي مقابل خطاب أرستقراطي. نعم الطلبة الأميركان غير معتادين على «التصميم». ثم ماذا؟ لست مقتنعاً بأن الطريقة الكلاسيكية التي يفخر بها الأوروبيون، والتي ورثناها نحن المغاربة المحدثون عن الفرنسيين، هي المثلى. نعم إن «التصميم» يفرض أحكاماً مسبقة وإنه يحدّ من حرية التفكير. قلّما نجد عند الطالب الأوروبي، وبالأحرى العربي، تلك العفوية التي نلمسها عند الأميركي. فكر بدون عمق؟ هذا ما يقال عادة لكن المسألة تتطلب نقاشاً أوسع.

* *

هذا الصباح طرقت لطيفة باب مكتبي وهي في غاية الاضطراب. قالت إنها كانت تقود السيارة في طريقها إلى الجامعة والمطر يتهاطل بغزارة. شعرت أنها اصطدمت بشيء، لكنها لم تعرف ماذا بالضبط. فضلت أن تلحق بي في الحال وتخبرني بالحادث. قالت إنها لا تعتقد أن أحداً رآها إذ بدت لها الطريق فارغة تماماً. هدّأت روعها وطلبت منها أن تذهب في الحين عند الطبيب ليكشف عن حقيقة حالها. بعد نصف ساعة تقريباً حضر شاب قال إنه طالب في الجامعة وإنه صاحب السيارة. كيف توصل إلي؟ هذه هي لوس أنجليس! هذه هي أميركا! تظن أنك وحيد في صحراء ثم تكتشف أن كل ما تقوله يسجّل وما تفعله يصوّر. اللافت للانتباه هو أن هذا الطالب الذي لا يتجاوز عمره العشرين سنة كلمني بهدوء ورصانة كما لو كان محامياً محنّكاً. قال إنه لا يودّ أن يذهب إلى القضاء إذ لا يليق بطالب أن يقاضي أستاذاً رغم أن المخالفة (هيت اند رن) تعدّ من أخطر المخالفات في أميركا. وشرع يحكي ما حصل لبعض من غادروا مكان الحادث وكيف أدّى بهم

ذلك إلى الإفلاس. وأخيراً اقترح علي أن نتفاصل على أساس أن أتحمل تكاليف إصلاح سيارته وتعويضه على مصاريف النقل أثناء عملية الإصلاح. قال هذا وهو مقتنع أنه يحسن إلي.

لنقارن بين التربية التي أدّت إلى مثل هذا التصرف وتربيتنا نحن إذ نجد الشاب فوق العشرين لا يقدم ولا يؤخر رجلاً إلاّ مصحوباً بأحد أقربائه. قبل الحماية كان ابن السابعة عشر يغامر لأنه كان يعرف قواعد المجتمع. كانت تربيتنا ملائمة للواقع. ثم جاء الاستعمار فأقصى المغاربة عن المجال العمومي. حاصرهم في بيوتهم أو في بيوت الله فأصبحوا كلما تخطوا عتبتها يواجهون عالماً غريباً عنهم يجهلون قواعده. هذا هو أصل العجز المتمكن في نفوسنا. لم يتغيّر شيء بعد الاستقلال إذ البناء الذي شيّده المستعمر ظل على حاله. كلّنا مثل البدوي الذي ينزل من القطار ذاهلاً عن نفسه لا يدري في أي اتجاه يسير.

* *

يحتدّ الصراع يوماً بعد يوم بين أتباع ماكّرثي، وهم شبّان، وأنصار أسرة كنيدي، وهم في الغالب كهول. يقول هؤلاء: لا يستطيع ماكّرثي، الذي كان مغموراً قبل ثلاثة أشهر، أن يكسب المعركة الرئاسية وسيكون الخاسر في النهاية هو حزب السلام. الأنسب هو أن يتنازل من الآن لصالح روبرت كيندي لأن هذا يملك مؤهلات، عائلية وحزبية وشخصية، كفيلة بضمان الفوز له وللديموقراطيين وبالتالي توفّر حظوظ تسوية سلمية في فيتنام. يردّ الشبّان أنصار ماكّرثي: هذا هو اللؤم بعينه. لم يجرؤ روبرت كنيدي على مواجهة جونسون خشية غضب أقطاب حزبه في حين أن ماكّرثي غامر بمستقبله السياسي إذ كان أول من كسر جدار الصمت. أظهر جرأة فائقة إذ نادى بضرورة فتح مفاوضات سلام عندما كان

الجميع يقولون: هذا انتحار، الشعب مع الرئيس ولا يودّ سماع أي رأي مخالف. وبعد أن ثبت على مبدئه ومهّد الطريق وأعطى الدليل على أن قسماً مهماً من الشعب الأميركي يتجاوب مع الدعوة إلى السلام، يطلب منه الآن أن يتنحّى لغيره، لا لسبب سوى أن ذلك الغير يحمل اسماً معروفاً؟ يتحول شيئاً فشيئاً السجال السياسي إلى مواجهة أخلاقية فينفجر من جديد ينبوع البوريتانية الذي يغذي الثقافة الأميركية منذ تأسيسها.

ينتمي يوجين ماكّرثي إلى وسط أميركا. يذكر وجهه بميدالية سيناتور روماني. وزوجته المثقفة تحمل اسماً توراتياً هو أبغائل يمثل الطبقة الوسطى الراقية التي تعرف قيمة كل شاب يسقط في أدغال آسيا ضحية سياسة مرتجلة.

* *

مارس

تشارك لطيفة بانتظام في اجتماعات النادي النسوي المخصّص لزوجات الأساتذة. فضلت لجنة القراءة والنقاش على لجنتي الطبخ أو الطرز. يناقشن هذه الأيام الرواية التي كتبها وليم ستايرون عن الثورة التي قام بها الزعيم الزنجي نات تيرنر بداية القرن التاسع عشر ضد نظام الرق في الولايات الجنوبية. موضوع لا يزال يحز في وجدان الأميركان. والكيفية التي شخص بها الكاتب بطله لم ترض المنظمات الزنجية، سيما أن ستايرون من الجنوب وإن استوطن منذ عقود ولاية كونكتيكت. لهذا السبب اختير الكتاب موضوعاً للنقاش. بالمناسبة تعرفت لطيفة على امرأة شابة في وضعية مشابهة لوضعيتها. تشعر أيضاً بالغربة في أرض كاليفورنيا.

هل نحن أقلّ فردانيةً منهم؟ ما مستوى الروح الجموعي عندنا

وعندهم؟ هل انعدام أو قلّة منظمات الإسعاف عندنا يدلّ على قوة التئام الأسرة وهل تدل كثرتها عندهم على انحلال الجماعة؟ هذه كلها أحكام مسبقة لا بدّ من فحصها فحصاً دقيقاً.

كاليفورنيا أرض هجرة. كانت كذلك ولا تزال وبالنسبة للأميركان قبل غيرهم. لذا أحدثت فيها تنظيمات كثيرة لإيواء المهاجرين، أجاؤوا من بوسطن أو من ألمانيا، من تنيسي أو من إفريقيا. وقد يكون الوضع مختلفاً في الولايات العريقة الشرقية. أما الشعور بالوحدانية فهو حادّ وملازم لساكن لوس أنجليس المدينة المتناثرة التي تفتقد مركزاً تاريخياً تحن إليه الأفئدة وتتوحد في حنينها إليه. رغم تشييد مجمع بلدي فخم وإقامة متحف غني وتجميل شارع هوليوود وتشجير كورنيش سانتا مونيكا. لكنه شعور قد يكون خاصاً بالمدينة ولا يعرفه سكان مئات المدن الصغيرة والمتوسطة المنتشرة على وجه القطر الأميركي. تعرف لوس أنجليس أشكالاً كثيرة من التفرقة لكنها لا تفرق بين أصيل ودخيل، لا في الأحياء الغنية الراقية ولا في الأحياء الهامشية الفقيرة. إذا سمحت الأقدار يرى النور عن قريب مولود «من أبناء القمر» غير محسوب على أحد.

* *

زرنا البارحة متجر بولاك ثم تمشينا قليلاً في أزقة الحي وعندما مررنا أمام حانة قررنا قضاء بعض الوقت فيها قبل العودة إلى المنزل. بدت لنا أول الأمر شبه فارغة، ثم تعود بصرنا على نورها الشحيح فلمحنا جالساً إلى البار شخصاً غارقاً في أوهامه. دققنا النظر فعرفنا الممثل تشارلز برونسون، قصير القامة، مفتول العضلات، طويل الشعر، أحد حمّالي المرسى أو خشابي كندا... ربما كانت هذه أو تلك حرفته الأولى..

* *

شرحت للطلبة متاعب فرنسا الاستعمارية في الجزائر وفي المغرب. جلس في الصف الأول طالب مُجاز يستعدّ للانخراط في سلك الدكتوراه. قلت: لا يجوز أن نقارن نظرياً بين قوة الدولة المستعمِرة وبين ضعف المجتمع الخاضع للاستعمار. يفعل ذلك ضمنياً مؤرخون كثيرون ثم يتعجبون كيف استطاعت المقاومة أن تستمر سنين طويلة، بل تكسب معارك كثيرة، رغم الفارق الهائل في العدّة والعدد. يهملون أمراً جوهرياً هو أن القرن التاسع عشر عهد الرأسمالية وأن التوسع الحاصل خاضع لقوانين الاقتصاد. إن المنطق الرأسمالي هو الذي دفع أوروبا والغرب عموماً إلى التوسع بعكس المجتمعات المعرضة للاستعمار والتي لم تكن تملك اقتصاداً متطوراً يتحكم في تصرفاتها. المقارنة الواردة هي بين ما تستطيع الدولة المستعمِرة أن تستغني عنه من جهة ومن جهة ثانية ما يستنفره المجتمع المهدّد من آخر قواه للدفاع عن ذاته. وفي هذه الحال لا تكون المعادلة في صالح المستعمِر الهاجم رغم كل مظاهر تفوقه النظري. قلت هذا وأنا أنظر إلى الطالب المذكور فرأيت بريقاً في عينيه وفهمت أنه ينتظر المزيد من التوضيح. فتوقفت.

* *

ابريل

انتهى الفصل. لم نغادر المدينة ولا ننوي مغادرتها انصياعاً لأوامر الطبيب. منع لطيفة من قيادة السيارة وطلب منها أن تلازم الفراش أكثر أوقاتها. نظل قابعين في البيت، نشاهد أفلام هوليوود ونلاعب مستر غراي، القط الرمادي الذي ورثته من إحدى سيّدات النادي النسوي عند مغادرة زوجها الجامعة. قالت: من الآن يبدأ عهد التضحية! تقول وأقول ولا وزن لأقوالنا نحن الاثنين.

* *

من سكان لوس أنجليس من يواجه المحيط الهادي متطلعاً إلى ما وراءه ومنهم من يعرض عنه ويرنو إلى ما وراء الجبال والوهاد والمحيط الأطلسي. أولئك هم الأسيويون وهؤلاء هم الأوروبيون والأفارقة والعرب. لكن آسيا قريبة وتزيد قرباً كل سنة وما سواها بعيد ويتباعد باستمرار. أمرّ كل يوم أمام وكالة سفر فتغريني بـ «أسبوع في هواي مقابل 400 دولار». لم استغرب عندما تعرفت أثناء حفل عند فاردنبورغ، إلى طالب باكستاني متزوج بفتاة يابانية تحمل رضيعاً «من أبناء القمر» لا ينتمي إلى جنس بعينه. أتوهّم أنه توقّف في طوكيو أثناء رحلته من داكّه فاختطف الفتاة وحملها إلى شاطئ الهادئ، مع أن الواقع هو أنه التقاها في أروقة الجامعة.

* *

بدأت درساً عن علاقات المغرب بأوروبا منذ القرن 15م. عدد الطلبة المسجّلين في هذا الفصل أقلّ من السابق وأكثرهم من المجازين. ينتظرون مني أن أتوسع في الموضوع. ولا أكتفي بعرض الخطوط العريضة. أطالع ما كتبه الإنجليز عن مغرب القرن الماضي وهو كثير متنوع ومفيد. أهمله الباحثون الفرنسيون، حتى مييج نفسه.

* *

أوقفني هذا الصباح، وأنا في طريقي إلى نادي الأساتذة، فريد بلكاهيه الرسّام، أو الصبّاغ كما يحلو له نعت نفسه. قال إنه يقوم بجولة عبر الولايات المتحدة بدعوة من وزارة الخارجية. لا أدري متى بدأت وأين تنتهي. كان مصحوباً بمرافق فاقتصر حديثنا على المجاملات.

ذكرني هذا اللقاء المفاجئ بجمال الطبيعة وجمال الفتيات في

هذه المدينة، عاصمة السينما، وفي هذا الفصل بالذات، بعد أن صحا الطقس وطردت الرياح الغربية غازات التلوث. ما هو منبع هذا الحسن يا ترى؟ أهو العنصر البشري أم شعاع الشمس أم التغذية أم الرياضة البدنية أم كما نعتقد نحن «الوحم»؟ نعم الجمال مخيم اليوم في لوس أنجليس، عاصمة السينما، كما كان من قبل مسيطراً على فلورنسا عندما كانت عاصمة الرسم.

* *

فاز ماكّرثي في الولايات الشرقية الصغيرة فقال المحللون: هذه مفاجأة تعارض كل التوقعات، بمعنى أنه فوز يتيم وعقيم. ثم فاز في ميدل وست. فبدأ أنصار روبرت كنيدي، الذي وضع حدّاً للتردد ودخل المعركة بكل ثقله، يخشون شعبية الرجل المغمور. وها هو الآن في كاليفورنيا حيث ستحسم المعركة.

استمعت البارحة لخطبته في ملعب الجامعة. بدا محترساً، غير ميّال لإثارة عواطف الجمهور. ليس من الخطباء الموهوبين. أنهى كلمته القصيرة بتلاوة أبيات مؤثرة لأحد شعراء فيتنام. هل يتصور هو أو مستشاروه أنه سيكسب بهذه الطريقة عطف الأغلبية الصامتة؟

* *

جامعة كاليفورنيا في لوس أنجليس مشهورة بشعبتها المتخصصة في فنون السينما. وهذا أمر طبيعي إذ استوديوهات هوليوود على مرمى حجر من موقعها والشركات المنتجة من أكبر مموّليها. حضرنا الحفل الذي ينظم كل سنة لعرض أفضل ما أنجزه طلبة الشعبة. كانت الأفلام المعروضة من الطراز العالي. يغلب عليها الطابع التجريبي فتذكّر بالسينما الصامتة. لا تزال محاولات فريتز لانغ ولوبيتش وهيتشكوك وولز عالقة بأذهان الطلبة: حركات بطيئة،

صور ناصعة، حوار مقتضب، نهايات مفجعة، طبيعة مخيفة، عواطف متقدة. . يركز الأساتذة على التقنيات فيصرّ الطلبة على إبراز مقدرتهم في هذا المجال بالذات. لذلك سيشتغل أغلبهم في الاشهار وفي التلفزيون.

وقبل أيام شاهدنا في القاعة نفسها شريطاً لمخرج فرنسي شاب يدعى فيليپ لابرو درس في أمريكا وتأثر بثقافتها. حضر العرض بجانبه الممثل الفرنسي المخضرم، شارل بوايه، الذي احتفظ رغم سنّه المتقدم بوسامته وأناقته المتميزتين. كان يسير بين الصفوف، يبتسم للجميع وهو يتكئ على عكّاز مزين بمقبض فضي برّاق. قدم الفيلم بالأساس لطلبة قسم السينما فحضروا بكثرة. كان الممثل الرئيسي جان پول بلموندو. فظهر في أحد المشاهد وهو يغسل يديه ويعيد ثم يرفع بصره إلى مرآة المغسل ويحدق في وجهه ثم يمرّر أصبعه على شفته العليا في حركة مألوفة عند هامفري بوغارت. كان المخرج يأمل بدون شك كسب عطف المشاهد الأميركي فإذا بالقاعة تنفجر ضحكاً.

ذكرني الحادث بما حصل للممثلة ماري بل حين جاءت، سنة 1954 أو 1955، إلى مسرح الحي الجامعي بباريس لتقدم إخراجاً جديداً لمأساة جان راسين **فايدرا**. ظن المخرج أن طلبة الجامعة أكثر استعداداً من غيرهم لتقبّل الجديد. فكان العكس. استقبلوا العرض بالسخرية والضحك المدوي. فتوقفت الممثلة المسكينة مشدوهة عاجزة عن النطق. أسدل الستار قبل الموعد على الكلمة التي تنهي المسرحية وهي هيهات (Hélas!).

* *

زارني في مكتبي الأستاذ محسن مهدي وهو عراقي الأصل

متخصص في الفلسفة الإسلامية. جاء ليعرض القسم الثاني من البرنامج الذي افتتحه الأب قنواتي. ينتسب محسن مهدي إلى جامعة شيكاغو التي كان يعمل فيها فون غرونباوم قبل أن يرشح لتأسيس معهد الدراسات الشرقية في كاليفورنيا. ويودّ بالطبع أن يستقدم زميله القديم فيكثر من المغريات، أهمها تسهيلات مالية لاقتناء مسكن (في حدود 200.000 دولار). إلاّ أن الأستاذ مهدي تلقى عرضاً آخر وهو رئاسة معهد هارفارد الذي أسّسه هامتلون چيب والذي يعتبر أرقى مؤسسة استشراقية في البلد. المال من جهة والشهرة والصيت من جهة ثانية. لا أشك أين ستميل الكفة، سيما وأن زوجة محسن من الجنوب، تحتقر كاليفورنيا بقدر ما تكبر ـ وترهب ـ بلاد اليانكي.

قال إنه زار المغرب سنة 1957 ضمن وفد جاء من بغداد لتهنئة محمد الخامس بالعودة من المنفى وباستقلال البلد. يبدي عطفاً كبيراً على الغرب الإسلامي ويعرف الكثير عن تاريخه بسبب اهتمامه بابن خلدون الذي كان موضوع رسالته لنيل الدكتوراه. درس أولاً في بيروت ثم ذهب إلى إنجلترا وفرنسا وأخيراً إلى شيكاغو حيث تتلمذ على الباحثة نبية عبّود المتخصصة في البرادى العربية. ينصت كثيراً ويتكلم قليلاً. يعقّب على ما تقول دون أن يبدي رأياً شخصياً. أهذا طبع المشارقة أم العراقيين بخاصة؟

* *

ماي

وصلتنا رسالة من السيدة لسلاو تشتكي من استضافتنا لمستر غراي. تقول إنه خطر على سجاداتها الثمينة، سيما وإنه لا يزال صغيراً يحتاج إلى شحذ أظفاره. اللهجة عنيفة. تتوعدنا، إذا لم

نتخلّص منه في الحال، بمتابعتنا قضائياً، مشيرة بالمناسبة أن لها عيوناً ساهرة على مصالحها. ما أميل هؤلاء الناس إلى مقاضاة بعضهم البعض إلى حدّ أن لكل أميركي وكيلاً حسب ما يشاع! من أخبر السيدة لسلاو؟ إحدى المدعوات إلى وجبة الكسكس التي أقامتها لطيفة قبل أسابيع لفائدة زوجات أساتذة المعهد.. عن قصد أو من غير قصد؟ على أي حال آن الأوان للبحث عن شقّة نرحل إليها بداية يوليو.

* *

بعد شهور تمّ الاتصال بأساتذة القسم الفرنسي، بينهم مدرِّسة فرنسية خليلة جان دوفينيو الذي عاش طويلاً مع كلارا مالرو واشتغل مساعداً في السوربون لجورج غورڤيتش (حيث حضرت بعض دروسه سنة 1959) قبل أن يذهب إلى تونس، ربما بعد أن انتهت علاقته بكلارا. استدعتنا للعشاء واستدعت كذلك دومينيك دي سانتي التي تقضي فصل الربيع في الجامعة وتعرض دروساً عن الكاتب سيلين.. اختيار غريب! سعدت بلقائها إذ كانت أول من كتب، في يومية **لومند**، عن **الإيديولوجيا العربية المعاصرة**. أرشدتني إلى مقال مطول عن الكتاب بقلم غاستون بونور صدر في ن.ر.ف (المجلة الفرنسية الجديدة). توددت للطيفة. قالت إنها تعرف جيداً حورية بنيس وزوجها علال سيناصر، تلميذي زوجها جان ـ توسان دي سانتي الفيلسوف المعروف في الأوساط اليسارية. أشارت كذلك أن علال سيناصر لا يحبّ كثيراً كتابي. فتذكرت أني كنت قد تسلمت منذ شهور رسالة من طالب يسكن، حسب العنوان المرفق، دار تونس في الحي الجامعي بباريس. وكان قد لفت انتباهي ما جاء فيها من استشهادات دقيقة بأقوال ديكارت والأب مرسن تدل على أن الكاتب غير متطفل على فلسفة العلوم

والابستمولوجيا. أجبته بتفصيل لكنه لم يعقب على ردّي. أتساءل الآن: ألا يكون علال سيناصر هو صاحب الرسالة متخفياً تحت اسم مستعار؟

دار الحديث حول ما يجري في باريس. قالت دي سانتي: أكلم زوجي كل مساء فيصف لي الوقائع بإسهاب. إنها ثورة حقيقية. بدأت في صفوف الطلاب وانتقلت إلى العمّال والطبقة الوسطى. ما أتعس حظي! هذا الانفجار انتظرناه منذ عقدين وها هو يحصل بعد أن يئسنا منه وأجد نفسي بعيدة عن قلب الأحداث سجينة هنا في طرف الدنيا. والإضراب العام، كم مرة قيل لنا إنه مجرد فكرة وهمية تحريضية، ميثولوجيا، لا يمكن بحال، في ظروف المجتمع الصناعي المتقدم، أن تتحول إلى واقع. وها هي تتحقق تحت أعيننا! الواقع أغنى من كل التوقعات، يُكذب كل النظريات والجماهير تسفه أحلام الزعماء والقادة.

تتقاسم اهتمامها الثورة وتحرير النساء وتقنيات الرواية. من هنا دراستها لسيلين. تعتبره من أكبر كتاب القرن، ليس من جهة المضمون ولكن من جهة اللغة والأسلوب.. لم أسألها عن رأيها في لوي أرغون.. أبدت رغبة ملحة في مقابلة لطيفة، رأساً لرأس بالطبع. تودّ بدون شك استنطاقها إذ فهمت من كلامها إنها تستغرب أن ترضى المرأة بالحمل والولادة.. هذا من آثار دعوة سيمون دي بوفوار.

* *

عرضت المشكل على فون غرونباوم. قلت: تنتهي الدراسة النظامية في يونيو ونحن لا ننتظر المولود إلاّ بعد شهر يوليو. هناك فجوة لا ندري كيف نملأها. لا نستطيع أن نسافر قبل الوضع

والمكوث في لوس أنجليس يكلفنا مصاريف مرتفعة.

أبدى تفهماً كبيراً. فأسند إلي دروساً في دورة الصيف مع انه لا يحتاج إلي.

* *

يونيو

أقنعت لطيفة بمغادرة الفراش لبضع ساعات واقترحت عليها أن ترافقني إلى سينما بڤرلي هيلز لمشاهدة فيلم **المُجاز** الذي نال نجاحاً شعبياً كبيراً بسبب مشاركة الممثل الشاب داستين هوفمان. منذ أن عرض وأغنيته الرئيسية تلاحقني في كل مكان.

خرجنا من قاعة العرض. اجتزنا الولشر وتوقفنا فوق الرصيف لنلقي نظرة على صورة روبرت كنيدي المعروضة على باب مركز حملته. يُقال إن المعركة حامية بينه والسيناتور ماكّرثي. بدا المركز هادئاً هدوء المتاجر والدكاكين المجاورة. قد يكون الوضع مختلفاً في الأحياء الشعبية حيث لا تزال حيّة أسطورة كنيدي.

عدنا بسرعة إلى المنزل الذي نغادره، حسب الاتفاق مع لسلاو، نهاية الشهر. ومنه نرحل إلى شقة في عمارة على الولشر في المنطقة الفاصلة بين وستوود وبڤرلي هيلز.

* *

طالبة واحدة سجلت نفسها عندي لدورة الصيف. تحمل اسم ويبر هي الأخرى. باهرة الجمال، تغوي الشيطان كما يقول الفرنسيون. ماذا يعنيها من شأن إفريقيا، شمالها أو جنوبها؟

أكتب هذا وأنا نادم خجلان. لا شيء يبرّر سلوكي. جريت لألحق مصعد عمارة العلوم الاجتماعية قبل أن يتحرك. كان يقلّ أمرأة واحدة. ضغطت على الزر لتمهلني حتى أقطع ما بقي من

خطوات. لم تكن شابّة بل كانت تحمل على وجهها آثار السنين المتسارعة، لكنها كانت تبتسم. قلت: شكراً بكيفية آلية. سكتت وبعد حين سألت: أما عرفتني؟ قلت: لا. شعرت أنها تستغرب فتذكرتها. كانت عربية من فلسطين، مسيحية، تحمل الجنسية الإسرائيلية. قدمت لي قبل أسابيع أثناء حفل، ربما في مسكن ڤاردنبورغ. تذكرتها جيداً. . لكن عوض أن أستدرك الخطأ، أن أعتذر، تماديت في الإنكار مع أنها ألحت قبل أن ترتبك وتعلو وجهها علامات الخيبة. ماذا دعاني إلى هذا التصرف الخشن؟ لا بد أني خضعت لدوافع غريزية، غير كريمة، غير بريئة. ستلاحقني نظرتها الحزينة شهوراً بل أعواماً.

* *

أفهم لماذا أسمع موسيقى فيلم **المُجاز** في كل مكان. إنها من عمل الثنائي سيمون وغارفونكل اللذين لحّنا أغنية حملة ماكّرثي. . أحد أشكال التصويت لصالح مرشح السلام.

* *

لطيفة نائمة في غرفتها وأنا جالس أمام التلفاز انتظر نقلاً مباشراً لخطاب روبرت كنيدي بعد الإعلان عن كسبه معركة الترشيح باسم الحزب الديموقراطي في كاليفورنيا. مرّ هو وأنصاره بفترات طويلة من اليأس ولو لم يفز في النهاية للحقه خزي كبير إذ انكشف للجميع أن اسم كنيدي محبوب بقدر ما هو مكروه. لكنه اجتاز عقبة كبرى ويظن الكثيرون أنه متجه الآن نحو نصر مبين. أعلن المذيع أن السيناتور في طريقه إلى قاعة الاجتماع عبر ممرّ خلفي حتى يتحاشى زحمة المهنئين. تتحول الكاميرا إلى حيث ينتظر خروجه. . أرى صفين متراصين من الصحفيين والأتباع ورجال

الأمن والمتفرجين. بعد ثوانٍ ألمح صورته بعيداً في مؤخرة نشاشة. يتقدم. تتضح الصورة ثم تختلّ بغتة وتسمع طلقة نارية. يتنّ نمعلق بصوت مضطرب: ما هذا؟ ماذا أسمع؟ ماذا وقع؟ صمت. بعد ثوانٍ يسترجع المذيع نفسه ويقول: أُخبرنا أن سيناتور كنيدي تعرض لمحاولة اغتيال وهو الآن ساقط على لأرض يصارع الموت.

سهرت إلى غاية الساعة الثانية والأخبار تتلاحق، متعارضة أولاً ثم متوافقة، عن ظروف الحادث وهوية المعتدي (عربي يسمى سرحان سرحان) والتأثير على سير الانتخابات وعلى سياسة أميركا. قررت أن لا أزعج لطيفة، أن أنتظر الصباح لأخبرها بما حدث.

يقع حادث في هذا البلد فتتوالى في الحين وبدون انقطاع التحقيقات والتعليقات والتأويلات. فلا تملك دقيقة لتراجع نفسك ولتكون رأياً شخصياً. من هنا المساواة الديموقراطية، أصلها وحدة الرأي والسلوك وربما الشعور. كل شيء مؤطر..

* *

يدرّس اللغة العربية في الجامعة أستاذ إسرائيلي. سأله محرر **لوس أنجليس تايمز** عن معنى كلمة سرحان. أجاب إنها تعني الراعي، السارح، الهائم **(واندرر)**. سرحان سرحان فلسطيني مسيحي صرّح حسب الناطق باسم الشرطة أنه انتقم من كنيدي بسبب تصريحاته الموالية لإسرائيل. من يصدّق هذه الخرافة بعد كل ما قيل وكتب عن أوزوالد؟ مع هذا سيضبط كل أميركي شعوره، سيلتزم بأن لا يرى أبعد من أنفه.. مصلحة الجميع في الحدّ من الافتراضات والتساؤلات والتطلعات؟ هذه هي الواقعية، البراغماتية،

التي يفتخرون بها كلهم. مَن لم يخضع لها يعطي الدليل على أنه لم «يتمركن» بعد.

يقول لي الأستاذ المتقاعد، المتخصص في الحفريات الشرقية: انظر إلى هذا القضاء الأميركي. قدم سرحان عشر ساعات فقط بعد الحادث إلى القاضي وإلى ملايين المشاهدين في الداخل والخارج.. والقاضي، رغم انتمائه العرقي، أصرّ على أن يذكر المتهم بكامل حقوقه بل حاول أن يساعده عندما بدا عليه الارتباك.

الشيء المحقق هو أن أميركا كانت قد نسيت الشرق الأوسط فذكرها الشرق الأوسط أنه لم يتبخر وأنه لا يزال يمثّل خطراً عليها. في المقابلة التي نظمها التلفزيون أثناء حملة الترشيح كان ماكَرثي يؤكّد: لا داعي لأن نكون شرطي العالم. فيرد كنيدي: لا يمكن أن نتخلّى عن مسؤولياتنا. لا نهاية لهذا الانشطار: كل أميركي شرطي وملاحظ في آن، مناوئ للشر ومتلبّس به.

* *

يوليو

نقترب رويداً من نهاية الحمل. الطبيب متفائل والجميع، رجالاً ونساءً، في الشارع وفي المتاجر أو المكاتب، يتودد للطيفة، يبتسم لها، يفسح لها الطريق، يشجعها.. عادة موروثة بدون شك من عهد تعمير الفاروست. الترحيب بعطاء اللّه. لماذا لا نسميه «عطا اللّه»، عطيل، إذا كان ذكراً. لا.. لقد تمّ الاتفاق بيننا ومنذ مدة: عصمت أو عصام. وبالنسبة لفون غرونباوم سيكون عصام الدين، على وزن علاء الدين ونهج مسلمي الهند. تعرف لطفية الدافع لاختياري هذا ولا تنزعج. هذا من آثار جو كاليفورنيا!

* *

الحزب الديموقراطي في حالة من الاستقطاب والتشرذم لم يعرف مثلها في أزماته السابقة. يعتبر المسؤول على توريط البلاد في حرب فيتنام. ويجمع المحللون على أن حظوظ نيكسون، الكاليفورني الأصل، العائد من جحيم الساسة المهزومين، جدّ مرتفعة. لا أحد يراهن على تخلّي ماكّرثي لغيره، ممن يختاره زعماء الحزب بعد مصرع روبرت كنيدي، ولا أحد يتوقع أن يجرؤ هيوبرت هامفري، نائب الرئيس والمتصدر الآن قائمة المرشحين، على مفارقة سياسة رئيسه.

إنحاز ماكّرثي إلى جنوب فرنسا لقضاء إجازة. يتصرف تصرف الهواة المتطفلين على السياسة. يبدو أنه ليس من طبقة المحترفين كآل كنيدي. فلن يصمد في وجه ضغوط حزبه مهما أطال العناد. يُقال إنه كان دمية بأيدي عناصر يسارية اختاروه أولاً لاستدراج روبرت كنيدي للترشيح ثم بدا لهم أن يتابعوا التجربة إلى نهايتها لأنها نجحت فلم يعد في استطاعتهم الكشف عن دوافعهم الأولى وكذلك لأن تصريحات كنيدي بعد ترشيحه لم ترقهم.

* *

ننتظر ساعة الخلاص بأمل وإشفاق. الطقس حارّ مشبع برطوبة عالية، ثقيل ومرهق إلاّ على الشاطئ.

في الوقت نفسه ترتفع حدّة الجدل داخل الحزب الديموقراطي المجتمع في مدينة شيكاغو لاختيار مرشّحه لانتخابات نوفمبر. يبدو أن الجناح اليساري يرفض التصالح ويستعد لمواجهة عنيفة على غرار ما حصل في باريس. يقول البعض: ليس العنف السياسي من التقاليد الأميركية. فيرد الآخرون: بل هو خاصية أميركية لولا أن لزعماء البلاد أسلوباً ذكياً لمحوه من الذاكرة الجماعية. يستغلون

حدوثه لنشر ثقافة السلم والوفاق.

* *

أغسطس

عدنا إلى شقة ولشر بعد ثلاثة أيام قضيناها في قسم الولادة من المستشفى الجامعي تحت نظر الدكتور ديغنم. أشعر نحوه بامتنان كبير، كما لو أتى بمعجزة ومنحني هدية لا تقدر. بدأ المخاض قبل الموعد بثلاثة أسابيع. فتملكني الخوف من جديد، رغم كل التطمينات. لكن الأمور تمت في أحسن الظروف. فضلت أن لا أشاهد العملية كما يفعل العديد من الآباء هنا. بل كنت خارج المستشفى، مما أثار استغراب الطبيب والممرضة. قالت لطيفة إن الطبيب سألها عن الاسم الذي اخترناه ليثبته في استمارة الحالة المدنية وكذلك هل تريد أن يختن المولود أم لا. والعادة هي أن يكون الزوج حاضراً لتلافي أي نزاع لاحق.. كلمة زوج تعني عندهم ما تعني بالضبط. كنت عند فاردنبورغ، بالمصادفة، وأُخبرت هاتفياً. كنت قررت أن لا أحضر إشفاقاً على نفسي. رغم كل ما كان يقوله الطبيب وتنقله لي لطيفة كنت أخشى أن أعيش تجربة مؤلمة ثالثة.

بعد ثلاثة أيام قال لنا الطبيب مبتسماً: آن الأوان أن ترحلا. قلنا: وكيف نفعل؟ وإين نضع المولود؟ قال: أينما اتفق.. في مجر مثلاً، لا خوف عليه. وها هو الآن فوق الفراش غارقاً في النوم، يتنفّس بهدوء وانتظام. الأم تستريح بعد أن تعبت كل هذه الشهور وجاء دوري. أسهر كثيراً.. من رضاع إلى آخر.. نفوسنا جميعاً بين أصابع الرحمان.

* *

لا نكاد نفارق الشقة. نشاهد نتائج الاقتراع على اسم المرشّح الديموقراطي. لم يتنازل ماكّرثي عن أصواته، لكن الأغلبية تميل إلى جانب هيوبرت هامفري. وشرطة شيكاغو تصارع الشباب على أبواب قاعة المؤتمر. يتكلّم المعلقون على بوادر حرب أهلية. تبدو على الشاشة صورة عمدة المدينة يستمع بامتعاض إلى ما يقوله أحد الخطباء، السيناتور إبراهام ريبيكوف، وينطق وكأنه يبصق بكلمة: يهودي! يهودي!

* *

يزورنا بانتظام تيجان سي السينغالي وزوجته يحملان لنا أطباقاً من الطعام ويظهران عطفاً كبيراً على لطيفة. أهي رابطة الإسلام؟ أهي الغربة؟ أهي عاطفية الأفارقة؟ أهو سرّ الولادة؟

قال الأب قنواتي بعد أن عاد من رحلته إلى منطقة **غران كانيون**: إنه مشهد يقرب المرء من الخالق. وما القول في مشهد رضيع؟ كم تألمت من وفاة نعمان! وكم أنا سعيد اليوم بمقدم عصام الدين! أتمنى له أن يسعد هو الآخر أينما قرّر أن يعيش.

* *

أرى من حين لآخر أمام عمارات ولشر سيارات ضخمة مملوءة بالألبسة. أدرك أن صاحبها جاء من بعيد أو قريب ليجرب حظه في كاليفورنيا أرض الوعود والطقس الجميل. لم ينجح أو لم يسعد فجمع كل ما يملك وهو يستعد للعودة خائباً إلى مسقط رأسه.

لسنا في الوضع نفسه. قال فون غرونباوم: لقد وجدنا من يخلفك مدة سنة. أنت إذن في إجازة. خذ وقتك، رتّب أمورك وعد إلينا. لك الآن ما يربطك بلوس أنجليس. يعلم وأعلم أن الاختيار صعب، ويزداد صعوبة بعد أن أفارق أميركا. لكنه رجل من

فينا، مثقف ومؤدّب، جرّب الحياة وذاق مرارتها.

المشكل في هذه الدقيقة هو كيف نتخلص من مقتنياتنا. ما كنت أتصور أننا اشترينا كل هذه المواد في ظرف عشرة شهور! آه، لو أمكن أن نعود بعصام، بدون أي شيء سواه!

* *

سبتمبر، الدار البيضاء

في طريقنا من المطار إلى البيت. قال سائق التاكسي:

ـ جا الخير هذا العام. صابه، واش من صابه!

ـ الناس فرحانه إذن.

ـ لا. طلبت منهم الدولة يردّو سلف السنين الفايتة. ما بقى بيديهم شي.

* *

1969

يناير، الدار البيضاء

ها قد عدنا منذ ثلاثة شهور ولم أسجل شيئاً في هذا الدفتر. كل أوقاتنا تلتهمها العناية بعصام. أشعر أحياناً أن لطيفة كانت تودّ أن لا تعود. أما كان والدها، الذي ضحّى لتكون للمغربي جنسية وللمغرب سيادة، يقول: أرض اللّه واسعة. على أي حال طريق العودة مفتوحة. إني في إجازة. أقول العودة وأعني الهجرة، إذ العودة حقاً هي التي قادتنا، على متن طائرة فرنسية من لوس أنجليس إلى باريس ثم إلى البيضاء. أشعر شعوراً قوياً أن أميركا لا تحتاج إليّ. وهل يحتاج إليّ المغرب؟ لا سبيل إلى جواب مقنع. يحتاج المغرب إلى بعض أبنائه، الذين يستجيبون لمواصفات محددة، ويفضل أن يستغني عن الآخرين. تُدْرك هذا جيداً إذا سكنت البيضاء.

* *

المؤتمر الثاني للدراسات الشمال ـ إفريقية في بلدة أكس ـ بروفانس.

واضح أن الهدف هو إنقاذ وتطوير الاستشراق الفرنسي بعد

انهيار الاستعمار. اجتمع في هذه المدينة الجنوبية الجميلة كل العسكريين والموظفين والأساتذة والباحثين والمبشرين الذين أقاموا أو اشتغلوا في إحدى مناطق المغرب الكبير ليظلوا على اتصال وليدافعوا عن مكانتهم في المجتمع. يملكون خبرة كانت مفيدة، ولا زالت، حسب رأيهم، حتى في الظروف الجديدة. قال أحدهم: لا تظنوا أن الدولة القائمة الآن في شمال إفريقيا من طراز الدول المعاصرة، بل هي في مستوى دولة لوي Le Hutin. اختار عن قصد هذا الملك المغمور العاجز بسبب اللقب. يُقال إن صاحب هذه النكتة، وهو لا يزال في عقده الثالث، اشتغل في مخابرات الجيش أثناء الحرب الجزائرية في ما كان يسمّى بقسم «النشاط النفساني»، أي اختلاق الأخبار لمعارضة دعاية جيش التحرير. لا يزال يتابع إذن عمله التخريبي. تعرضت لأقواله بنقد لاذع. قال لي فيما بعد أحد الحاضرين: صوتك معدنى، أتصور إنه كان يقصد الحدة والصرامة. بالطبع كان صوت غضب مكتوم. أرى من الآن ما هي خطة أعداء الأمس: نقد الحكومات الوطنية (الوارثة في تعبير ذلك القانوني الخبيث) من منطلق اليسار. سيقولون في كل مناسبة: وماذا عن الفقر؟ وحقوق المرأة؟ والامتيازات الطبقية؟ والأمية؟ والتعصب؟ سيطلبون منا أن نحقق في رمشة عين ما لم يحققوه طيلة قرن ونصف، بل ما كانوا يدّعون أنه غير صالح لنا وغير ملائم لتقاليدنا.

* *

عدت إلى مزاولة مهامي في الكلية بالرغم من معارضة العميد الخفية. لولا علاقات لطيفة لأرغمني، بكيفية ملتوية، على الاختيار، إلى مغادرة الجامعة والهجرة. لا يهمّ المسؤولين أن يكثر المهاجرون، مثقفين كانوا أو غير مثقفين. بل هجرة الأدمغة تسهل

عليهم إحكام القبضة على البلاد.

* *

قال والد لطيفة: كنت البارحة في الرباط. قابلت أحمد كديرة في شأن قضية تخصنا كمحامين، وماذا رأيت فوق مكتبه؟ نسخة من كتابك عن الإيديولوجيا العربية.

قد تكون نادية برادلي هي التي أشارت عليه بقراءة الكتاب والاطلاع على ما قلت في حق نشاطه السياسي، إن لم يكن قد كلّف بإبداء رأيه قبل اتخاذ قرار المنع. لا أعتقد أنه يكون قد حبّذ المنع. لن تعجبه الفقرة المتعلقة بابن بركة، منافسه الدائم على الزعامة بين سكان العاصمة، وبالعكس سيروقه ما كتبت عن بوعبيد إن فهم القصد.

اهتمّ بكتابي التونسيون واللبنانيون والسوريون بصورة خاصة في حين أن المغاربة، حتى المثقفين، تظاهروا بتجاهله. هل الفرق دليل على تفاوت في المستوى الثقافي والتجربة السياسية أو على ذكاء أو غباوة القادة في التعامل مع قضايا الفكر.. لا أستبعد أن يكون قرار المنع جاء من باب الحيطة. مع هذا يقال إن الكتاب يناقش بحماس في مجالس الشباب. وربما هذا هو ما دعا أبراهام سرفاتي إلى نقده على غرار ما فعله جورج لابيكا المقيم في الجزائر. يدافع هؤلاء على امتيازهم الإيديولوجي، بل قل عن «رأس مالهم». لا يرغبون في أن يكتشف الأتباع أن الماركسية ملك مشاع وأن غير المنخرط قد يعرف عنها أكثر من العضو وحتى أكثر من الزعيم.

انتقاداتهم سطحية. لا فرق بينها وبين أقوال الإخوان المسلمين، مالك بنابي بخاصة.

* *

نشرت مجلة **لاماليف** نص المحاضرة عن «العرب والتاريخ» التي ألقيتها في كلية الآداب بالرباط. قالت جاكلين لغلام، المشرفة على المجلة: إنهم لا يحبّونك! لم أسألها: من هم؟

تحاول عبر المجلة الشهرية استقطاب حركة فكرية في العاصمة الاقتصادية. لا أدري هل هي مؤهّلة للقيام بهذه المهمّة؟ تعرفت بوساطتها على جماعة تعيش في المدينة وتظل على هامشها فكرياً واجتماعياً. ذكرني هذا الوضع بالذي عرفته في الرباط سنة 1962 قبل أن ألتحق بسفارة المغرب في باريس. لا أود أن أعاود التجربة. لا غرض لي في ربط علاقات جانبية. المهم بالنسبة إليّ هو ما أقوم به حالياً، تحرير المحاضرات التي ألقيتها على طلبة لوس أنجليس. لم أقطع إذن الاتصال بأميركا.

* *

مارس

دعاني اتحاد كُتّاب المغرب إلى إلقاء محاضرة عن مفهوم الثقافة الوطنية. لا يخامرني شك أن صاحب الاقتراح هو مبارك ربيع حامل راية الأدب الواقعي. لن أتودّد لأي فريق، لا لأنصار الماضي العتيق ولا لأصدقاء «الفنون الشعبية». ألا يحاول هؤلاء إعادة الاعتبار لإدريس الشرائبي؟ أرى في هذا الرّمز لا الشخص. لم أقابله أبداً ولا استبعد أن يكون رجلاً مؤدباً ليّناً صادقاً. أتذكر ما رواه أحد الطلبة في باريس أواسط الخمسينات. ذهب إلى معرض كتب فرآه يوقع مؤلفاته ويردّ على إحدى المعجبات بروايته **العنوز**: «أقوى من فولكنر. أليس كذلك؟».

* *

أبريل

على وشك إنهاء مراجعة مخطوط **المغاربة وماضيهم** (عنوان مؤقت). طلبت من الرسّام محمد المليحي تخطيطاً أزين به الغلاف. قلت له: إني أروي تاريخ المغاربة لا تاريخ المغرب. تصوّره على شكل هرم يمثل تراكم المعضلات. تلاحقنا المآسي والأزمات، نتخطاها، نتجنبها، ولا نواجهها أبداً بهدف حلّها نهائياً. من هنا ذاكرتنا المكلومة وميلنا إلى النسيان. نحن دائماً بين أمرين: إما ننسى ونعيش حياة عادية وإما نتذكر ونعيد الأزمات إلى واجهة الوعي.

تقول: أوليس تاريخ كل شعب سلسلة من الأزمات؟ صحيح، لكن غيرنا يملك وسائل يعالج بها الكلوم: الفن، البحث العلمي، التوسع، التقدم الاقتصادي، النشاط السياسي. . وماذا عندنا نحن؟ التصوف والتاريخ (أعني الكتابة لا الفعل)، الذكر والذكرى؟ كل واحد منا يؤرخ، لجماعته، لأسرته، لنفسه. يؤرخ ويتألم، فيغضب ويحاكم الأموات. لن نتقدم إذا لم نتسامح. مع من؟ مع أنفسنا.

* *

السياسي البئيس. رأيته أمس بالمصادفة يسير مترنحاً على رصيف **كرنڤال دو ڤنيز**. قلت له: هل لك أن تشرب قهوة معي قبل أن تعود إلى الرباط. قبل على مضض.

جلسنا إلى مائدة في مقهى **سايان**. سألته عن أحوال المغرب فتأوه وعن أحداث الشرق العربي فتأوه. يدخّن بلهف ويتأوه. طرق سمعي أنه على أهبة الزواج رغم تقدمه في السن، بعد أن عاشر طيلة سنين نساءً جميلات أنيقات من طراز لا وجود له عندنا، على الأقل في محيطه الاجتماعي. أنصت لما يقول وأشعر أنه يتحفظ،

يحسب ألف حساب قبل أن ينطق بجملة مقتضبة. أيكون ضمن من قالت عنهم جاكلين لغلام: إنهم لا يحبونك. إنهم في الحقيقة لا يحبون اتجاهي الفكري. لا يهمّهم في شيء أن يمنع هذا الكتاب أو ذاك.

عجيب هذا التسابق لكسب الأتباع والمريدين، اليوم في نطاق الحزب وأمس داخل الزاوية. لا أستطيع أن أقول مثل ماء العينين: أنا مخاوِي، أي أخ لكل شيخ زاوية. لا يرضيهم الانتماء إلى فكرة، إلى حركة، إلى مشروع. المطلوب هو التعلق بأهذاب رجل، أن تعلن الولاء لشخص بعينه.

غير راضٍ على حظه منذ سنين. يعتقد أنه ناضل ما فيه الكفاية وأن الوقت قد حان ليتسلّم الجيل الجديد مسؤولية الكفاح، باسمه هو طبعاً. يغفل عن الواقع وهو أن جميع المحيطين به من الموظفين وأنه وحده عاطل. قدره إذن أن يواصل القيام بدوره، رضي بذلك أم لا. ومن هنا البؤس والقنوط ومثالب أخرى.

* *

تقول لطيفة في بطاقة من لندن إنها زارت المتحف الوطني، سيما القاعات المخصّصة لرسامي إيطاليا إبان عهد النهضة. فشاهدت عدة لوحات تمثل المسيح طفلاً وأمه العذراء فتمثل لها عصام في كل واحدة منها.

تحاول أن تجد عملاً يشغلها عن ذاتها، بعد أن انتقم منها محمد بن هيمة عندما كان على رأس وزارة التربية وطردها بدون مسوغ من مديرية ثانوية أحمد شوقي للبنات، ربما انتقاماً منّي أنا وربما تقرباً من الفرنسيين.

* *

ماي

هذا زمان الزيارات.

زارني الكاتب المصري علي الراعي الذي جاء صحبة الطيب الصديقي. ربما تذكر مقابلتنا في القاهرة أثناء خريف 1960. استقبلني في مكتبه وأجاب بإسهاب عن أسئلتي عن الحركة المسرحية في مصر. قلت: أتذكر أنك قلت لي إنك تسكن حي الأرمان. قال: ولا أزال.

ثم تلاه يوجين ويبر الذي غادر مؤقتاً لوس أنجليس ليرأس الفرع الذي افتتحته الجامعة الكاليفورنية في مدينة بوردو الفرنسية. جاء مع زوجته ضمن رحلة سياحية جماعية. استقبلتهما مع لطيفة في الرباط واستدعيناهما إلى العشاء في المطعم الموجود في الطابق الأخير من فندق هيلتون والذي يذكر بموقعه المطل على المدينة بمطاعم لوس أنجليس. وبعد العودة من رحلتهما إلى الجنوب نظمنا على شرفهما حفلة استقبال حضرها عدد من مثقفي البيضاء. لخص ويبر ارتساماته في العبارة التالية: ما أكثر الأطفال في كل المناطق التي زرناها!. ما مستقبلهم؟

* *

استدعاني المهدي المنجرة، نائب المدير العام، للمشاركة في مناظرة نظمتها اليونسكو في باريس عن الثقافة العربية المعاصرة. لما رآني شارل بيلا قال مستهزئاً: وأنت أيضاً تحضر كخبير، خبير في أي شيء؟ الخبير في نظره هو المتخصص كأفرام البستاني أو سهير القلماوي. وقد يكون وراء السخرية كثير من المرارة: كيف حصل أن يسأل اليوم العرب عن مستقبل ثقافتهم؟ هذا هو موقف المستشرق التقليدي الذي يدافع عن مركزه في المجتمع، سيما إذا وُلِدَ وترعرع في الجزائر المستعمرة. يُقال إنه يرفض أن يذهب إلى

الجزائر إذ يضطر إلى طلب تأشيرة دخول. جاك برك نفسه بدا متجاوزاً أثناء النقاش وإن حاول بذكاء أن يتكلم لغة الأكثرية. لاحظ الجميع حرص المؤتمرين على الإيجاز وتحاشي البلاغة التقليدية وعلى عدم فصل مشاكل الثقافة عن الوضع الاجتماعي. هل يشير هذا الأمر إلى تطور حقيقي في الأذهان أم هو فقط من وحي المقام؟

قالت سهير القلماوي: عندكم رجل يمطرني بإنتاجه. يظن أنه يكتب الرواية بمجرد أنه يسميها كذا! لم أسألها عن اسم الشخص ولا أعتقد أنها تكشف عنه.

وقال المسعدي وهو يتذوق ـ تذوق العارف الخبير ـ طبق سمك في مطعم «المتوسط» ميدان أوديون: لقد أحيينا في تونس نظام الإمارة. بورقيبة أمير كسائر أمراء بني الأغلب أو بني زيري. الرجل، أعني المسعدي، ناقم على كل الأنظمة العربية.

وقال فون غرونباوم الذي جاء من لوس أنجليس ليحضر المناظرة: كيف تعرّف الإسلام؟ أجبت على الفور: دين الصفاء. لم يعقّب. لماذا اخترت هذا الوصف وهذه الكلمة بالذات؟ ربما لأن مخاطبي ألماني الثقافة أو لأني كنت قد قلت له من قبل: تتكلم يا أستاذ فرنسية كلاسيكية، فرنسية القرن الثامن عشر. وبالفعل كنت أنصت إليه وأتمثّل أناقة ماري أنطوانيت.

* *

كنت، وأنا في باريس، قد راجعت مخطوط الجزء الأول من **المغاربة وماضيهم** ثم سلّمته للناشر فرانسوا ماسبرو ليبدي رأيه فيه. لم يتأخر الردّ: إني انتظر بفارغ الصبر الجزء الثاني. فكتبت الصفحات الأخيرة بنشوة غير متوقعة.

في الوقت نفسه وصلت رسالتان من بيروت تحملان الطلب

نفسه: الترخيص بنقل **الإيديولوجيا**. . إلى العربية. ماذا كان يكون ردّ القارئ المشرقي لو ألّفت الكتاب أصلاً بالعربية كما كانت نيتي أول الأمر؟ الإهمال بدون شك. كل اتصال بيننا ـ المغاربة أو العرب أو المسلمين ـ يمرّ عن طريق الغرب، كما هو حال الأوروبيين اليوم بالنسبة لأميركا. هذا هو مؤدّى الكتاب في الواقع. ظن أكثر القُراء الغربيين أني متضايق من هذا الوضع البئيس وأني أدعو بإلحاح إلى التخلّص منه وظن أغلب القُراء العرب ـ بالعكس ـ أني أميل إلى الرضوخ للواقع واللعب بالأوراق المتوافرة لدينا. التأويل الثاني هو الأقرب إلى المقصود مع إيحاءات كثيرة بأن الحلّ الأول، الحل البطولي، هو الذي يستحق التنويه لو كان قريب المنال. سيلازمنا المشكل ولمدّة طويلة ومعه التردّد والحيرة.

* *

يقول صادق جلال العظم في رسالة من بيروت باسم لجنة تحرير مجلّة **مواقف**: «المطلوب إنجاز مجموعة دراسات جدّية تقدّم تحليلاً عينياً وعلمياً ثورياً لكل ظاهرة سلبية وتبيّن جذورها وأهمية نسفها ثورياً كمؤسسات عاملة وفاعلة في حياة المجتمع العربي. على سبيل المثال أذكر الأسرة والدين والقبيلة والمرأة، إلخ».

أقرأ الرسالة وأنا على وشك الالتحاق بأميركا. أي فرق أن أكتب ما يطلب مني من هنا أو من هناك؟ لا تنسى أن الوعي الوطني نشأ أساساً على ضفاف نهر السين!

* *

يونيو

جاء أبي إلى البيت لأول مرة ورأى حفيده (عصام) في محيطه العادي. جلس في الحديقة تحت ظل الأشجار الباسقة. تناول شيئاً

قليلاً من الطعام بسبب الحمية المفروضة عليه (لا ملح ولا سكر). ثم أخذت له صورة بجانب لطيفة حاملة عصام بين ذراعيها. هل يوجد شبه بين الجد والحفيد؟ هل يتحقق بعد أن يكبر الحفيد ويذهب الجدّ مع الذاهبين؟

* *

تقابلت البارحة في بيت زميلي زغلول مرسي مع الكاتب الفرنسي غاستون بونور. سكن ردحاً من الزمن بيروت حتى أصبح وكأنه من أبنائها. لا أدري هل كان ملحقاً ثقافياً أو رئيس بعثة ثقافية، إلاّ أنه استطاع بسبب وظيفته أن يتعرف على عدد لا يحصى من الأدباء الشرقيين والغربيين. غادر لبنان بعد أن تأزمت الأوضاع وجاء إلى المغرب باحثاً عن مأوى جديد. وبالطبع لم يستنشق فيه الهواء نفسه. لم يعبّر عن خيبته. كان قد كتب مقالاً مفصلاً في المجلة الفرنسية الجديدة عن **الإيديولوجيا**. عند صدورها، أبدى فيه تفهماً كبيراً. لم أكن في مستوى تأدّبه وتواضعه. احتكرت الكلمة عوض أن أفتح له المجال ليحكي لنا ما عنده.. إلاّ أن يكون هو قد تعود على استنطاق الغير. كثيراً ما أجد نفسي في المأزق نفسه!

* *

يوليو

هوبرت ميسن من أسرة عريقة في بوسطن. درس التاريخ الإسلامي على هاميلتون چيب في هارفارد وكان المتوقع أن يلتحق بهيئة التدريس بعد أن نال درجة الدكتوراه لولا معارضة محسن مهدي. ينوي إصدار مجموعة دراسات حول المشكل الفلسطيني على نمط العدد الخاص الذي أخرجته مجلة جان بول سارتر، **الأزمة الحديثة**، في باريس قبيل حرب يونيو 1967. جاء إلى البيضاء

ليتعرف إلى المغرب وليطلب مني المساهمة. كان جوابي الأول هو الاعتذار بعد تجربتي مع المجلّة الفرنسية التي استغلت مشاركة العرب كمبرّر لتحيزها الأعمى لإسرائيل بعد اندلاع الحرب. قال إنه لم يكن يعلم هذا الجانب وإن مثل هذا التصرف غريب عن الأميركيين.

كنت قد دعوته إلى الغداء. ثم عدت به إلى فندق المنصور حيث كان يقيم. لما توقّفت السيارة مرّت بنا امرأة شابة بزيها المغربي. فسأل: أود أن أعرف ماذا تلبس النساء المغربيات تحت الجلباب؟

* *

وصلت متأخراً إلى فندق المحمدية حيث عقد المؤتمر الفرنسي المغاربي الثاني. دخلت قاعة الاجتماع وهشام جعيط يلقي محاضرته. جلست وبدأت أنصت إلى ما يقول. استولى علي أسلوبه الجميل إلى حدّ أني عدت لا أهتم للمضمون، ربما لأني لا أسير في الاتجاه نفسه.

هل تكلم ابن خلدون على أدباء تونس وفقهاء المغرب؟

* *

سبتمبر

نظمت اليونسكو اجتماعاً في مدينة بالرمو بصقيلية عن التواصل بين شعوب المتوسط. كانت مناسبة لألتقي مرة ثانية بفون غرونباوم. كان قد أدرك أن الميزان يميل أكثر فأكثر ضد هجرتي النهائية إلى أميركا. فكتب لي رسالة في غاية اللباقة يقول فيها إنه سيبحث عن حلول بديلة. وفي بالرمو وجدنا حلاً وسطاً وهو أن أقضي فصلَيْ شتاء وربيع 1970 حتى يتمكن من اختيار خلف لي.

حضر الاجتماع روجه كايوا وجاك برك ومونتغمري واط وجماعة من المستشرقين الإيطاليين الذين يتكلمون العربية بطلاقة، عكس الفرنسيين والإنجليز، لأنهم عاشوا في مصر وتتلمذوا على أساتذتها الكبار. قادنا ريزيطانو في جولة عبر معالم المدينة وضواحيها وكثيراً ما كان يردد كلمة **أرابو نورماني**، ينعت بها الآثار التي أنجزها الصناع العرب تحت حكم النورمان. لهذا السبب ظلت قائمة ولو جزئياً. أما الآثار العربية الصرف فإنها أهملت أو هدمت. كلما اقتربنا من مبنى تبدو عليه سمة عربية كانت لطيفة تميل إلي وتهمس مازحة: **أرابو نورماني!**.

قال برك للطيفة: كنت أعرف الحاج أحمد مكوار، كان رجل خير. طبعاً عرفه عندما كان مكلفاً بمراقبة أحوال الصناع الفاسيين قبيل الحرب العالمية الثانية، عندها كان يمطر قسم الشؤون الأهلية في الإقامة العامة بتحليلات ماركسية مبسطة: إن انحلال الصناعة التقليدية هي أصل الفورة الوطنية. الداء اقتصادي اجتماعي والدواء يجب أن يكون كذلك. انقذوا الصناع من الجوع وستخنقون الحركة الوطنية. قلت له: إن أجود ما كتبت هو ما يتعلق بالمغرب. أجاب: لم ينفع.. نفتني إدارة الحماية إلى قرية أيمن تانوت كما نفت الحكومة المغربية المهدي بن بركة خارج البلاد.

يستحمل برك حرارة صقيلية لأنه أصلاً من الجنوب. أجداده من منطقة بوردو وقد يكشف التحليل الدموي على حضور عربي مكثف هناك. وُلِد وتربّى بين عرب الجزائر ثم جاء إلى المغرب الأقصى وقضى عشرين سنة تقريباً بين قبائل الغرب. أما روجه كايْوا فإنه، مثل فون غرونباوم، يتألم من الحرارة، رغم أنه عاش سنوات في أميركا اللاتينية.

كثر الكلام في اللقاء عن الحضارة الوسطوية، في مفهوم طه

حسين وروني حبشي، على الوحدة الحضارية، الأصول المتشركة، التأثير المتبادل. لكن رغم ما قيل ويُقال، رغم دور النورمان في صقيلية وجنوب إيطاليا، رغم دور عرب المشرق أيام الأغالبة والفاطميين، يبقى أن الاتصال لم يتمّ بين أوروبا عامة والعرب أو الإسلام أو الشرق بعامّة، بل تمّ بالضبط بين سكان صقيلية وسكان إفريقيا (شمال تونس)، وأن هذا الاتصال دام قروناً منذ الهجرات الفينيقية واليونانية الأولى وذاك تحت أعلام مختلفة. هذا ما يشعر به الملاحظ عندما يأتي من أقصى المغرب.

* *

على متن الطائرة العائدة إلى روما جلست بجانب إبراهيم مدكور.

غير صحيح أن الثقافة مستقلّة عن السياسة. رغم مكانة مدكور العلمية، رغم أنه يدير مجمع اللغة العربية فإنه لم يستقبل بالحفاوة اللائقة. وما كان هذا الإهمال يحدث لولا انكسارات مصر الأخيرة.

قلت: هل صحيح ما جاء في كتاب جاك برك، **مصر بين الامبريالية والثورة**، عن الحركة التي قدتها أنت ومحمد مندور على هامش حزب الوفد؟ أجاب: تنقص المؤلف التجربة الحية، قلت: ألا ترى إنه طبق على مصر مقاييس المغرب؟ قال: جائز. ثم تكلّم طويلاً عن سياسة الإنجليز والقصر والوفد وجناحه اليساري، مؤكداً في الختام: رغم مآخذ رؤساء الحزب علينا نحن الشبّان، عندما مرض مندور وأشرف على الموت اتخذوا موقفاً مشرفاً، جهزوا طائرة وأرسلوه إلى لندن للعلاج فانقذوا حياته.

مساء اليوم نفسه لمحته يمشي وحيداً في ميدان **نافونا** بقامته الطويلة وظهره المقوس وحركاته المتأنية، بعيداً كل البعد عن اندفاع

وحماس الشباب. قلت للطيفة: في الطائرة عندما نطقت بكلمة مصر رأيت الدمع يلمع في عينيه. أهو دمع الشيخوخة أم بكاء على الآمال الضائعة؟

* *

أكتوبر

مات الأب وانسدّ باب الأمل. انتفت كل فرصة لمحاورته في شؤون كثيرة. وما منعني كل هذه السنوات أن أستغل الفرص التي سنحت، آخرها قبل عشرة أيام عندما ذهبت إلى محكمة الجديدة لسحب شهادة بعدم وجود سوابق؟ كنت أنوي تسجيل أجوبته وكنت دائماً أنسى آلة التسجيل.. ألاعيب القدر..

من حسن الحظ أن فون غرونباوم أمهلني ثلاثة شهور. ماذا كان يحصل لو مات أبي وأنا هناك؟ كان يقتلني الندم.

بداية رمضان، بداية نوم عميق. أتوقف عن العمل، عن الكتابة، عن المشاركة في لعبة الحياة. تتفهّمني لطيفة ولا تعاتبني.

بعد أسابيع سأشرع في حوار طويل مع أبي.. من جانب واحد وعلى الورق.

* *

1970

يناير، لوس أنجليس

ثلاثة أيام في باريس مع لطيفة. تركنا الولد مع جدّته. لم تخفِ لطيفة حزنها وأتفهّم شعورها. تظن أن الفراق مخاطرة.

ثم ركبت طائرة **بان/آم** إلى لوس أنجليس يوم الخميس فاتح يناير. كانت الطائرة فارغة فاهتم بي المضيفون إلى حدّ المضايقة، سيما وأن الرحلة جدّ طويلة.

وها أنا الآن جالس إلى الطاولة ذاتها في الغرفة ذاتها من فندق كليرمونت بعد أن قمت بجولة تفقدية لشارع هوليوود. أثناء الجولة رأيت شاباً زنجياً يرافق فتاة بيضاء ويداعبها. اعترضه شرطي وقاده بدون لباقة إلى سيارة بوليس. سمعت امرأة تعلّق: أتمنى أن يكون السبب غير ما يبدو. أتوهم أنها يهودية، أوروبية، قريبة العهد بالمدينة.

* *

أطالع كتاب مذكرات للروائي جون دوس پاسوس. يخصص فيه صفحات قليلة للمغرب، كتبها قبل أن يؤلف **مغامرات شاب** الذي تدور وقائعه في إسبانيا أثناء الحرب الأهلية. يبدو أنه دخل

إلى المغرب عبر الحدود مع الجزائر الفرنسية. المغرب الذي يصف هو مغرب هوليوود: الرمل والحرّ، الخمر والضجر، الكسل والنساء «غير المحصنات»، حتى يشك المرء هل زاره بالفعل. أغلب الظن أنه زاره زيارة خاطفة كما فعل في مدريد حسب شهادة همنغواي، المغرضة.

* *

نشرت جريدة **لوموند** في عدد يوم الخميس 10 نص المقابلة التي أجراها مراسلها مع جمال عبد الناصر. الرجل ذو خبرة سياسية، لا شك في ذلك، لكنها لم تعد كافية في الظرف الحالي.

* *

كنت أسير يوم السبت 21 على شاطئ سانتا مونيكا وإذا بي أصادف حفل زفاف يقام في الهواء الطلق. وقفت دقيقة وسمعت القس يلقّن الخطيب والخطيبة قسم الوفاء، في حال الفقر وفي حال الغنى، في حال الشفاء وفي حال السقم.. المنظر فوق الرمل وباللباس العادي ليس المنظر في الكنيس وبلباس الزفاف. هذا ما جعلني أنظر إلى الأمر من الزاوية الاجتماعية الصرف. قد يُقال: هذه عبارة تقليدية تجري على اللسان ولا تدل على شعور عميق ودائم. وقد يُقال: لا خصوصية في ذلك، كل زواج، مهما كان شكله، يتضمن الوعد نفسه في البداية. لو كان هذا صحيحاً لما طلب الإعلان عن الشهادة. الوعد على رؤوس الأشهاد له وزن خاص، حتى في وجدان الفرد. هذا الحفل على الشاطئ جعلني أفهم دور المرأة في المجتمع الأميركي. بسبب هذا الدور البارز أصبحت مسألة الوفاء بالعهد أخلاقية أكثر منها قانونية أو دينية. كل شيء هنا ينظر إليه من زاوية الوفاء أو الخيانة: السلوك في نطاق الأسرة أو المؤسسة أو إزاء الناخبين. من بدا أنه يميل إلى

الاستخفاف بوعوده فإنه يقصى من الجماعة إلاّ إذا ندم واعترف وطلب العفو. وعد نيكسون الجمهور الأميركي بأنه سيفعل كل ما في وسعه لإنهاء حرب فيتنام وها هو يوسع الحرب إلى كامبوديا. فقامت ضده ثورة عارمة، أخلاقية أكثر منها سياسية. يدافع عن نفسه بتبريرات سياسية فلا يُسمع.

ما يوجد عندنا مفرقاً، مبعثراً، ويبقى لذلك بدون تأثير فعلي، ينتظم عندهم ويكتسب بذلك الانتظام قوة فاعلة ودائمة.

* *

فبراير 22

أردد الدروس بكيفة آلية. قبل سنتين كنت أقوم بتجربة جديدة عليّ فكنت أبحث، اجتهد، أنقب. الآن وقد ألّف الكتاب وقدم للطبع فلم تعد تهمّني كثيراً المشكلات المعروضة فيه.

إلى غاية الأسبوع الماضي كان السكان يسبحون في البحر. ثم بدأ بغتة موسم الأمطار. تسقط هنا أياماً بدون توقف. لا أكاد أفارق الغرفة وأتمنى كل يوم أن تصلني رسالة من لطيفة.

* *

فبراير 24

وصلت الرسالة.. مطمئنة كالعادة. لولا أنها لا تتضمن أية صورة لعصام. أكدت ما قرأته في جريدة **لوموند** عن خروج أحمد كديرة من الحكومة. لم تبدِ أي تأسف مع أنه كان أبدى تفهماً لقضيتها وأصلح بعض ما أفسده محمد بنهيمة. الفرق بين الرجلين أن الأول سياسي ـ مهما كانت ميوله ـ فيما الثاني منفذ لا غير وهذا ألطف نعت في حقه.. سيماهم في وجوههم!

* *

مارس 29، سان فرانسيسكو

مدينة حقيقية رغم أن مساحتها لا تفوق، حسب ما يُقال، عشر مساحة لوس أنجليس. اضطرت، بسبب موقعها بين البحر والجبال، إلى أن تكون مدينة على النمط الأوروبي. العنصر المؤثر فيها، في القسم المعروض للسواح الأجانب، هو الإيطالي في حين أن يهود أوروبا الوسطى هم المتغلبون على لوس أنجليس. الثقافة حاضرة بكثافة هنا، الأدب والفن والمسرح.

رغم، أو بسبب، هذا المظهر يشعر الزائر سريعاً بنوع من الغثيان، كما لو كانت المدينة صورة مكبرة لحي **پيغال**. سان فرانسيسكو ميناء مفتوح على اليابان والصين.. الفن في قلب المدينة والجمال، الجمال الطبيعي، في أحوازها. لا غرابة أن يكون هنري ميللر قد انتقل إليها من باريس... الجمال والجنس، رخاء الشمال وتسامح الجنوب..

الجولات السياحية منظمة أحسن ما يكون التنظيم. زرت مونتري (مدينة كلينت ايستْوود)، ثم وادي ساليناس، ثم جبال سانتا كلارا، ثم كانّري راو (مشرع مصانع التعليب).. جولة مستوحاة من حياة وأعمال الروائي الكاليفورني جون ستانبك. عدت منها وأنا أشعر بالكآبة كما الأمر عادة عندما يسافر المرء رفقة غرباء.

* *

مارس 30

قمت بجولة عبر حرم جامعة بركلي. رأيت الصومعة الشهيرة والمسرح الإغريقي الذي بناه على نفقته وليم راندولف هرست، امبراطور الصحافة وأصل المواطن كين، بطل أورسون ولس

الشهير. تأملت طويلاً نصب نوبيس هيل الذي يخلّد ذكرى «الذين ماتوا من أجل أن يتحرّر الفكر».

لا شيء في الظاهر يميّز بركلي عن أختها جامعة لوس أنجليس. مع ذلك أشعر أن الجو مختلف، كما لو كان لا يزال يحمل آثار عقول من عاش وعمل وأبدع هنا. قالت لي نيكي كدّي، أستاذة التاريخ الإيراني، مرة: إن طبيعة جنوب كاليفورنيا لا تساعد على الجهد الفكري وإن جلّ الأساتذة لا يؤلفون شيئاً ذا قيمة إذا لم يكونوا قد فكروا فيه ملياً وجمعوا أهم موادّه قبل أن يرحلوا إلى لوس أنجليس. لا أظن أن الحكم ينطبق على بركلي. وعلى أي حال سان فرانسيسكو لا تنتمي جغرافياً إلى الجنوب.

* *

شاهدت مسرحية برنارد شو، **جان القديسة**، في مسرح الربرتوار الذي تدعمه المدينة والولاية حتى تبقى الأعمال الكلاسيكية تعرض على الجمهور.

كتبها شو سنة 1920 على أثر الفوز المشترك، الفرنسي الإنجليزي، على ألمانيا القيصرية. استغلّ الفرصة للتعبير عن عدائه العميق لقيم الثقافة الإنجليزية الارستقراطية. جعل من البطلة مثالاً لحكمة الشعب وتعقله وميله إلى السخرية، وهي خصال تعود إلى اتصاله بالطبيعة وبالخالق دون لجوء إلى وسيط. الوسطاء، أي رجال الدين والإقطاعيون والجنود، طفيليون، انتفاعيون، يخدمون كل من يضمن لهم دوام امتيازاتهم، أكان على حق أم لا.

يستنطق شو التاريخ بكيفية جدية. لا يقول إلاّ ما اتّفق عليه الباحثون المتخصصون، في الوقت نفسه يحاكم بصرامة أعداءه الشخصيين، أعضاء الطبقة العليا من الإنجليز. كانوا أول من شعر

بالهوية. فتضخمت أنانيتهم وبالتالي خمدت شعلة أذهانهم. القومية، الوعي بالخصوصية الجماعية، ظاهرة عامة. قد تتأخر هنا أو هناك ـ ولا شك أن المؤلف وهو يصف أوضاع فرنسا القرن 14م يتمثل حال إيرلندا والهند ومصر حيث كانت تتوالى آنذاك المظاهرات العنيفة المطالبة بالاستقلال عن التاج البريطاني ـ لكنها تتبلور حتماً في النهاية. وعندها تنكشف أكاذيب الأنظمة التي تدّعي صفة «العموم» كالإقطاع والكنيسة. يبرز الوعي بالذات فيغذي روح المقاومة، كل أنواع المقاومة، ضد المؤسسات العمومية، فيتحرر الفكر الفردي. يحلّ الفرد الحرّ محلّ المؤسسة كمرجع.

يعرف شو كيف يمزج السرد، والتحليل الموضوعي، والمناجاة، والتعبير عن النفس البطولية. فتح الطريق لتقنيات برتولد بريخت ولمسرح آرثر ميللر الاجتماعي. هو أستاذ جان بول سارتر. أحد ركائز المسرح التعليمي. وما زاد من قوة العرض التجاوب الملحوظ من طرف المشاهدين. كانوا يفكرون بدون شك في مأساة فيتنام. كنت ألمس التجاوب نفسها في باريس أيام حرب الجزائر عندما كنت أذهب إلى مسرح جان ڤيلار.

لا معنى للقول: مسرح المؤلف الفلاني متجاوز. متجاوز أين ومتى؟

* *

مارس 31

قمت بثاني جولة سياحية قادتني مع آخرين إلى غابة شجر سيكويا. قرأنا على دوائر مخروط جذع إحدى الشجرات تواريخ حوادث عظيمة كإعلان استقلال الولايات الأميركية أو الثورة الفرنسية أو اكتشاف العالم الجديد، إلخ. من الغابة انتقلنا إلى

ضاحية سوساليتو وهو مرفأ للصيد تحول إلى ملجأ لعديد كبير من الرسامين، المبتدئين والمشهورين. تمتزج في هذه المنطقة معالم سان طروبه وضوفيل. في حين تتمركن أوروبا الغربية بسرعة مدهشة تحاول أميركا أن تتأورب، على الأقل في بعض جهاتها.. وقد تنجح كما نجحت من قبلها امبراطوريات كثيرة.

ومن دلائل هذه الأوربة إخراج مسرحية عن حياة وأغاني جاك بريل. حافظ المخرج على الوقاحة وأهمل الرومنسية. جاء في العرض: الطبقة الوسطى قطيع خنازير... لستم المعنيين بالذات يا سامعين!. الموضوع أوروبي لكن القالب أميركي. أن تلخص الأفكار التي تتردّد عند كاتب أو شاعر أو ملحّن وتسبكها في نظرية متكاملة عن الكون والحياة البشرية، نظرية فردانية ثورية، فذاك من صميم المشروع الأميركي الرامي إلى تفجير الجماعة من الداخل بالعودة إلى منبع الثقافة الأميركية.. هناك ظاهرة ثورية حتى داخل التقليد.. جدلية فريدة من نوعها.

* *

أبريل 3

استئنفت الدراسة وموضوع الفصل: المغرب وأوروبا في العهد الحديث. أتخوف من أن يتحول إلى تاريخ الأوروبيين في المغرب فيفقد كل قيمة.

* *

أبريل 4

تلقيت مكالمة من فتاة تدعى ربيعة عراض. قالت إنها مغربية (من أين؟) وإنها تقطن ولاية ماريلند. كيف حصلت على عنواني؟

مرة أخرى هذه هي أميركا... المغاربة جوالون بطبعهم، مغامرون في الخارج محافظون في الداخل والأمران متلازمان.

* *

أبريل 7

أعكف على جمع موادّ مقال عن الصراع العربي الإسرائيلي يصدر ضمن موسوعة فرنسية. كل الوثائق متوافرة هنا والجو الفكري يساعد على تفهّم جذور المشكلة. هل سمعت بخصمين يجهل، بل ينكر، أحدهما الآخر؟ اليهودي الصهيوني لا يدخل في معادلته الفلسطيني العربي كإنسان من دم ولحم، والفلسطيني الواعي بهويته لا ينظر أبداً إلى اليهودي كما يرى هذا نفسه وكما يراه جاره المسيحي. لم ينشأ الصهيوني على أرض فلسطين حتى يتعرف إليه الفلسطيني. وفي الأرض الذي نشأ فيها لا يفهم اليهودي الصهيوني ولا المسيحي من كلمة عرب إلاّ العابر «الراحل».

المشكل في العمق هو أن عرب فلسطين لم يكونوا ضحية فقط بل كانوا «موضوع» تاريخ أوسع بكثير مما يستطيعون أن يلمسوا. لذا يصح القول إن العرب، كمجموعة بشرية، لا تستطيع أن تتصدى للمشكل إلاّ بالإعراض عنه مؤقتاً، حتى تتمكن أن تراه في حجمه الحقيقي. نحن منشغلون كلنا بهم وهم ليسوا كلهم منشغلين بنا. في البداية كان الصهاينة أقلية، يحاربها اليهود وينتصر لها النصارى والقوميون والمحافظون. هل كان هذا الوضع سبب ضعف؟ بل كان سبب قوة. ظلّ جل اليهود يشتغلون ويتقدّمون في كل المجالات. وفي النهاية، عند الحاجة، تضافرت الجهود للغرض نفسه وصبّت كل المجاري في نهر واحد.

* *

أبريل 8

من يهتمّ اليوم في أميركا بالشرق الأوسط؟ أنظار الجميع مشدودة إلى آسيا، سيما هنا في كاليفورنيا. لا يتابع أخبار المنطقة العربية إلاّ المتخصصون وبعض اليهود. وهذا الوضع هو الذي يسهل مأمورية اللوبي الصهيوني. يكفيه أن يؤثر في عدد قليل من الأفراد بين الصحفيين وأعضاء الكونغرس والمجالس المحلية. الأميركي الذي يسألك عن أوضاع الشرق ويستمع إليك هو من لا يمارس أي نشاط سياسي: الشاعر، الأديب، الفنّان. .

* *

أبريل 14

كلّمت لطيفة قبل أيام السيدة فون غرونباوم تاركة الانطباع أنني أتحاشى الاتصال بها. تتخوف من شيء؟ إن كانت فليس من جهتي أنا بل من جهة ما يحيط بي. تعرف أن وستوود غير بعيد عن هوليوود.

الواقع أنها في طريقها إلى لوس أنجليس مصحوبة بعصام. ستجدني في العمارة نفسها المطلّة على شارع ولشر والتي أقمنا فيها مدة شهرين في صيف 1968. كان عصام رضيعاً ينام ثم يستيقظ ليرضع ثم ينام من جديد. أما الآن؟

* *

أبريل 30

سبق أن سجلت إن ديالكتيك الفرد والجماعة يختلف في أميركا عنه في أوروبا وبالأحرى عندنا. الفرد هو الأساس والمحور ومع ذلك، أو بسبب ذلك، تلمس يومياً آثار «نفسانية جموعية»، من أهم مظاهرها احترام رجال الدين ـ أياً كانوا ـ وتقديس الطفل وبالتالي

المرأة. يقدس الأميركي المرأة بقدر ما يهابها، والأمران متلازمان.

* *

قبل أيام جاءت لطيفة بعصام. نام في الطائرة واستيقظ عند الوصول جاعلاً من الليل نهاراً. بدأ يصرخ بقوة وبدون انقطاع في بناية لا يقطنها إلاّ العوانس والرجال المتقاعدون. غادرنا الشقة بعد احتجاج بعض الجيران وطفقنا نجوب بالسيارة الشوارع الفارغة بحثاً عن مطعم أو مقهى لم يقفل بعد. من حين لآخر كانت تحاذينا سيارة دورية. يلقي الشرطي نظرة فاحصة فيرى أسرة عادية ـ زوجاً وزوجة وطفلاً يقظاً ـ يفهم الوضع، يرفع يده تحية ويبتعد. أخيراً عثرنا على مقهى مفتوح قرب سانتا مونيكا. دخلنا نحن الثلاثة وجلسنا. تقدمت إلينا المضيفة مبتسمة. أومأت إلى عصام: **كيوت!**. قلق ومقلق، أليس كذلك؟

تقديس الأسرة: عادة موروثة من مجتمع **الفار وست** أم سلوك نشأ مع جيل الـ «بيبي بوم»؟

* *

2 ماي

عودة إلى سان فرانسيسكو رفقة لطيفة وعصام. وعدتها أنها سترى أجمل مدينة في الدنيا. وبالطبع لم يتحقق الوعد. لم أستطع الحفاظ على جو الوئام فاختفى بهاء المدينة.

ألتقطت صورة لعصام في حديقة قصر البلدية. كان يتسابق مع طفل أسيوي ـ شرقي كما يُقال هنا ـ وكم بدا الشبه كبيراً بينهما!

* *

5 ماي

يوم مرهق. تكدس الضباب فوق المدينة وارتفع معدّل التلوث.

فصعب التنفّس وتوترت أعصاب الجميع. قال أحدهم: لا رحمة في هذا البلد! ـ عنوان قصة من عهد روزفلت.

هذا حكم مواطن أميركي. أما الأجنبي المهاجر، سيما إذا جاء من بلاد الجنوب، بلاد السمر، فإنه قد يعلق: الرحمة، لأي غرض؟

* *

7 ماي

غادرت لطيفة لوس أنجليس إلى نيويورك ثم باريس. راضية أم غاضبة؟ رأت الواقع وأدركت أنه غير ما كانت تتخيل. كان من الممكن، من الممكن جداً، أن نستقر ونعيش عيشة عادية، كما دلّ على ذلك تصرف شرطي الدورية والمضيفة في مقهى سانتا مونيكا. لكن قرار العودة قد اتخذ فلا فائدة من المماطلة. أعلم أنها ستقول لي يوماً: تشاورت مع من؟.

لو استشرتها، لو تركت مسؤولية الخيار لها، هل كانت تجيب بكلمة واحدة: نبقى، نرحل؟

* *

10 ماي

لا كلام في الجامعة إلاّ على كامبوديا حتى قبل أن تغادر لطيفة المدينة. لم يفهم الطلبة سياسة نيكسون الرامية إلى إرغام العدو على التفاوض بقطع المدد عليه، مما ألزم التدخل في كامبوديا والتخلص من ملكها سيهانوك الذي ينادي بحياد بلاده مع أنه عاجز عن السيطرة على الحدود مع فيتنام. لم يرَ الطلبة في الخطة المذكورة سوى وسيلة لتوسيع رقعة الحرب وإطالة أمدها. وكيف عبروا عن سخطهم؟ بعد التشاور مع رئاسة الجامعة قرروا أن تخصص كل

دورس الفصل لتاريخ وحضارة وجغرافية كامبوديا. أسمعوا صوتهم كمواطنين مرشحين للتجنيد في أية لحظة وفي الوقت نفسه لم يعطلوا سير الجامعة. مظهر آخر من تلك الذهنية «الجموعية» الأميركية. توصل الجميع إلى هذا الحلّ المعقول والنافع لأن الطلبة هم الذين يموّلون دراساتهم. لو كانت الدولة هي الممولة لاتّخذت القضية مسلكاً آخر.

* *

ماي 14

كتبت لطيفة في رسالة قصة ذات فصول عن علاقاتها المتأرجحة مع أعضاء أسرتها. هذا أمر لا يشجعني على العودة.. لولا أني أقوم الآن بآخر إجراء يمكّنني من مغادرة البلد، أعني التصريح بأني أدّيت كل الضرائب المترتبة عليّ للدولة وللولاية وللمدينة.

في انتظار حلول تاريخ السفر أتصفح الكتب التي لا أودّ حملها معي وأشاهد إنجازات طلبة قسم السينما. كل الأفلام تدور حول قضية الحرب والسلم باستثناء شريط خصّصه طالب فرنسي لحركة النمر السود والذي قوبل بتصفيق حارّ كما رحّب بفيلم عن انتخابات 1968.

تكاد أروقة الجامعة تكون فارغة، إذ تفرق الطلبة على أنحاء البلاد لمساعدة المرشحين أنصار السلم لانتخابات الكونغرس.

* *

ماي 20

لاحظت مراراً في المشرق والمغرب أن الأوروبيين لا يحبون المثقفين المحلّيين. يقولون إنهم لا يمثلون حقاً القيادات القديمة ولا الجماهير الشعبية.

وأنا أيضاً لا أحب الطبقة الوسطى الأميركية عندما أقارنها إما مع الشريحة العليا، التي قد تعتبر ارستقراطية، أو مع الطبقات السفلى.

هناك إذن عامل اجتماعي يتحكم في هذا الشعور. ما هو؟

* *

4 يونيو

سيكون سفر العودة يوم 18 على متن طائرة شارتر تحمل عدداً كبيراً من أساتذة وموظفي الجامعة. لا أحد يقضي الصيف في لوس أنجليس.

هل ألبّي دعوة فاردنبورغ وأزوره في أمستردام؟

لم أفهم لماذا لم يوافق فون غرونباوم على تعيينه في منصبي سيما وأنه خلفني مدة ثلاثة أسابيع في خريف 1968؟ ألأن المنصب مخصص لمؤرخ عربي من المغرب أو المشرق؟ صحيح أنه يهتم أساساً بالإسلاميات.

* *

يوليو

أقول في مقدمة ترجمة **الإيديولوجيا** إلى العربية:

«.. العامل الأساسي هو أن العمل الفلسطيني ينبني على أن الحق، الأدبي والفلسفي، ليس موجوداً دائماً، يحلّ من حين إلى حين في ذوات عابرة، بل يُبدع كل آونة بالعمل الإنساني المتواصل. وراء التنظيم الفلسطيني، وراء الدعاية الفلسطينية، وراء مخطط الدولة اللادينية الفلسطينية يكمن منطق واحد وهو شمول المشروع الإنساني ونسبية الحقوق والحقائق. إن الفلسطينيين لا يجسّدون بعملهم اليومي حقوقاً

قديمة، بل يولّدون حقوقاً جديدة ويفرضونها على الجميع. هذا الحكم يقتضي بالطبع أن تعي الثورة الفلسطينية تفاصيل الواقع وأن تستمر المدّة الكافية لكي تتّضح أهدافها».

* *

أغسطس:

يعلق رياض رعد ناشر ترجمة الكتاب على هذه الفقرة:

«جئت بتقييم العمل للفلسطيني وللمقاومة الفلسطينية نراه هنا، نحن الذين نعايش ونعاين ونتأمل العمل الفلسطيني، أقرب إلى الإيديولوجيا والرغبة والأمل منه إلى الواقع. أما رأينا بالمقاومة فنلخصه بالتالي:

- إن المقاومة، على صعيد الوعي، متشبثة، كما تقول في كتابك، بالحقائق المطلقة وإيديولوجيتها إيديولوجيا خالصة.

- إن المقاومة هي موضوعياً إفراز لأنظمة الهزيمة، ولا يغير من هذه الحقيقة البتة كونها تنادي بما يتجاوز هذه الأنظمة.

- إن المقاومة قد تحولت إلى مؤسّسة وهي قد عُسكرت.

- إن موقف الجماهير العربية في المشرق إزاء المقاومة أخذ يتجه إلى البرود واليأس إن لم نقل أكثر من ذلك، فضلاً عن أن الجماهير، بما فيها الجماهير الفلسطينية، ما تزال ناصرية أساساً.

وفي كل الأحوال فإننا سننشر الكلمة بحذافيرها، إذا كنت مصراً على ذلك».

* *

جوابي على ملاحظة رياض رعد:

«أعترف أن حكمي لا ينطبق على الحاضر الملموس بقدر ما يستوحي من هذا الحاضر ما يمكن أن يتبلور في الأذهان إذا ما استمرت وتعمقت الثورة الفلسطينية. لا يوجد أحد، فيما أعتقد، ينكر أن الوضع الذي يعيشه الفلسطينيون يجعلهم أقدر من سائر العرب على أن يستسيغوا معطيات الفكر العصري. هذه طبعاً إمكانية، قد تتحقق وقد لا تتحقق، لكنها إمكانية غير مستحيلة. أما إذا فشل الفلسطينيون بتخاذلهم وتفرقهم أو بتحالف الأنظمة العربية ضدهم فأخشى أن يدخل العرب عهد جمود وخلط فكري يماثل وضع شعوب أميركا اللاتينية».

* *

كتبت هذه السطور دون اعتبار لما يكون وراء هذا الاعتراض من غرض سياسي خاص بدول وفئات الشرق. كل أحكام بعضنا على البعض مسورة بهذا الشرط: في حدود ما نتصور!

كنت دائماً أشعر أن ما نقوله نحن أبناء المغرب عن القضية الفلسطينية، وعن الشرق عموماً، لا ينطبق بالضرورة على الواقع بل يحيد عنه حتماً. لكن هذا لا يعني أن المشرقي أقدر، بسبب القرب، على رصد وتأويل ما يحيط به، وحتى الفلسطيني فإنه قد يتعامى حتى لا يقهره اليأس. وربما هذا هو سرّ تعلقه بعبد الناصر، بالبطل المحرّر.

يبقى أن حقنا في الكلام محدود. يأتي وقت يجب أن نترك القضية لأصحابها، يقولون فيها ويفعلون بها ما يشاؤون. التجربة

الفلسطينية بالنسبة إلينا مجرد موضوع للتأمل والعبرة.

* *

سبتمبر

يكفي أن تسافر من لوس أنجليس إلى سان فرانسيسكو لتدرك أن الصراع بين القديم والحديث لا ينتهي أبداً. لا يوجد بلد حديث تماماً ولا آخر تقليدي في كل مظاهره.

وعندما تعود إلى المغرب بعد غياب طويل ترى الأمر بكيفية أوضح. ما يلفت النظر ـ ربما لأول مرة ـ ليس أن المجتمع المغربي تقليدي وأنه راضٍ على حاله، بل ما يتطلبه تركيز التقليد من مجهود. لم تعد تكفي المدرسة ولا الأسرة ولا حتى الزوايا ـ ما بقي منها ـ لترسيخ الذهنية التقليدية، بل لم يعد من شغل للدولة بكل دواليبها سوى دعم التقليد وتبريره. لو كان قوياً، لو كان فطرياً، لو كان جزءاً من التركبة المغربية، كما يُقال في الدوائر الرسمية وغيرها، هل كان يحتاج إلى هذا النشاط الشاق المتواصل؟

لنترك، مؤقتاً، التقاليد الأنثروبولوجية ولنحاول رصد التقليد كبرنامج سياسي.

بعبارة أخرى، بعبارة تقليدية، ما علاقة التقاليد بسياسة العودة على الأثر، استحضار الأصل بإلغاء التطور الذي يبدو انحرافاً؟ ما هي الدوافع؟ الأهداف؟ من المسؤول؟ المستفيد؟ الضحية؟

بهذه الصيغة سأقدم خلاصة **تاريخ المغرب** للمشاركين في مؤتمر لوفان.

* *

من حسن الحظ أن يصدر **تاريخ المغرب** في الوقت الذي تنجز فيه ترجمة **الإيديولوجيا**... إلى العربية.

حضارة المطبوع غير حضارة المخطوط. أتيقن من هذا وأنا أطالع **تاريخ المغرب** مطبوعاً. أقرأه كما لو كان بقلم غيري. أفهم أن «الرواية» لا تعادل أبداً «الدراية».

* *

أكتوبر

طلبت العودة إلى الجامعة ووافق العميد الجديد، على مضض فيما أعتقد.

أتذكر حادثة فندق باليما بعد عودتنا مباشرة من أميركا. كنت جالساً مع لطيفة في حديقة الفندق وإذا به يطل ويتقدم منشغلاً كمن جاء متأخراً إلى موعد. هل رآنا أم لا؟ لا أدري. لكن عندما ناديت عليه بالاسم التفت وقصدنا والغضب بادٍ على وجهه. مدّ يده إلينا ثم ابتعد بسرعة كما لو كان قد قابلنا البارحة.

لم أكن أبداً من أصدقائه بل أبديت له في بعض المناسبات شيئاً من الاحتقار. لما عيّن عميداً كان فون غرونباوم قد سألني عن مساره الجامعي. أجبته على الفور: إنه شابٌ. فعقب: آه، الأمور عندكم بالمقلوب، يكون الإنسان عميداً ثم أستاذاً ليتفرغ إلى التأليف.. معقول.

* *

نوفمبر 7

لوڤان جامعة كاثوليكية عريقة لعبت دوراً حاسماً في ردّ المدّ البروتستاني. تستعمل اللغة الفرنسية مع أنها توجد في منطقة فلامانية. لكن الحقد بين الطائفتين، الوالون والفلامان، وصل إلى حدّ أن هؤلاء طالبوا بنقلها إلى منطقة فرانكوفونية. وهي الآن تستعدّ للرحيل بعد عدة قرون من تأسيسها.

تلمس العداء بين الطائفتين في كل ظواهر الحياة. توقف أحد المارّة ليرشدك إلى عنوان. فإذا خاطبته بالفرنسية رفض الإجابة أو اكتفى بالإشارة. لا تقل إن التعليم يدعو إلى التسامح ولا إلى الرخاء الاقتصادي. بل قد يكون العكس هو الصحيح في الغالب. ربما كان التعايش السلمي من مخلفات أو من مؤشرات الركود.

ملاحظة تلائم الظرف إذ أنوي الكلام على **التقليد والتقلدة**، الوفاء للتقاليد والإصرار على إحيائها بعد تلاشيها.

* *

منسق مناظرة لوڤان هو أنور عبد الملك، رحّب بي وهنّأني على صدور **تاريخ المغرب** ثم قدّمني لحسن حنفي وزوجته. يقولون جميعاً إن القاهرة «بتغلي» وإن طلاب الجامعة يقودون الثورة بحماس عجيب. يتكلم أنور وكأنه يستحضر حوادث 1948 كما يصوّرها، بشيء من الرومانسية، اليسار المصري. أهي وسيلة لنزع المبادرة من المقاومة الفلسطينية؟ رأيي أن مصر تريد، في العمق، مهادنة إسرائيل.

* *

ركّزت في عرضي على فكرة تبدو لي بديهية، سيما في الظروف الحالية، وهي أن الانغلاق عملية مزدوجة. لا يحصل تقهقر فكري وثقافي في مجتمع ما إلاّ عندما توصد أبواب الأمل في وجه النخبة الحاكمة. هذا الترابط بين الحصار والانحصار أجده مكتوباً بحروف بارزة في تاريخ المغرب من نهاية القرن 15 إلى بداية القرن 20.

طلب مني مالكولم كر أن أوضح له الفكرة رغم أنه عاش في الشرق ودرس أعمال محمد عبده ورشيد رضا. قلت: فيما بعد.

قال: متى إن لم يكن اليوم؟ ترددت لأني كنت مقتنعاً بأنه إذا لم يدرك المعنى من تلقاء نفسه فإنه لن يدركه أبداً.

لا بدّ للنخبة أن تنشط، فإن لم يكن في اتجاه الخارج، أي نحو المستقبل، ففي اتجاه الداخل، أي نحو الماضي [الثورة/إبداع أو التقليد/إحياء].

هذه فكرة قد يفهمها بعض الأوروبيين، الجنوبيين بخاصة، لكنها تبدو سفسطائية للأميركان لأن تاريخهم - القصير - كان ولا يزال مفتوحاً.

* *

نوفمبر 8، بروكسل

جولة في المتحف الوطني واكتشاف الرسام روني ماغريت. لم أتأثر بألوان فنان مثلما تأثرت بأعماله التي تمزج الحلم والعقل. لوحاته، ملصقات في الواقع، تمثّل أحلام رجل رصين متعقل طلّق الرومانسية بعد، أو قبل، أن يعرفها. أثر فيّ لأنه أبعد ما يكون عن ميلنا الغريزي إلى دغدغة العواطف. لا أتصوره يضحك أو يبكي. قد يمزح وهو مقطّب.

في المتحف نفسه يوجد عرض عن حضارة هنود المايا، حضارة الخوف والوسواس الدائم.. الفن كتجربة لا كتعبير، يصوّر حالة نفسانية ولا يتجاوزها.

أستطيع أن أعلّق على هذا المعرض المخيف بما قلته عن اليأس التاريخي كأساس أنثروبولوجي لترسيخ التقليد. «الجمود على الموجود» عبارة قالها محمد عبده دون أن يدرك خطورتها لانه كان لا يزال يأمل..

* *

نوفمبر 11، باريس

شاهدت على الشاشة الصغيرة الحفل الرهيب الذي أقيم بكاتدرائية باريس ترحماً على روح الجنرال ديغول. أوفد المغرب ولي العهد، رغم التوتر الذي شاب العلاقات الفرنسية المغربية بعد حادث اختطاف المهدي بن بركة. كلّف ميشل جوبر، المولود بالمغرب، بمرافقة الأمير الطفل الذي بدا بجلبابه الأبيض كأحد أبناء امبراطور الصين أو السيام في أفلام هوليوود.

* *

نوفمبر 20، الرباط

تقول بطاقة إبراهيم بوعلو إن مجلّة **أقلام** تعود إلى الصدور وإنها نشرت في أعداد ثلاثة **شيخ الطريقة**. أعطيت هذا العنوان لمسرحية هنري دي مونترلان التي شرعت في ترجمتها سنة 1961 عندما كنت أحقق نص رسالة ابن خلدون، **شفاء السائل**، المتعلقة بالتصوف ودور الشيخ في تربية المريد. ما دعاني إلى ترجمة هذه المسرحية هو ما لاحظته من اختلاف بين دور **الزوايا** في الغرب والرهبانيات في إسبانيا مع أن الأصل واحد، أعني العزلة والتقشف والتضحية في سبيل الدعوة... دوافع نفسانية متشابهة ونتائج اجتماعية مختلفة أشد ما يكون الاختلاف. لماذا؟

نقطة في غاية الدقة: نقول إن المجتمع يحور أو يعدّل أو يلوّن العقيدة، عكس النظرية السائدة، لكن أولا يحتوي المجتمع على مؤثرات من عقيدة سابقة؟ بمعنى آخر لكي يؤثر المجتمع في العقيدة لا بدّ من أن تسمح بذلك العقيدة القائمة.

مرة أخرى التقليد أو الموروث أو التراث ليس جامداً، هو في الواقع مركّب تراكم من التقاليد، كل واحد يؤثر في المجتمع وفي

نفسانية الفرد بكيفية خاصة وحسب وتيرة متميّزة. لذا، سياسة التقليد، سياسة المحافظة على الموروث، هي نفسها فرز واختيار. التقليد حقاً هو ما في ذهن المقلّد، مخطط لسياسة التقليد ولا يوجد مسبقاً في لوح محفوظ..

لولا هذا الأمر لما فهمنا النزاعات الحادة التي تفصل بين أنصار التقليد. ما يجعل أحداً ينتصر على خصومه هو القدرة على التنويم والتخدير، الذي هو نوع من الاغتيال.

يطلب منّي بوعلّو أن أكتب في أحد المواضيع: صراع الطبقات في البلدان المتخلفة، الواقع الثوري في البلاد العربية، هل توجد بورجوازية مغربية؟ أسئلة تقليدية، الأجوبة متضمنة فيها.

* *

تعليقات كثيرة على **تاريخ المغرب**، كما لو كان أصحابها، أكثرهم من الفرنسيين، يستغربون أن يستطيع كاتب مغربي أن يتكلم على نفسه وعلى بلده دون أن يسخط ويلعن!.

* *

1971

يناير 20، الرباط

لماذا غادرت أميركا؟

أطرح السؤال لأن العمل هنا متوقف. إضراب الطلبة يكاد يكون متّصلاً. يعبّر عن استياء عميق، لكن من يدعو إليه أو يشجعه أو يبرّره، ماذا يقصد؟ هل يعتقد أن إضراب الجامعات أو الثانويات يزعج الحكومة أو يجعل النظام يستمع إلى مطالب الأحزاب؟ قد يُقال: ما البديل؟ انعدام البديل هو المشكل وليس من مسؤولية الحُكام وحدهم.. وصمة في جبين المجتمع ودليل على عجز في التصور والابتكار.

أقارن بين أزمتين وسلوكين. في الدولة المتقدمة يفكر الجميع في مصير الإنتاج. يعبّر المرء عن رأيه وفي الوقت نفسه يراعي مصلحة الجميع لأنه جزء من كل، في بلادنا الجزء يعتبر أنه الكل، فإذا لم يسمع له، وفي الحين، يتمنى أن تحلّ الكارثة. محزن حقاً أن يرضى الجميع بالإضراب، الطالب والأستاذ والمسؤول الحكومي..

أعود وأتساءل: لماذا غادرت أميركا؟ لماذا لم أستطع المكوث

1971

يناير 20، الرباط

لماذا غادرت أميركا؟

أطرح السؤال لأن العمل هنا متوقف. إضراب الطلبة يكاد يكون متّصلاً. يعبّر عن استياء عميق، لكن من يدعو إليه أو يشجعه أو يبرّره، ماذا يقصد؟ هل يعتقد أن إضراب الجامعات أو الثانويات يزعج الحكومة أو يجعل النظام يستمع إلى مطالب الأحزاب؟ قد يُقال: ما البديل؟ انعدام البديل هو المشكل وليس من مسؤولية الحُكام وحدهم. . وصمة في جبين المجتمع ودليل على عجز في التصور والابتكار.

أقارن بين أزمتين وسلوكين. في الدولة المتقدمة يفكر الجميع في مصير الإنتاج. يعبّر المرء عن رأيه وفي الوقت نفسه يراعي مصلحة الجميع لأنه جزء من كل، في بلادنا الجزء يعتبر أنه الكل، فإذا لم يسمع له، وفي الحين، يتمنى أن تحلّ الكارثة. محزن حقاً أن يرضى الجميع بالإضراب، الطالب والأستاذ والمسؤول الحكومي. .

أعود وأتساءل: لماذا غادرت أميركا؟ لماذا لم أستطع المكوث

في أميركا وبالذات في كاليفورنيا؟ شعرت أن المكوث فيها يعني طلاقاً لا رجعة فيه. توجد بالطبع رحلات شارتر تنقل كل بداية صيف عدداً كبيراً من الأساتذة إلى أوروبا. لكنني شاهدت حالة المشارقة ـ من أقباط وبهائيين ويهود ـ الذين استوطنوا كاليفورنيا ونسوا وطنهم الأصلي. المكوث هناك يعني بالضبط الكتابة بالإنجليزية والابتعاد التدريجي عن مشكلاتنا. يحين وقت نقول فيه تلقائياً: نحن الأميركيين..

* *

عدت إلى المغرب وأستفيد من إضراب الطلبة. آتي من البيضاء لألقي درساً فلا أجد من يسمع لي فأذهب إلى الخزانة العامّة أنقّب عن مقالات الزعماء (بلا فريج، بن بركة، الوزاني..) عندما كانوا شباناً يعشقون الشعر ويحلمون بالماضي.

* *

يطلب مني ماسبرو أن أعمل على رفع المنع عن الكتابين: **الإيديولوجيا**.. **وتاريخ المغرب**. يرى بالطبع المصلحة الاقتصادية. لا أجيبه لأنني أعتقد أن من حقي أن أكتب وأنشر وأن من حق الحُكّام أن يمنعوا التوزيع إذا رأوا فيه خطراً على أمن البلاد واستقرارها. هل أستطيع أن أضمن لهم أن لا أثر بتاتاً لما أكتب؟ لماذا أكتب إذن؟

* *

يناير 22، البيضاء

يقول رياض رعد:

«كنّا نتوجس مؤاخذتك لنا بسبب الصيغة المعدّلة بصورة طفيفة جدّاً للفقرة التي أضفتها. فإذا كان الأمر كذلك فإننا

نكرّر من جديد اعتذارنا لك إذ لم نكن مسؤولين عنه سوى مسؤولية جزئية. وذلك أن هذه الصيغة كانت من صنع أحد الأصدقاء في وقت كنّا غائبين عن الدار وعن لبنان. وقد صاغها اعتقاداً منه بأن هذا لا يناقض تقييمك من جهة ولأن معطيات الواقع المباشر تؤكدها من جهة أخرى».

لا أؤاخذك، يا صديقي، بسبب تعديل فقرة ولا حتى فقرات كثيرة لأن ذلك لا يغيّر من الواقع شيئاً. يذكرني الحادث بالمناقشات الماراتونية التي أجريناها زنقة سربانت في باريس وفي مدينة أزور حول إلى أو حتى. أثبتنا بها أننا ورثة فقهاء الإسلام والرادكاليين الفرنسيين. صاحب الأمر يعمل والمعارض يحاسَب على كلمة: هذه هي مأساة السياسة. يقول الأمير لخصمه: عارض، عارض واتركني آمر وعندما أسأم أو أتعب، عندها وعندها فقط. . .

* *

كلما كتبت عن فلسطين شعرت بالتطفل. أول ما تجرأت على الموضوع كان ذلك بإيعاز من المعنيين. قالوا: إنك تعرف منطقهم فاكتب بما يقنعهم. كتبت بما يقنعني أنا دون أن أسأل: هل هذا ما يفكّر به فلسطيني اليوم أو ما فكّر به فلسطيني أمس.

لا داعي إذن إلى أي تعديل لأني لا أدّعي أني «أحكي فلسطيني». أتضايق ممن يفعل ذلك من المغاربة. يخدع نفسه وغيره.

«أنت هناك وأنا هنا» وغداً نلتقي.

* *

فبراير 10

يتّضح كل يوم أكثر فأكثر أن إنقسام الحركة الوطنية كان كارثة

بالنسبة للجميع. هل يمكن لمّ الشمل من جديد؟

أفكر بهذا وأنا أحاور السيد إبراهيم الكتاني في مكتبه في قسم الوثائق فيما تطرق سمعنا صيحات عبد السلام الفاسي الغاضب باستمرار على الناس وعلى نفسه.

آن الأوان أن أحدّد الأسئلة التي يجب طرحها على الزعماء التاريخيين وعلى بعض الأتباع. وقبل ذلك جاء الوقت لأرحل إلى الرباط حتى أتمكن من إتمام الدراسة التي تبرر وحدها، في خاتمة المطاف، مغادرتي أميركا.

* *

أفهم لماذا أحبّ عدد من الأجانب، سيما الفرنسيين، شخصية علال الفاسي. يرون فيه ما لا يراه المغاربة، رمز المثقف المؤمن بقيمة وفعالية الفكر. إنه يحب ويحترم، بصفته عربياً مسلماً، الكتاب والكاتب، بل يعتقد أن القول وجه من الإبداع. لا يهمهم مضمون ما يقول، التقليدي الإسلامي الوطني، ما يهمّهم هو أنه يؤمن بفعالية الكلمة كما آمن بها فولتير وروبسبيير وزولا..

قال لي مرة جاك برك: هل لاحظت بريق عينيه؟ لو عاش في القرن الماضي لكان شيخ زاوية.

أرى هذه الخاصية وقد تكون سبب انتصاره في صراعه الطويل ضد خصومه، لكن ما يلفت نظري اليوم هو حرصه على أن «يعود كل ولد إلى دار أبيه». هل ينجح؟

لو لم يكن ذلك الرجل لما استمع بهدوء لما قلته بحضوره، إن الديموقراطية غير الشورى، إن الدولة العصرية في خدمة المخلوق لا الخالق، إن النظام العصري يسوّي بين العالم والجاهل، إلخ. لو لم يكن ذلك الرجل لغضب وقال: هذه زندقة.. خشية أن يلحقه

شيء من استياء الحاضرين. بدأ إبراهيم الكتاني يحتج قبل أن يأمره علال بالسكوت.

* *

يعلم علال أن **تاريخ المغرب** أغضب الكثيرين، داخل وخارج الحكومة. يعلم أن المثقفين المغاربة لاذوا بالصمت كما فعلوا من قبل عند صدور **الإيديولوجيا** ومع ذلك، أو بسبب ذلك، ورغم مكانته، اقترح على عبد الكريم غلاب، أن يقدم الكتاب في إطار أنشطة جمعية كُتّاب المغرب.

زعيم وأستاذ ويعتبر نفسه أحد أعضاء الجمعية: درس وأي درس لنا جميعاً!

لا يهمّ كيف قرأ الكتاب، كيف يؤوله أو يوظفه. المهم هو أنه يثبت بتصرفه هذا أن من يحترم الفكر يقاومه بالفكر لا بشيء آخر وأن كل مفكّر مشكور.

* *

15 فبراير

الاستمارة التي أنوي اعتمادها لدى استجواب الزعماء، وعلى رأسهم علال، يجب أن تدعم بدراسة عن نفسانية «جموعية». بدونها سنبقى في مستوى الأفكار ونقول إن الحركة كانت إصلاحية دينية (كسابقاتها) أو إنها كانت أداة تعاون مع، واستفادة من، المستعمر (جماعة عبد الحي الكتاني).

لكن الفكرة نفسها قد تؤدي إلى نتائج غير متوقعة إذا تغيّرت الظروف. تحليل النسق الفكري، مهما تعمق، يظل على سطح التاريخ.

يجب أن تكون الاستمارة منفذاً لتلك النفسانية الجموعية.

يتحكم الفرد فيما يقول ويكتب في وقت ما لكنه يضطرّ أن يكشف عن بعض خفايا نفسه عندما يستنطق طوال أيام وفي مسائل متنوعة. هذا لا يمنع بالطبع مواصلة التحليل اللغوي (دراسة الألفاظ والشعارات والمفاهيم) أو التحليل الاجتماعي (من ينخرط؟ من يقود؟ من يموّل؟). بدون هذا التنوع في المقاربة لا يمكن تجاوز الصعوبة التي اعترضت الباحثين منذ أربعين سنة: ما هو الجديد في أقوال الدكالي أو ابن باديس أو محمد عبده؟

* *

أشرفت الحناطي على الانقراض بعد الحرب. انتبهت الإدارة الفرنسية إلى ذلك فاستدعت ماسينيون ليقوم بمسح شامل ثم أوكلت معالجة القضية إلى بروسبر ريكار وبعده إلى جاك برك. كانت على حق إذ فهمت أن الصناع وحدهم أقوياء بتنظيمهم الذي يمثّل رأسمالهم المعنوي. كانوا يملكون، بالموازاة مع الزوايا، قنوات اتصال أقوى من قنوات المخزن، سيما بعد أن خضع لحماية الأجانب.

بين 1920 و1930 وقع انحلال اقتصادي تلاه فراغ فكري ناتج عن الحملة السلفية. أصبح الفرد، من جرّاء هذا التفكك، يحنّ إلى الانضمام إلى أي تكتّل يعترض طريقه. لم تكن الحرف أساس أو ركيزة أو مرتع الوطنية بل انحلالها هو الذي هيّأ الفرد نفسانياً للموالاة.

صحيح أن السلفية مهّدت الطريق للوطنية لكن بكيفية ملتوية إذ حرّرت الفرد بصفة مباغتة. فراح ذلك الفرد المذهول يبحث عن زعيم. من هنا سرعة التعبئة وعمق التعلّق.

* *

فبراير 20

استنطقت علال طويلاً.

طلب مني أن أعيره كتباً فلسفية حديثة الصدور. عرضت عليه كتاب ألتوسر عن ماركس وكتاب فوكو عن أصول المعرفة.

أتصور أنه متأزم. يدرك أن الحكم يستغل دعوته لكنه يخشى أن ينزلق الشباب نحو اليأس والردة إذ لا يتمثّل إيماناً بدون عبادة. بقي في نفسه شيء من معاداة أهل الباطن. يتألم ولا يقبل «التوقف» أو «الإرجاء» لأنه رجل عمل وتعبئة.

* *

مارس 5

يقول ياسين الحافظ في رسالة:

«في رأيي إن سبب عدم الإقدام على الكتاب يعود بالأحرى إلى «تهيب» الكُتّاب وشعورهم بضرب من عدم الثقة بجدّية ما سيكتبون عن مؤلّف ذي مستوى كالإيديولوجيا..».

أجيب: لا تيأس يا أخي. عندما يتعرض له الفرنسيون بالنقد سيجترئ عليه الكثرون بالاعتماد على ردود الخصم. ويكون في ذلك السلوك إثباتاً لما جاء في الكتاب من أن العرب يجيبون دائماً عن أسئلة يطرحها الغرب.

* *

مارس 6

تعود بنا مراسيم البيعة، كما تنقلها التلفزة، إلى عهد كان تجديدها كل سنة ضرورياً إذ كان نقضها وارداً في أية لحظة. عمل

المؤرخون الرسميون على إحيائها وإعطائها هالة تقديس، تبهر الناظر، سيما الأجنبي، كشريط سينما سكوب. يحاول البعض أن يضعها في مستوى الحفلات الأوروبية مع أن الفرق واضح. يهدف الحفل في إنجلترا مثلاً إلى إبراز الاستمرارية التاريخية وينحصر مغزى المشهد فيه، أما البيعة عندنا فإنها ترمي إلى إحكام روابط الولاء بين الرعية والراعي دون الخضوع لأية مسطرة قانونية.

سؤالي إلى زعماء الوطنية: هل كانوا يتوقعون هذا الانبعاث؟ هل حصل نتيجة خطأ تاكتيكي من جانبهم أم كان مضمناً في الدعوة الوطنية ذاتها؟

* *

ابتداءاً من 1934 استرجع القصر نفوذه وفقدت الإقامة العامة جاذبيتها. هل كان السبب عدول الفرنسيين عن سياسة ليوطي؟ كان هذا الأخير يتظاهر باحترام المخزن فكسب بذلك ولاء قسم كبير من النخبة التقليدية. ثم جاء عهد الساسة الراديكاليين فأهملوا أبناء تلك النخبة، أقفلوا في وجههم باب الأمل، في الوقت الذي تكاثر فيه عدد النازحين إلى المغرب من فرنسا وسائر البلدان الأوروبية بعد تفاقم الأزمة الاجتماعية والاقتصادية.

حسب هذا التحليل يبدو أن هناك فجوة كبيرة بين الحركة السلفية وثورة عبد الكريم الخطابي من جهة والحركة الوطنية من جهة ثانية. تكونت الوطنية المغربية في أحضان المخزن وبقيت دائماً تحت رعايته. بعبارة أدق كانت «تتموضع»، كما يُقال هذه الأيام، بالنسبة إليه. لا عجب إذن أن يبدأ علال الفاسي نشاطه بنشر **مفاخر العلويين**، أي أنه كان يسير في خطى عبد الرحمان بن زيدان. ولا عجب كذلك أن يحظى، رغم صغر سنه، باهتمام الجميع. لو

أهمل لنسي في الحين. لا نفهم التطورات اللاحقة إلاّ بالنظر إلى أحوال المخزن، مهما بدا لنا ذلك المخزن ضعيفاً وعاجزاً. من كان يسبح في بحر المخزن، بكيفية ما، يلفت النظر، يؤثر بقوله وفعله. أما من رام العمل بعيداً عنه، من لم يعبّر مسبقاً عن ولائه، من لم يتكلم بلسانه، ظل مغموراً أو رمي بالعقوق. والخطير في الأمر أن من حاد عن الطريق السوي، من نطق بكلام «منكر» أوهم أنه باتصال مع الإدارة الفرنسية حتى وإن هاجمها وطالب بإصلاحها. بما أنه كسر الإجماع فإن نشاطه يبدو، بل يكون في الحقيقة، سلبياً. يلعب رغماً عنه دوراً سلبياً لأنه يفتقد المبادرة السياسية، من يقول اليوم: كان خصوم علال على حق.. آه، لو أنصتنا إليهم، يجهل كل شيء عن مسار التاريخ.

* *

10 مارس

إضراب الطلبة مستمر. أذهب إلى الخزانة العامة لأقرأ، في مجلات الثلاثينيات، ما كان ينشره الشبّان الذين كتب لهم أن يقودوا الحركة الوطنية: مقالات بسيطة عن التربية وتقدم العلوم وهموم الشباب وآفات المجتمع والأدب الأندلسي والطرب الشعبي، إلخ. لا تفهم أغراضها إلاّ على ضوء توضيحات المعاصرين مثل إبراهيم الكتاني وعبد الرحمان الفاسي وأحمد بناني. شباب الأمس كان متحمساً للثقافة، أياً كانت، وشباب اليوم يدعو بحزم إلى مقاطعة الدراسة!.

* *

لا يوجد زعيم وطني ليس له قريب داخل المخزن. سؤال: هل هو بمثابة الابن الأصغر؟ الفرع الفقير بالنسبة للفرع الغني من

الأسرة نفسها؟ ابن الخادم بالنسبة لابن الحرّة؟

هذا الجانب السوسيولوجي الضيق (موقع الفرد في الأسرة والأسرة في المدينة والمدينة في البلد والبلد في مجموع الأمة) هو الذي يحدّد توظيف الأفكار والشعارات. إذا أهملناه لا نستطيع أن نفهم السرّ في الثنائيات: شعيب الدكالي والعربي العلوي، علال الفاسي ومحمد الوزاني، أحمد بلافريج والمكي الناصري، إلخ، إلخ. تحليل المعلومات المستخرجة من الاستمارات لا يكفي، لا بدّ من وضعها في صورة أعمّ.

* *

كان آباء وأساتذة من أصبحوا زعماء يتابعون أحداث المشرق بشغف يفوق متابعتهم لما يقع في المغرب. هذه ازدواجية فكرية وشعورية تستحق أن نقف عندها طويلاً، سيما إذا رأيناها في إطارها الواقعي أي في ظل حياة الأسرة. كان الكبار يبررون باستمرار التعاون مع إدارة الحماية وفي الوقت نفسه يتأسفون لما يحدث للإخوان العرب والمسلمين في المشرق. نلاحظ الازدواجية نفسها إزاء عبد الكريم الخطابي. رأوا فيه البطل الإسلامي والروكّي. صفّقوا لانتصاراته لأنه أهان النصارى وتنفسوا الصعداء عند استسلامه لأنه كان يهدد أمن ووحدة البلاد.

ثم ضاق الأبناء من هذا الانفصام فانقلبوا إلى وطنيين، مهما يكن مضمون الكلمة. وهؤلاء الأبناء وحدهم نشطوا وأثروا في مسيرة المغرب. أما الآخرون، الذين نشأوا في أحضان سياسة ما بعد ليوطي، سياسة الراديكاليين الفرنسيين التي نجحت أيما نجاح في تونس، فلم نسمع عنهم شيئاً إلى غاية 1944

* *

يفهم من كلام علال أن القرويين عرفت في نهاية حكم الحسن الأول وأثناء عهد عبد العزيز نهضة أدبية على قدر المغرب ومستوى ثقافته العربية. نعتبر كُتّاب وعلماء تلك الحقبة تقليديين فيما يرون هم أنهم مجدّدون لأنهم حادوا عن أسلوب الفقهاء. وعلال نفسه الذي نعامله اليوم كفقيه ومفكر كان في بدايته يعتبر شاعراً وأديباً. حكمنا إذن على ابن المواز وأحمد البلغيثي والعربي العلوي مغاير لحكم معاصريهم. وهذا الفارق يدلّ على مدى تأخر المغرب رغم أنه كان البلد الوحيد الذي استعمل اللغة العربية الفصحى، والأسلوب الأندلسي، في مراسلاته الرسمية إلى غاية القرن التاسع عشر.

* *

رحلة إلى نيويورك

توصلت بدعوة للمشاركة في ندوة ينظّمها الأستاذ جون بادو من جامعة كولومبيا. والأستاذ بادو هذا كان سفير جون كنيدي لدى جمال عبد الناصر. استدعى كل من يهتمّ بشؤون المغرب العربي لاستشراف المستقبل: هل تظل المنطقة موالية للغرب، ولأوروبا بالذات، أم تقترب من المشرق لتنتهج سياسة معادية.

فضلت أن أتطرق لموضوع التعريب لأنه محور النقاش الدائر حالياً في البلاد ولأنه يعكس تناقضات الموقف الرسمي. لا أظن أن الحاضرين فهموا القصد. كانوا ينتظرون مني خطاباً سياسياً صريحاً كالذي فاه به جون وتربري الذي ردّد كلام ريمي لوفو المستشار السابق في وزارة الداخلية المغربية. هو الذي ركّز في الأذهان أن المغرب، بسبب تأخره السياسي والاجتماعي، لا يمكن أن يحكم إلاّ بسياسة لوي ـ فيليب. وكان هذا أيضاً رأي موريس ديفرجه،

أستاذ الحسن الثاني. ما ينقص هؤلاء «الخبراء» هو البعد التاريخي. قد يقرر الباحث حقيقة التأخر لكن السياسي ملزم بافتراض إمكانية الاستدراك. وإلا ما هو دوره؟ هذا هو محور كتاب **الإيديولوجيا**. . يقول لوفو وأمثال: المجتمع المغربي لا يتحمل أكثر من كذا. ونحن نجيب: هلا طبقتم القاعدة على نابليون وديغول ولنكولن وروزفلت؟ أي فرق إذن بين السياسي العادي المستفيد من الجهل والركود وبين المصلح العبقري؟ لماذا تتكلم أميركا باستمرار على غريزة «القيادة» (**ليدرشپ**) وفرنسا عن «الرؤيا» (**فيزيون**)؟ قلت هذا في تعقيبي على مداخلة وتربري الذي بدا عليه الاضطراب.

حضر الجلسة ممثل عن السفارة المغربية بواشنطن، كاتب قصص صبيانية.

* *

قلت إن حركة التعريب عطلت في المغرب وإن اللغة الفرنسية تغزو كل يوم مواقع جديدة، بالرغم من الوعود التي قطعتها الحركة الوطنية على نفسها قبل الاستقلال. وذلك بسبب التناقضات الاجتماعية. ليس التعارض بين أهداف الدولة من جهة ومصالح الفئات المتصارعة من جهة ثانية ـ كان هذا ما يميّز الوضع الاستعماري ـ بل يوجد التناقض داخل الدولة وداخل كل واحدة من الفئات المتصارعة. من هنا يأتي الغموض واللبس، الخداع وازدواجية الخطاب. كان المنطق يفرض أن تحذو الدولة المغربية حذو الدول الإفريقية وتتخذ الفرنسية كلغة رسمية. بذلك كانت تتوافق أهداف الجميع. ويصبح المغرب مثل إيران: دولة إسلامية تلعب فيه اللغة العربية دوراً ثقافياً متميزاً دون أن تكون اللغة المستعملة في دوائر الحكم (الكلام بالطبع على الفصحى).

لم يفهم الحاضرون هذه المقارنة مع إيران لأنهم يجهلون واقع المغرب.

لكن هذا الحل المنطقي لم يطبق لأنه يفقد السلطة القائمة شرعيتها.

* *

جامعة كولومبيا غنية والأستاذ جون بادو معروف بين أوساط المموّلين. فاستطاع أن يستضيفنا في فندق پلازا الفخم المطل على حديقة سنترال پارك.

الفندق منظم على الطريقة الجرمانية. والجالية اليهودية، الغنية النشيطة، التي توجه جريدة **التايمس**، التي تملأ أروقة كارنيجي هول، التي زودت روزفلت ثم كنيدي بالمال وبالأفكار، لا تزال وفية لجذورها الجرمانية، رغم هتلر ورغم ولائها لدولة إسرائيل. هذا ما أحدّث به نفسي وأنا جالس في اللوبي عند الساعة الخامسة، ساعة المواعد والشاي والطرب والرقص في كل فنادق المجال الجرماني، في انتظار أحد أقرباء لطيفة، الرسام الذي هاجر إلى نيويورك من باريس وقبل ذلك من ڤيينا.

* *

أبريل 3

أراجع مخطوط **الغربة** كما صفّفه مصطفى اعمار. وتعود بي الذاكرة إلى صيف 1960 في القاهرة. أرى الموظف المصري يرقن ما أفتي عليه إذ لا يستطيع قراءة الخط المغربي ويقول من حين لآخر: ماشي ـ ماشي.. يعني أن الحوار مسترسل. واستحضر مرسي في مقهى السفراء، بعد أن عيّن في الديوان الملكي، يحكي لي ما شاهده في فيلم التقط إبان غزو إسرائيل لسيناء وكيف كان

الجنود المصريون يفرون بعد أن ألقت عليهم الطائرات قنابل لم تستعمل أبداً من قبل. أعارضه بما كنت قرأت في صحف المشرق فيرذ: خلّيني من الخوا الخاوي..

هوّة وأية هوّة!.

* *

أبريل 10

كان رؤساء خلايا الحزب، حسب ما يرويه الشهود، إما شرفاء وإما فقهاء، خاصة في المدن الصغرى، ويتمّ الاتصال بينهم بواسطة التجار. في كل مركز برز اسم شخص (بنونة في تطوان، كنون في طنجة، غازي في مكناس، إلخ..) لم تدخل مراكش في المعركة إلاّ بعد أن استقر بها المختار السوسي.

النمط إذن هو الزاوية، لكن هذا لا يحسم القضية. هل الحزب زاوية جديدة أم أن الزاوية كانت فقط شكلاً تنظيمياً لمحتوى اجتماعي جديد؟ ما يستحق التدقيق هو أن الجديد قد يستعير ثوب القديم وأن القديم قد يبلع ويهضم الجديد. لا يكفي أن نقول: هذه الخلية في هذا المكان وهذا الزمن تصرفت تصرف زاوية. كل تبسيط يشوّه التاريخ. وإلاّ جاز أن نقول إن كل الأحزاب الثورية في أوروبا أحيت شعائر الكنيسة الأولى.

* *

قيل إن نشاط الاستعمار، أي التجهيز العصري الذي رافقه، هو الذي مهّد الاتصال بين رؤساء الخلايا. الواقع هو أن الطرق المعبّدة والسكك الحديدية جاءت مطابقة للمسالك التقليدية: المحطات هي النزالات. كل ما جدّ هو اختزال مدة الرحلة، من 8 أيام بين مراكش وفاس مثلاً إلى يوم واحد. لكن بالمقابل تعدّدت الحواجز الإدارية.

لم تكن حرية التنقل مضمونة بالفعل إلاّ في الشريط الساحلي من القنيطرة إلى آسفي. كان الشمال معزولاً والجنوب خاضعاً للحكم العسكري والشرق موجهاً، عن قصد، نحو مستعمرة الجزائر. تسربت الأفكار الوطنية رغم وليس بسبب الوجود الاستعماري وحده.

* *

هذه الظروف الصعبة هي التي جعلت الحركة الوطنية تأخذ شكل انفجارات متباعدة (1930، 1934، 1937، 1944، 1951، 1954). ظل الوطنيون يمثّلون أقلية، تصفهم التقارير الفرنسية بالمشوشين المحترفين. والمعاصرون يعترفون بهذا الواقع إذ يتكلمون باستمرار عن كثرة الخونة والعملاء والمتعاونين والأذناب والمنافقين، عن حيرة الشعب وعن جو الرعب والفزع.. كل وطني بطل بمجرد أنه يعلن عن وطنيته!

هذا ما تراه العين، ما ترشح به الأرض ويدلّ على وجود مياه جوفية تفور من حين لآخر. ما هو ذلك النهر الخفي؟ تلك القوة الكامنة الرافضة للحضور الاستعماري والتي كانت الحركة الوطنية، بمعناها التقليدي، مجرد علامة على وجودها؟

نحن أمام سلسلة من الرموز: يرمز الحزب إلى الزاوية، الوطنية إلى المخزن، المخزن إلى الشرع، إلخ. من هنا السؤال العويص: هل نلمس من خلال الحركة الوطنية ما كان «مكبوتاً» طيلة قرون في نفسانية الفرد المغربي؟ إذا صحت الفرضية جاز القول إن ما ظهر من خلال الحركة الوطنية في ظل الاحتلال الأجنبي قد يعود إلى الضمور عند انتهاء ذلك الاحتلال. يتمّ الإجماع الوطني عند التقاء الحركة بالقوة الكامنة في تاريخ المغرب وينحلّ عند انفصال الأولى عن الثانية.

* *

أبريل 26

تلقيت دعوة من د. أحمد طالب الإبراهيمي لزيارة الجزائر بمناسبة صدور كتاب **تاريخ المغرب** الذي منع في المغرب كما منع قبله كتاب **الإيديولوجيا**. ! كما منعت مديرة مجلة **لاماليف**، جاكلين لغلام (زكية داود)، من نشر المقال عن التعريب وعن إحياء التقليد. قالت: إنهم لا يحبونك، تعني: لا يغفر لك عندهم أن تكون وطنياً قلباً وقالباً، المطلوب أن تكون موالياً لهم.

تساءلت مراراً عمّن يأخذ مبادرة المنع. عندما عرض **رجل الذكرى** على الطاهر زنيبر، رئيس تحرير **دعوة الحق**، قال: لا أفهم هذا الحوار فلا أنشره. وعندما عرض كتاب **الإيديولوجيا** على الرقابة قال المسؤول: لا أفهم ما يقصد فالحيطة تقضي أن أمنعه. وعندما صدر كتاب **تاريخ المغرب** عرضه وزير الإعلام على محمد باحنيني فكان الردّ سلبياً. وبصدد المقال عن التقليد قال وزير الإعلام الجديد لجاكلين معرضاً بي: لا يظننّ أنه خارج قبضتنا؟

* *

ماذا يروق القارئ الجزائري في كتابي؟ ألأني أنتقد بقوة كل الأساتذة الفرنسيين الذي عملوا في الجامعة وأرخوا باستمرار، لا للشعب الجزائري إذ كانوا ينفون وجوده، بل مما أنجزه الأجانب على أرض الجزائر. كتب ضدهم مؤلفون جزائريون لكن إما بترديد أقوال المؤرخين العرب القدامى ـ كما فعل توفيق المدني أو الميلي ـ وإما بصفة سجالية غير مقنعة كما فعل الساحلي. أما أنا فإني تعمدت أن أنظر إلى المغرب من الداخل فلم يظهر المغرب الأوسط أرضاً فراغاً بالنسبة للمغربين الأدنى (تونس) والأقصى. هل

كان الأَمر مقصوداً منذ بداية المشروع؟ لا أظن ذلك. كنت أشعر أن انتمائي للمغرب الأقصى، حيث تركّزت الامبراطوريات، يفرض عليّ إنصاف الآخرين. وقد أكونا قد ذهبت بعيداً في هذا الاتجاه.

* *

أبريل 27، الجزائر

دعاني الإبراهيمي إلى بيته. عرفني إلى زوجته اللبنانية وفتح لي مكتبته الزاخرة بما تركه والده الشيخ ثم أهداني نسخة موقعة من **عيون البصائر**.

يتشكّى، بصفته وزير الإعلام، من الصحافة المصرية. يقول إنها لا تذكر الجزائر إلاّ عند حدوث كوارث أو لترويج أخبار مشينة. أما الإصلاحات الجذرية، الاقتصادية والاجتماعية، فتتجاهلها عمداً حفاظاً على زعامة موهومة.

قال إن حزب الاستقلال ينهج سياسة مزدوجة إزاء الجزائر مذكراً بدفاع أبيه عن حقوق المغرب عندما كان في الجزائر وعندما حلّ بالقاهرة.

قال إن الحكومة اتخذت قراراً لم يسبق له مثيل وهو التخلّي عن إنتاج الخمور بقلع كل أشجار العنب. وبما أن فرنسا هي المسؤولة عن إدخال هذا النوع من الزراعة إلى أرض الجزائر فإنها مطالبة بالتعويض. وبالطبع لا تريد حكومة باريس الإصغاء إلى هذا المنطق. الواقع إن الإجراء نوقش مراراً في صفوف الأحرار الفرنسيين قبل استقلال الجزائر. وسبق لي أن سمعت الأستاذ روني ديمون (Dumont)، المتخصص في الاقتصاد الزراعي والمتعاطف مع ثوريي العالم الثالث، ينتقده بشدّة ويصفه بالغباوة.

* *

أبريل 29

حضرت حفلة عشاء في بيت الأستاذ محمد عزيز الحبابي الذي جاء إلى هنا، أستاذاً في الجامعة ومستشاراً في وزارة التربية، بعد أن أعفي من عمادة كلية الآداب بالرباط. استدعى عدداً كبيراً من المغاربة المقيمين بالجزائر، ضمنهم الصحفي محمد باهي الذي اقترح عليّ تعريب **تاريخ المغرب**.

يلح أساتذة وهران على أن أزورهم ولو يوماً واحداً كما يلح الإبراهيمي على أن أسافر إلى الجنوب لزيارة مدينة غرداية. رغم هذا وبعد اتصالي بالمغاربة المقيمين هنا لا أود أن أطيل المكوث في هذا البلد رغم أن هذه أول زيارة لي فيه.

* *

يقول الشاعر مالك حدّاد وهو يفتح باب الشرفة المطلة على ميناء الجزائر: منظر خلاّب، أليس كذلك؟

يروي أشياء كثيرة عن لوي أرغون وعن الندوة الصحفية التي عقدها في روما وأعلن فيها التحاقه بالقاهرة وبجبهة التحرير.

أتذكر المرأة البدينة الذميمة التي كانت لا تبرح مقهى **الفلور** والتي عاشت معه طيلة سنين وقدمته إلى أكبر كُتّاب فرنسا. كانت تتألم لأنه كان يدمن على الخمر. أتذكر الفتاة التي جاءت إلى الرباط، حزينة يائسة، تحمل رضيعاً تدّعي أنه ابن مالك الذي «هاجر الحبّ ليعتنق الثورة». كانت شقراء وضاءة وكنت أقول: عن قريب تذبل.

والآن هو في وطنه الجديد. قد كفّ عن المعاقرة، يشتغل في وزارة الثقافة، تسهر عليه فتاة جزائرية نحيفة أنيقة معرّبة. ردّته إلى

الدار وإلى الإيمان. ينظر إلى أنوار الميناء، إلى ما وراء الميناء، ويقول: الجزائر مدينة خلاّبة!

* *

أبريل 30

بعد المحاضرة في جامعة وهران دعاني على مائدة العشاء أحد كبار أطبّاء المدينة. قال فيما قال: لم يعد عندنا، كما عندكم، خادمات! ثم أطلعني، في الطابق التحتي، على معمل كامل مجهز لتجليد الكتب. وعند الوداع أهداني قطعاً نقدية نحاسية قديمة.

أثناء رحلة العودة إلى العاصمة تذكرت أن وهران كانت تحتضن جمعية جغرافية وأركيولوجية نشيطة، أسّست أواسط القرن 19 برعاية قادة جيش الاحتلال. فيها استغل بربروغر وشربونو وآخرون. أين كتب الخزانة؟ أين التحف؟ أين النقود؟ أتذكر أننا خلال جولتنا عبر المدينة، في طريقنا إلى شاطئ «الأندلسيات»، رأيت دوراً كثيرة مهجورة. كانت المنطقة تعرف بفلسطين الصغيرة لكثرة ما كان فيها من ملاكين يهود، بجانب الوافدين عليها من جنوب إسبانيا. لم يمضِ على مغادرتهم عقد من الزمن.

* *

تحاول مصر أن تضع قدمها في الجزائر، مزاحمة بذلك فرنسا.. حظوظها ضعيفة جداً.

رأيت فيلم **الأرض** رفقه صلاح دنبري من ديوان وزير التعليم العالي. يُحضّر رسالة دكتوراه في الموضوع نفسه الذي يشتغل فيه عبد الجليل الحجمري: صورة الآخر في الرواية الفرنسية. يقول إنه تلقى رسالة استنجاد من هذا الأخير. لا أدري ماذا يعني بذلك.

حكيت له كيف استقبلني عبد الرحمان الشرقاوي عندما كنت

ملحقاً ثقافياً لدى سفارة المغرب بالقاهرة. كان طريح الفراش بسبب نوبة زكام. لمّا اقتربت منه ناولني قارورة كولونيا حتى أنظف يدي وأتقي عدوى الجراثيم. ثم كان في غاية اللباقة. أهداني نسخة من مسرحية **جميلة**. قال أشياء متزنة في حق نجيب محفوظ ويوسف إدريس. ثم روى كيف نشر روايته فصولاً على أعمدة يومية **المصري**. لذلك جاءت طويلة. وبعد أن غادرت وزارة الخارجية (الواقع أني أخرجت منها) وعدت للدراسة في باريس وجدت أن الأستاذ بلاشير كان قد أدرج رواية **الأرض** في برنامج التبريز. اقترحت عليه أن أترجمها فقال: كيف ستتصرّف مع اللهجة المصرية؟

* *

راجعت الفصل الذي خصّصته للدولة القومية في كتاب **الإيديولوجيا**..، حتى أقارن النظرية والواقع. يبدو لي أن مشكلات الجزائر أقل استعصاء من التي كانت تواجه مصر أيام عبد الناصر. على أية حال خنقت تجربة مصر ولا أمل في أن تستأنف. أما بلاد الشام فضعفها بنيوي لا تكفي في معالجته الإرادة الثورية. وأرض السواد؟ طرب وبطش.

* *

ماي 5، البيضاء

أكتب لأحمد طالب الإبراهيمي:

لقد غادرت الجزائر معتزاً بما حققت ومتطلعاً إلى ما ستحقق..

أتمنى لكم شخصياً وللحكومة التي تشاركون فيها كل توفيق ونجاح. وأهنئكم على ما تبدون جميعاً من حكمة وجرأة وصرامة.

* *

يكتب الصديق مرسي من إحدى جزر اليونان:

لو كانت لنا جزيرة مثل ما تشاهد في البطاقة لآويت إليها لأكون على مرآى الوطن. وهل نسمّي وطناً بلد المسخ؟ أيظنون أن البهلوانية سياسة.. وأن النبش عن الأموات سيراً إلى الأمام؟

* *

عبارات غامضة يائسة. كان إلى عهد قريب ملحق في الديوان الملكي تحت رعاية إدريس المحمدي وكانت زوجته (إحدى تجليات **جوديت**) على اتصال بكبار رجال الدولة، العسكريين منهم بخاصة. ثم طلب أن يعيّن ممثلاً للمغرب لدى اليونسكو. وبعد أقل من سنة أصبح موظفاً دولياً لا تربطه بالمغرب سوى ذكريات باهتة تدعوه إلى كتابة عبارات مرّة تحت سماء اليونان اللاّمعة. لعله يكتب الشعر، كما فعل طوال حياته، عن شعاع **شمس محتشم**. قال لي روجي كايّوا، زميله في إدارة اليونسكو، إنه لا يصدر شعر في مستوى ما يكتب إلاّ مرّة كل عشرة سنوات. هل يسير على خطى جورج شحاده؟

* *

أرسلت من الجزائر بطاقة إلى روبرت. أجابت من باريس بقصاصة **جون افريك** فيها مقال لمحمد عزيزة التونسي يثني فيه على **تاريخ المغرب**. علّقت: إذا كنت غير واثق مما قلته فما عليك إلاّ أن تطالع **جون افريك**!

كنت أقول لها: سأكتب عن الواسطة والتوسط في الإسلام. فكانت تحدّق فيّ طويلاً: مستهزئة؟ مستنكرة؟ مداعبة؟ ربما تعرفت

قبلي إلى طلاب آخرين ـ من تونس؟ ـ وسمعت منهم الاذعاءات نفسها فظننت أن التبجح من طبيعة العرب أو الشرقيين. واليوم؟ تعلّق على معلّق، تستهزئ منه بلباقة. روبرت إمرأة رصينة تؤمن بالقلم وما يسطر.

* *

كتب روني غاليسو، عضو الحزب الشيوعي الفرنسي، في خاتمة مراجعته لكتاب **تاريخ المغرب**:

رغم أهمية الإنجاز وقوة الاستدلال أشعر ببعض الانزعاج إزاء ثلاث نقاط: 1/ إن التركيز على التناقض بين مفاهيم مجردة، البنية والإيديولوجيا مثلاً، يوهم القارئ أن تلك المجردات قوى فاعلة. أليس في ذلك حيد عن مسار التاريخ. هل إشكالية التطور الموقوف أو المعاق إشكالية تاريخية حقاً؟ ألا يحتوي تاريخ المغرب، كتاريخ أي بلد آخر، على تطور عضوي متّصل وعلى قفزات واصطدامات بتطورات أخرى مؤالفة أو مخالفة له؟ 2/ مع رفض المؤلف الرؤية الأحادية للتاريخ يحتفظ بالمرجعية الأوروبية، الماركسية في الواقع، عندما يؤكّد أن المغرب لم يعرف فيودالية حقة ولا سيطرة بورجوازية وبالتالي لم يعش أبداً تحت ملكية مطلقة حقيقية. 3/ من خلال عنوان الفصل الختامي (إحياء واستدراك) يبدو أن المؤلف حائر بين الحنين إلى الماضي والثورة عليه. هل يبحث هو الآخر عن الذات المفقودة، هوس كل مثقفي العالم الثالث الذين يشعرون باستمرار أنهم غرباء في أوطانهم، أم هل يتطلع بالفعل إلى تجاوز وازع الوطنية الضيقة؟ فكيف يحقق إذن البرنامج «العقلاني» الذي يدعو إليه بحماس صادق؟

يبدو أن أنصار الحزب الشيوعي يفضلون أن يبقى التاريخ حكراً على اليمين حتى يسهل عليهم النقد ومواصلة المطالبة بالتجديد، نظرياً. ما يشرع أحد في مباشرة التجديد إلاّ ويرمى بالمروق.

رغم هذا، الواقع المؤلم هو أن الكلام، حتى مع أمثال غاليسو، ممكن في حين أنه متعذر مع الناقلين عنه (وعن جورج لابيكا) المحتمين به لأنهم يجهلون الأصل والفصل.

* *

يونيو 21، الرباط

وأخيراً رحلنا إلى الرباط بعد التغلب على عراقيل لا تحصى. الآن يمكن لنا الاثنين أن نشتغل في الخزانة العامة: لطيفة كموظفة وأنا كباحث.

أنقب على الماضي القريب لأفهم الماضي البعيد وكذلك الراهن. رغم كل التطورات والانعطافات والثورات، رغم التغيير الكبير الذي حصل في المنطق والملبس والمأكل يتلخص الحاضر في تجديد الماضي الغابر.

أحاول أن أستعيض بالاستجواب المذكرات التي لم يكتبها المناضلون ولا حتى القادة.. باستثناء علال.

* *

من خلال ما أقرأ في المجلات والكتب القليلة الصادرة بعد 1930 ألاحظ، وباستغراب، أن لا حضور للأفراد الموفدين إلى الخارج قبل الحماية والمقدر عددهم بثلاثمائة. كانوا أيام حكم عبد العزيز عرضة لانتقادات لاذعة من قبل أعضاء المخزن التقليدي. نفهم سكوتهم آنذاك. لكن بعد فرض الحماية لماذا لم يعبّروا عن أفكارهم؟ يشاع أنهم تركوا مذكرات، فلماذا أمسكوا عن

نشرها عندما كانت تنفع؟

بجانب الحركة السلفية التي اتبعت طريقاً خاصاً بها، كل ما نلمس من فكر إصلاحي نجده عند بعض أعضاء المخزن الذين كونوا شبه عصبة لتشابه التجارب والمحن التي مرّوا بها. نذكر منهم الحجوي والسليماني وأحمد البلغيثي وعبد الحفيظ الفاسي وأحمد بن المواز وكذلك أبناء التازي والمقري الذين لعبوا الورقة الفرنسية.

لم يكونوا يعرفون لغة أجنبية ولا ثقافة لهم سوى ما جنوا في القرويين ومع ذلك يرومون الإصلاح داخل وبواسطة المخزن. وهم الذين أثروا فكرياً في أولئك الشبان الذين تحولوا إلى وطنيين بعد حادثة الظهير البربري. لولا تلك الهفوة التي ارتكبها الفرنسيون لكان تأثير تلك الجماعة أوضح وأثبت. السؤال هو: لماذا لعبوا هم دوراً كان من المتوقع أن يقوم به أعضاء الوفود التي أرسلها الحسن الأول إلى أوروبا؟ في هذه النقطة تفيد المقارنة مع تركيا وإيران وحتى اليابان.

* *

طلبت مني إدارة **الموسوعة البريطانية** أن أحرر مقال «المغرب» بإيعاز من إبراهيم أبو اللغد، أستاذ العلوم السياسية في جامعة نورث وسترن والذي قابلته بمناسبة مناظرة كولومبيا.

المطلوب هو أن أعطي صورة دقيقة عن الوضع الحالي وأن أرسم خطوط التطورات المرتقبة. هل يجب الاقتصار على التوقعات الرسمية، كلها متفائلة، أم اعتماد تحذيرات المعارضة التي تنذر بقرب ثورة عارمة؟ حتى إذا ذكرت الرأيين فلا يلتفت القارئ إلاّ لقول المعارضة. النقطة هي أن القارئ يقارن. ماذا لو تقيدت أنا

بالموضوعية في حين أن كاتب مقال «الجزائر» أو «تونس» يكتفي بترديد تصريحات الحكومة إذ لا يوجد داخل البلدين صوت معارض؟ عندها يتحول الإنصاف إلى تحامل.

السؤال: لماذا يكثر النقد عندنا ويقلّ عند جيراننا؟

* *

11 يوليو

وقعت الواقعة ولم نستقر بعد في الرباط. ماذا كان يكون وقعها في نفوسنا لو كنا لا زلنا نسكن البيضاء؟ نحن الآن بين المنزلتين: نسمع، نقرأ، نلاحظ الأمور كما لو كنّا زواراً من المريخ. يحيط بنا صمت معبّر، يذكرني بما قاله الحجوي والمشرفي عند وصفهما لأحداث صيف 1908. تعارض آنذاك أنصار فرنسا وإنجلترا واليوم يتواجه أصحاب فرنسا وأميركا. ماذا يقول كل فريق وماذا يقرر المعني بالأمر؟

سبحنا طوال النهار على بضعة أميال من موقع الحادث ولم نلاحظ أي شيء غير عادي. ولما عدنا إلى الرباط لم نشاهد إلاّ ما تعودنا على مشاهدته كل مساء في بداية هذا الصيف العادي. لبّينا دعوة جوزف غابل، الأستاذ المنتدب لدى معهد السوسيولوجيا، الذي كان يودّ أن أتعرف إلى بعض زملائه. كان يسكن زنقة لامارن غير بعيد عن مركز الإذاعة. لما دخلنا إلى غرفة الاستقبال وجدنا الحاضرين واجمين. لم يرحب بنا أحد، لم يقيم لنا أحد. قلت: ما الخبر؟ فانفجر غابل ضاحكاً: آه المؤرخ آخر من يعلم!

عدنا إلى البيت فوجدنا والد لطيفة في انتظارنا ليطمئننا ويعود تواً إلى البيضاء. كلنا إذن في حالة غيبوبة. من يدعي غداً: قلت كذا، فكرت بكذا، تصورت كذا، يتجاوز الواقع ويختلق ما يقول.

الوعي مخلوع والزمن منزوع كما يحصل عند اصطدام سيارتين.

* *

هكذا كانت تجري الأمور في الماضي، البعيد والقريب. تجري في القصبة أو في القصر أو في الساحة الفاصلة بينهما. ويبقى المسجد والزاوية والسوق والحومة والبيت بمعزل عمّا يجري، الكل في صمت وترقب، يخمن، يتوقّع، يفترض ثم يبسمل ويحمدل، يركع ويبارك.

يبدو هذه المرة أن القصر انفتح على السوق وعلى الحومة.

يقولون: هذا صدى بعيد للسيبة، محاولة إحياء الماضي، انتقام من هزموا في الخمسينات فاختفوا لمدّة ثم ظهروا من جديد ليخدموا أسيادهم الأجانب.

يقولون: هذه مغامرة قامت بها إحدى مصالح دولة طارئة على المنطقة. قيل لهم إن النظام على وشك السقوط فالأفضل تفجير الأزمة قبل الآوان حتى يمكن التحكم فيها.

أقاويل لا سبيل إلى تأكيدها أو نفيها.

* *

يروي محمد الشرقاوي: هذا جنرال، ممن لم يشاركوا في المؤامرة، سمع رجل أعمال يتكلم، فعلّق على كلامه: هذه قسمة، أنتم اجمعوا المال وإحنا نحميكم.

ثم زاد قائلاً: كلمت مدير بنك، له ذكر في تاريخ الوطنية، في شأن رجل من كبار المقاولين احتاج إلى قرض فمنع منه. فسألت عن سبب المنع فردّ المدير: هاذاك ما هو من أصحابنا.

كان هذا هو الجو. . انفلات من الجانبين فجاء التحرك من حيث جاء.

* *

14 يوليو

أحمد بناني رجل ذكي، أديب، مطلع. من أصدقاء علال الفاسي. يثني عليه جاك برك ويقول إنه أحسن مثال على نباهة وفطنة المغاربة. تعرفت عليه عند عباس لحلو مدير معهد علوم الاجتماع.

قال: ذكر اسم رجل في مجلس أحد السلاطين فأبدى الرّغبة في مقابلته. استدعي الرجل وتمت المقابلة. بعد انصرافه التفت السلطان إلى من حوله فرآهم واجمين. قال: ما لكم، أولم يعجبكم الرجل؟ قالوا: بل أعجبنا كثيراً. قال: إذن ماذا؟ قالوا: كل شيء فيه يعجب لولا انه لم يغض الطرف عندما جاوز عتبة القصر.

* *

20 يوليو

يقول إبراهيم الكتاني: عبد الحي كان ملحداً، لا يؤمن بشيء ويستهزئ بالكل. ربما اتصل بالفرنسيين قبل الحماية وإن كان الأمر مستبعداً. يحكي أحمد مكوار إنه ذهب لزيارة عبد الكبير الكتاني، والد عبد الحي، فوجده باكياً. ولما سأله عن السبب أجاب: ذاك المسخوط في المصرية مع فرنسيين. لكن العابد بن سودة، وهو خال عبد السلام، يحكي ما يشير إلى العكس. يقول إن عبد الحي جاء يوماً وقال: مات فلان وأردت أن أخرج مع الجنازة فمنعوني. أي كبر عليه ذلك فباع نفسه للفرنسيين. . لكن اللّه انتقم منه. جرى له مع ابنه عبد الأحد ما جرى لوالده معه هو. وقعت محاولات

لمصالحة عبد الحي ومحمد الخامس، أربع وخمس مرّات. حتى جاء حوان فقطع كل اتصال وانحاز نهائياً إلى جانب الاستعمار.

هكذا كان التاريخ يكتب في الماضي

* *

أغسطس 2

يقول: في نهاية التحليل المعارضة هي المسؤولة، هيأت الجو بانتقاداتها المتطرفة المستمرة. ملّوا من الانتظار ويئسوا من الوصول إلى الحكم بوسيلة مشروعة. فزين لهم الشيطان أن يسلكوا طريق العنف. وكانوا قصيري النظر. لو نجحت المحاولة لكانوا هم الضحية الثانية كما حصل في بلد مجاور. لا أحد يصل إلى الحكم بجهده ويقبل أن يتقاسمه مع غيره.

طيب.. من أقفل باب التفاوض؟ من قرب شباناً بلا خبرة يفخرون أنهم لا يحترفون السياسة؟ من أعاد للواجهة أبناء المتخاذلين والمنحرفين كما هو واضح من لائحة أسماء المدعوين والضحايا؟ من خاصم زعماء الوطنية في شأن اللغة العربية وفي مسألة الحدود وفي سياسة التضامن العربي؟ من نزع عن جسمه كل الخرق الواقية، الواحدة بعد الأخرى، حتى انكشفت عورته؟

* *

يروي إبراهيم الكتاني جواباً عن سؤال حول شخصية ابن العربي العلوي:

كانت مسألة تبرج النساء مطروحة وكان ابن العربي يصرّح أن ذلك من المنكر. فقال الطلبة: هلا رفعنا عريضة في هذا الشأن للمجلس البلدي. قال ابن العربي: الأحسن أن توجهوها للمراقب الفرنسي وعند دخولكم قاعة المجلس مكنوها لعبد الحي أو للباشا.

طلع الوفد وعلى رأسه طالب جبلي مغفل، فأخطأ ومكّن العريضة لابن العربي. قرأها ثم قال: هؤلاء أبناؤنا يوبخوننا على عدم إشراكهم في النقاش وهم أمة الغد.. وكان بين الحاضرين عبد الواحد الفاسي، والد علال. فتقدم هذا الأخير وقال دون تردد: أنتم نوّاب الأمة وقد تعلّمنا أن من حق الموكل خلع وكيله إذا تهاون.. كانت العريضة تنتقد البدع في مجال العقائد، مما أثار حفيظة عبد الحي ودعا الحاجب اعبابو إلى القول: من حثهم على التجمع بدون استشارة؟. فلم تقبل العريضة على وجهها.

يدل الحادث على تحفظ ابن العربي الذي كان آنذاك قاضي فاس. كان يسير على نهج محمد عبده، يدعو إلى نشر التعليم بمساعدة الفرنسيين. لكنه كان يستهوي الشباب بكرمه ودماثة خلقه وتواضعه وخفة روحه، بخلاف محمد الحجوي.

* *

24 سبتمبر

رافقت لطيفة والديها إلى ألمانيا ليستريحا ويسترجعا عافيتهما بعد المحنة التي مرّا بها. ومن هناك تكتب لتقول إنها تنوي فتح حساب مشترك معي ثم تصف المدرسة التي قد يسجل فيها عصام مؤكدة أنها منشغلة بي. ماذا تعني هذه الإشارات؟ هل استقت بعض الأخبار السيئة؟

على أي حال، بعد أيام، سأترك عصام تحت رعاية أختي وأتوجه صوب الجنوب. سأرى كيف حال البلد في نهاية هذا الصيف الخانق؟ (الدنيا هانية)، هذا ما يردّده المسؤولون وقد يكون صحيحاً إلى حدّ. وماذا يعني؟ من الهدوء ما هو خمول وغيبوبة.

* *

تشككت طويلاً في جدوى مفهوم الجيل في الدراسات التاريخية. لا زلت أعتقد أن الفرد هو المرجع بجانب الأمة أو القبيلة أو الطبقة حسب مستوى تطور هذا المجتمع أو ذاك. قلت مراراً إن علال أقرب إلى الجيل الجديد ممن كانوا أصغر منه سنّاً وقادوا الحركة بعده. لكن المفهوم يلحّ عليّ هذه الأيام إذ ألاحظ أن الكثيرين يتوقفون عن المطالعة وعن الاستيعاب في سنّ مبكّر. من قرأ في شبابه رشيد رضا لا يتأثر بالعقاد أو السيد قطب. ومن قرأ جيد أو مورياك لا يتذوق سارتر أو كامو. لا يكفي رصد خزانة زعيم لتحديد مجال فكره. هناك خزانة أصيلة، هي التي كوّنت ذهنية صاحبها، وهناك خزانة، أوسع منها، قد تدركها العين ولا ينفتح لما فيها الفؤاد.

أشعر بهذه الحقيقة كلّما حاورت إبراهيم الكتاني، أحمد بناني، علال الفاسي. وأشعر به كذلك عندما أقابل محمد الشرقاوي أو عبد الرحيم بوعبيد.

* *

سبتمبر 26

تمّ إخراج الغربة على مطابع دار النشر المغربية بإلحاح من مديرها مصطفى اعمار السلوي. رافقتني، في أشكالها المتوالية، من البيضاء إلى أكدير ومن الرباط إلى القاهرة ومن باريس إلى البيضاء ثم الرباط. ساعدتني على تحمل أعباء الحياة. لولا مؤانسة أبطالها، لأرتكبت أخطاء كثيرة. أمر يستغربه من لا يمارس الفن..

لا أشك دقيقة واحدة أن الأدب الخافت يوافق وحده الوضع الذي نعيشه الآن. الصراخ والعويل اعتداء على الذوق السليم.

* *

سبتمبر 28

سبق لي أن لاحظت أن جان لوي مييج يحلل أحوال مغرب القرن 19 اعتماداً على ما كان يراه في بيضاء الخمسينات. لذا تكلم بإسهاب على نهوض الطبقة البورجوازية المغربية. عاش ردحاً من الزمن في العاصمة الإدارية وتأثر بجوها الهادئ وحياتها الرتيبة ثم انتقل (نقل في الواقع) إلى الدار البيضاء فانبهر بحيوتها ونشاطها المتواصل. اكتشف دماً جديداً، عبقرية جديدة أو، كما قال الروائي الفرنسي كلود فارير، عنصراً بشرياً جديداً.

لكن يصعب عليّ أنا، عندما أتصفح النصوص العربية، لا التقارير القنصلية أو أوصاف الجغرافيين، أن أقرّ بوجود بورجوازية مشخصة في رجال أمثال أبناء التازي أو جسوس أو بنيس. . . لا أرى في سلوكهم وفي أقوالهم السمات المرتبطة عادة بالطبقة الوسطى.

قررت أن أقف عند أواسط الثلاثينيات. فلا بدّ لي أن أسجل أن النشاط الفكري والسياسي ينحصر في وسط المخزن وفي القرويين وفي جماعة من الحرفيين. لا أرى ما يشير حقيقة إلى تلك العلاقة المفترضة بين الحركة الوطنية ونمو الطبقة الوسطى. ما حصل بعد ذلك شأن آخر.

* *

أكتوبر 22

اتجهت الأنظار فجأة لما يجري في القارة الهندية. وها علال يعود إلى قرض الشعر، مما يدّل على تأثره العميق. يتذكر أيام القاهرة وأيام طنجة عندما انفتحت عيناه على العالم، الشرق بخاصة. يتذكر ولاءه لفكرة الدولة الإسلامية، المجسّدة بشكل ما

في تجربة باكستان. لا يمكن أن ينسى. وفي الوقت نفسه يستريح من تفاهات السياسة المغربية.

* *

28 أكتوبر

الحركة الوطنية صورة مصغرة للواقع المغربي، التاريخي والاجتماعي. ولكل صورة ظهر وبطن، وجه مضيء ووجه معتّم. نعرف أن الوجه الثاني موجود، قد يطفو على السطح في أية لحظة، لكن نتصرف كما لو كانت حظوظ انتعاشه قليلة مستبعدة.

أكتب هذا لأني أشعر عند قراءتي لكتب الحجوي وابن زيدان والمشرفي والناصري، وعندما أحاور الكتاني والمنوني، أن هناك «خلاصات» ضمنية توجه ما يكتب أولئك وما يقول هؤلاء، بعبارة أوضح أحس أنهم يدخلون، عندما يحكمون على سياسة أو تصرف أو قول، في حسابهم عنصراً لا يذكرونه صراحة. وهذا هو ما أسميه **السلبي** في تاريخ المغرب. لا أعني به العامل غير المؤثر، بالعكس أعني به المسكوت عنه إذ في مجرد ذكره تجرؤ وتشويش. لا يمكن نفيه، إذ بذلك يحصل تحجيم للواقع وتبسيط للمسائل المطروحة، ولا يمكن نعته إذ لم يخف، إلاّ لسبب موضوعي، من صلب الواقع المغربي.

* *

لكل حدث جانب محلّي وجانب كوني. لا يفيد نعت هذا التطور أو ذاك بأنه ثورة اجتماعية. لا يصحّ النعت بالنظر فقط إلى الأوضاع الداخلية، لا بدّ من اعتبار الصدى الخارجي ومنحى التاريخ. ما حدث في فرنسا نهاية القرن 18م ثورة وما حدث في إسبانيا أواسط القرن 20 حرب أهلية. ما حدث في الصين قبل

الحرب العالمية الأولى ثورة وما حدث في الهند بعد الحرب الثانية حركة تحرير.

من هذا المنظور لم تحدث ثورة اجتماعية في المغرب بسبب سياسة ليوطي، لا كما فهمها المعمرون، أي إلهاء الدول الأجنبية وتنويم المغاربة إلى حين تواجد الظروف الملائمة لتحويل المغرب المحمي إلى مستعمرة على شاكلة الجزائر، بل كما فهمها المغاربة أمثال الحجوي، أي معاهدة وميثاق شرف على إنقاذ نفوذ المخزن مقابل منح امتيازات واسعة لفائدة المعمرين الأوروبيين. وهناك سبب آخر وهو أن الحزب الوطني لم يكن سوى إفراز للمخزن نفسه. لن يستغرب هذا الحكم إلاّ من لم يفكّر جدّياً في جذور نفوذ علال الفاسي المبكّر والمستمر.

* *

نوفمبر 12

صدرت في اليومية التي تشرف على إدارتها جاكلين لغلام في البيضاء (أخبار المغرب) إشارة إلى صدور **الغربة** تقول: «ميزتها الرئيسية جو التأمل الحزين الذي يعقب خيبة الأمل». أدرك كاتب السطور (عبد اللّه ستوكي؟) أن الأحداث لا تذكر والشخصيات لا توصف إلاّ لتأكيد رنّة الكآبة.

وكتب محرر **العلم الثقافي**: «ها الكاتب اليوم يجتاز التجربة أو التجربتين فيكتب بالعربية أولاً ثم يعالج ميدان القصة ثانياً. ولا شك أن الأدب المغربي سيكسب من خلال التجريبتين».

في نشر الإعلان على الصفحة الأولى تزكية.

* *

14 نوفمبر

يخطئ من يستعمل المعايير نفسها للحكم على الحركة الوطنية قبل وبعد الحرب العالمية الثانية.

جاءت الحرب ومعها بطاقات التموين والسوق السوداء وتهريب المواد النادرة عبر الحدود والمضاربة على العملات في منطقة طنجة الدولية. . استغل التجار المغاربة كل هذه الوسائل لتكديس الثروة. بعد ذلك حلّ بالمغرب الجيش الأميركي فتضاعفت فرص العمل. ثم حررت فرنسا واتبعت حكومتها، بتأثير الحزبين الاشتراكي والشيوعي، سياسة تأميم واسعة. فلجأ عدد من الرأسماليين إلى المغرب حيث لم تكن القوانين الجديدة سارية المفعول وتسارعت وتيرة تصنيع البلاد. في الوقت الذي تجددت فيه الطبقة الوسطى المغربية نشأت طبقة عمالية جديدة. هذه الظروف الخاصة تفسر من جهة عدم اهتمام التجار والعمال بالسياسة أول الأمر ومن جهة ثانية عدم الشعور بأن مصالحهم متناقضة. كل ما يُقال عن كوْن الوطنية إيديولوجيا بورجوازية، غير عمّالية، لا ينطبق على حالة المغرب، وإن انطبق على حالات أخرى.

ما حصل بين 1945 و1965 هو عبارة عن عملية تعبئة استهدفت الطبقتين معاً وأدّت إلى فسخ عقد الحماية في ظروف جدّ معقّدة، تلتها في مرحلة لاحقة عملية تسريح وتسيّب أعادت كل المشاركين في دوالب الاقتصاد الحديث إلى اللاّمبالاة. لم يتخلّ (الأغنياء) وحدهم عن همّ السياسة بل جاراهم العمّال بإيعاز من قادة النقابات في انزوائهم هذا. ولم يبقَ في ميدان الكفاح سوى الحرفيين وأبنائهم. نشأ من هذا الوضع البئيس خلط في الفكر وتهور في السلوك.

وهو الجو الذي حرّرت فيه، على مراحل، قصة الغربة.

* *

لا غرابة أن ينبعث المخزن في شكله العتيق. لم يكن محتماً أن نعود إلى الجلباب والبلغة، لكن كان ذلك إيغالاً في الرّمز حتى لا يخطئ أحد..

لذا ما يقوله جون وتبري، اعتماداً على شهادة ريمي لوفو وموظفي وزارة الداخلية، سخيف لأنه يجمد الأمور في طورها الأول. من يتكلم عن «هوية» مغربية يفاجأ بكل ما يحدث!

* *

ديسمبر 15، باريس

جئت لأحدث ريمون أرون عن الدراسة التي أقوم بها عن جذور الحركة الوطنية المغربية والتي قبل أن يشرف على جانبها السوسيولوجي. قبل بعد تردد، اعتباراً لكوني كنت تلميذاً له في معهد الدراسات السياسية. كلّمني طويلاً عن الحرب الهندية الباكستانية. قال: «انتصرت الهند وأحكمت سيطرتها على شبه القارة. حسمت الصراع على طريقة القرن 19، مما يفيد أن وجود القنبلة الذرية لا يغير شيئاً من القواعد الاستراتيجية العامّة، عكس ما يظنه المحللون الأميركيون..».

يصفق الجميع لانتصار الهند كما رحبوا أمس بانتصار إسرائيل بدعوى مناصرة الديموقراطية وحق تقرير المصير (والكاشمير ما حكمه؟).

لماذا نتحمس لكل من يلقي بنفسه إلى التهلكة؟ هؤلاء العسكريون لا يتقنون حتى الصناعة التي تمرسوا عليها ثم يتطفلون على الديبلوماسية وعلى السياسة. ظن عبد الناصر أن تحالفه مع روسيا يحميه من المباغتة وظن أيوب خان أن صداقته مع أميركا

تنقذه في آخر لحظة. لم يدرك الرجلان أن الديبلوماسية عاجزة عن تغيير الواقع الاستراتيجي. لا تتدخل روسيا أو أميركا حيث ثمن التدخل جدّ مرتفع. هناك تحالفات مجانية.

هذه الأخطاء المتكررة تشير إلى أن قادتنا يعيشون خارج العالم الذي يتحرك فيه أصحاب القرار. من غير المستبعد أن يكون حضورنا في المحافل الدولية وسيلة ذكية لاستدراجنا إلى ما فيه حتفنا.

* *

1972

11 يناير

في طريقي إلى نيويورك لأشارك، كعضو مستشار، في اجتماع لجنة متفرعة عن المجلس الأميركي للمجامع العلمية والمكلفة بتوزيع المنح على الباحثين. لقد تقرر أن تكون مستقبلاً مشاريع البحوث مزدوجة. يقدم كل مشروع باحثان، أحدهما أميركي والثاني عربي ويشرف على سير البحث أستاذان أيضاً أحدهما من جامعة أميركية والآخر من جامعة عربية. الفكرة جيدة ويا حبّذا لو اتخذناها خطة عامة عندنا. الواقع أنها فرضت على الأميركان فرضاً إذ غالبية البلاد العربية مقفلة في وجههم.

استوقفني في ميدان المسرح الفرنسي الشاعر الطاهر بنجلون الذي استقر منذ أعوام في باريس لأسباب لا أعلمها. قابلته آخر مرة في مقهى **بالزار** وكان معمماً. فذكرني بلوحة ڤان كوخ الشهيرة. طرحت السؤال على بنجلون فلم يجب. أعلم أنه قام باستجواب جماعة من العمّال المغاربة المهاجرين الذين اختلت عقولهم من جرّاء البؤس والوحدانية. هل اعتدى عليه أحدهم؟

قال إنه تلقى نسخة من كتاب **الغربة** وزاد معلقاً: لم تجرب فيها

أساليب حديثة! لم يقرأها بدون شك أو يردّد حكماً أولياً تسرع به محمد برادة.

* *

يناير 12

طقس ربيعي في نيويورك والشوارع مليئة بالمتفسّحين من أبناء المدينة. يشعر المرء بعلاقة حميمة بين السكان ومحيطهم الطبيعي، عكس ما كنت ألاحظه في لوس أنجليس. كانت تجربتي في أميركا معكوسة. تعرفت على الشاطىء الغربي قبل الشرقي. لذا تبدو لي نيويورك كأنها قطعة من أوروبا، انطباع خاطىء بدون شك.

أغرتني الدعاية فدخلت إلى إحدى قاعات **برودواي** لأشاهد شريط الـ **طوبو**. الفيلم سخيف رغم إنه مستوحى من رواية شهيرة لأحد كُتّاب أميركا الجنوبية الكبار. ما يميّز أدب تلك القارة الحرية التي يعالج بها مسائل الجنس. وهو ما يعطيه قوة تأثير لا يدركها أبداً الأدب العربي المثقل بالاعتبارات الأخلاقية. أدبنا محتشم وبالتالي مختزل.

* *

فبراير 24

غصّ مدرج الإدريسي بالحضور. جاؤوا للاستماع إلى مناظرة حول الازدواجية اللغوية والتبعية وجاء بعضهم لإحراج علال الفاسي لأسباب ظاهرها غموض موقف الكتلة من مسألة الدستور.

يقولون إنهم لا يفهمون موقف المقاطعة. قام عمر بن جلون وراح يتكلم عن الجدلية متناسياً أنه يخاطب طلبة لا جمعاً من العمّال الأميين. هل خفّف الضغط على الزعيم؟

قلت أمام الملأ ما منع نشره وزير الإعلام. قلت إن من علامات تخلفنا الفكري أننا لم نقم بدراسة جدية موضوعيّة لتطور

الطبقة الوسطى المغربية وبالضبط لمسيرة فرنستها طوال القرن العشرين، تلك الفرنسة اللغوية التي عرقلت توحيد المجتمع بل أوقفت الحركة نحو تكوين مجتمع بالمعنى العصري.

تحجرت اللغة العربية الفحصى بعدم استعمالها اليومي واستمرت اللهجات تعمل في قلب المجتمع وتميّزه إلى فئات متنافرة على أساس غير اقتصادي أو وظيفي كما هو الحال في الدول العصرية.

ولنا عبرة في تجربة تونس التي لم تتوحد إلاّ جزئياً ولم تعرف بعد الرفاهية التي وعدها بها بورقيبة عندما اختار الانضمام إلى رابطة الشعوب الناطقة بالفرنسية. يبقى الأمل معقوداً على تجربة الجزائر لا لأن نظامها يعتمد الاشتراكية بل لأن حكامها ينتمون إلى البورجوازية الصغيرة المعرّبة، حضرية كانت أو قروية.

قد يُقال: وما هذا التعلق الأعمى بلغة قومية واحدة. أمامنا المثل اللبناني حيث تتساكن العربية والفرنسية وحتى الإنجليزية تعايشاً مفيداً وخلاّقاً؟ ومتى كان لبنان دولة أولاً ودولة حرّة مستقلّة ثانياً؟

انزعج الجميع، حتى أنصار التعريب، لهذا الاتهام الموجه إلى المجتمع بكل مكوّناته وإلى الطبقة الوسطى بوجه خاص.

والغريب هو أن أحمد العلوي جاءني مرّة ليعرض عليّ نشر كتاب **تاريخ المغرب** مسلسلاً في جريدته **ماروك سوار**. ألأنه لم يكن قد قرأ بعد الكتاب أم كان يلبّي فقط دعوة زوجته؟ تضمنت خلاصة الكتاب الأفكار نفسها وفهمها الكثيرون على وجهها فلم يستحسنوها. النقطة الجوهرية في هذا النقاش هي: على أي أساس نوحد الشعب، نقرب الدولة من المجتمع، نتفادى خطر التمزق

والانشطار؟ ثم يأتي الاهتمام بالانفتاح والنمو في مرحلة لاحقة. الجانب الآخر يعكس الأوليات. في كل الأحوال لا وحدة ولا تضامن بدون اقتصاد متطور وبنى اجتماعية حديثة. اللغة الفرنسية تحدث وتمزّق والعربية الفصحى العتيقة (عربية باحنيني) توحّد شكلياً وتجمد: هذه هي الجدلية الواقعية!

* *

فبراير 28

كنت قد طلبت من الأستاذ فون غرونباوم أن يكتب مقدمة الترجمة الإنجليزية **لتاريخ المغرب** وكان قد قبل الاقتراح. واليوم يأتي الخبر أنه قد توفّى إثر عملية جراحية بسيطة أجريت له في المستشفى الجامعي، المستشفى نفسه الذي وُلِدَ فيه عصام. نجحت العملية ثم حصلت تعقيدات وكان ذلك يوم عطلة فلم يكن الاختصاصي المطلوب تحت اليد. تطرأ مثل هذه الحوادث حتى في أميركا!

كثيراً ما كان يومئ إلى عبث القدر في أحاديثه عن ڤيينا ومرحها وتجاهلها للفواجع.

* *

مارس 20

أعرف مواقف السيد الأخضر غزال وأتفق معه في كثير من النقاط، لكني ألاحظ تجنّبه للمسائل السوسيولوجية إما لأنه يجهلها وإما لأنه لا يود الخوض في مسائل شائكة لأسباب شخصية.

أعتقد بكل بساطة أن جمود الفكر العربي يعود أساساً إلى جمود اللغة. يقول علماء الألسن السامية إن العربية وحدها احتفظت بسمات عتيقة (الإعراب، علامات التأنيث، التنوين، إلخ) امّحت

من لغات سامية اندثرت فيما بعد كالآرامية والسريانية. أما الاعتزاز بأنها ظلت تقرأ وتكتب إلى أيامنا هذه فإنه يحجب عنا أمراً في غاية الخطورة وهو أن مدار فكرنا لم يتغير منذ قرون. وهكذا نستطيع أن نفهم السرّ في توجه الأدب نحو التجريد، انحصار الشعر في القصيدة والنثر في السجع.

القضية الشائكة اليوم هي التي تمس فن الرواية. تتلخص في عدم موضوعية اللغة، عدم قدرتها على الوصف الدقيق إذ تحمل في ثناياها أحكام، أخلاقيات منظور الأجيال السابقة. اللغة المستعملة عندنا تجعل من كل شخصية نمطاً إنسانياً معروفاً فيتحول الاهتمام من الموصوف إلى اللغة الواصفة.

قارن رواية أميركية وأخرى فرنسية تدرك القصد من ملاحظتي هذه.

* *

يقول أدونيس: «نحن الآن بصدد إعداد دراسة عن كتابك. أما مسألة نشره في **مواقف** فأمر صعب جدّاً. إنه طويل ولم نرَ أن نجزئه، عدا أن الأكثرية في هيئة التحرير تعارض بشدّة نشر ما سبق نشره مهما كان.».

* *

أبريل 10

سفر إلى تطوان بدعوة من جمعية أساتذة التاريخ والجغرافية. لا يزال جو المدينة إسبانياً، استقبالاً وخدمةً، وكذلك في طعم الخبز وتهيئة القهوة. الفرق واضح بين المنطقتين.

تجاوب الحاضرون مع الملاحظة التي أبديتها عن مؤرخي القرن التاسع عشر، والتي تطابق الوضع الحالي. حاضرت وأنا لا أزال

أسبح في فضاء فكر القرن الماضي. والعبارة في محلها إذ كان كتاب ذلك العهد لا يتقنون السباحة فغرقوا وغرقنا معهم. صاحب كتاب الابتسام يعلّق على تجربة محمد علي والحجوي يعلّق عليه وأنا أعلق على الحجوي. كل ذلك في دائرة محدودة مليئة بالحزازات. نحبّ الظل لأننا نعيش في بلد مكشوف تحرقه أشعة الشمس.

كانت تجربتي ذات مغزى: هؤلاء أساتذة تاريخ، ومع ذلك لا يهمّهم من أخبار الماضي إلاّ ما يفيد الحاضر. قررت أمامهم: بدأنا بدراسة بعض أقوال المؤرخين لنتعرف إلى حالة المغرب والآن يجب علينا أن ندرس حالة المغرب لنحكم على فكر أولئك المؤرخين. هذا دور لكنه سليم غير عقيم. لو لم أقم بتلك العملية الصعبة لأرغموني هم بالقيام بها من خلال أسئلتهم. ولو كان المحاضر غيري، ممّن يتشبّث بضرورة رؤية الماضي في حدود منظور ذلك الماضي، لاضطرّ هو الآخر إلى ركوب الطريق نفسه.

القاعدة التي تؤكد ضرورة محاورة المؤرخ القديم في نطاق ما يعلم هي أساس المهنة. من واجب المؤرخ أن يلتزم بها في منطلق بحثه. لكن ماذا بعد هذه المرحلة؟ مدّعي التخصص يقف عندها لأنه عجوز عاجز، بئيس يائس. أما من لا يزال حيّاً، يأمل ويتشوق، فذاك يتجاوز رغماً عنه حدود التخصص. يحيي المؤرخ الميت ويحاوره كصديق مؤنس.

وهل يفعل غير هذا المحدث السنّي الذي يقول: لا صوت يعلو على صوت عمر أو مالك أو الغزالي؟

التاريخ بلا سياسة أبكم والسياسة بلا تاريخ عمياء. فرق بين أن تقرأ مثل هذه الفقرة عند كاتب ألماني أو إيطالي وبين أن تستخلصها

من تجربتك بعد مواجهة طلابك القدامى الذين يصطدمون الآن بما اصطدمت به منذ أعوام!.

* *

ماي 27

يكتب ياسين الحافظ من الجزائر، بعد أن اشتكى من أن القنصل رفض منحه تأشيرة دخول إلى المغرب بسبب جنسيته السورية: «لا تزال الناصرية تشكّل منطلقاً لقطاعات واسعة من الجماهير الشعبية. إن الإرث الناصري أصبح نهباً بين اليمين واليسار. ومن هنا تبلورت لدينا فكرة، نحن بعض المثقفين اليساريين، على عقد ندوة دراسية حول التجربة الناصرية والتراث الناصري، في محاولة لوضع الناصرية في سياق تطورها التاريخي وبالتالي إفشال محاولات اليمين الناصري لاستخدامها. إننا نرجو أن تحظى باهتمامك..».

* *

من يقرأ **الإيديولوجيا**... يتصوّر أن مؤلفها متأثر بحوادث الشرق بل قد يكون طرفاً فيها. فيظن أن ما جاء في الكتاب من إيماءات إلى المغرب هو من قبيل التمثيل والاستظهار. إن الواقع بخلاف ذلك. تجربة الشرق هي التي وظفت كمثال توضيحي لتحليل تطور في غاية الخصوصية.

نستطيع أن نميّز في مسار الأحزاب المغربية بين من كان يعتمد التجربة المشرقية أساساً لتحركاته وبين من كان يستنير بتجارب الغرب. تغيّر نهج حزب الاستقلال عندما فقد جناحه اليساري وسيطر عليه أتباع الطريس كما تغيّر وجه اتحاد القوات الشعبية عندما انخرط فيه عدد من خريجي الجامعات المشرقية. علال كان مغربي

الاتجاه، وفياً لسلفية القرويين ثم لجأ إلى القاهرة فتمشرق نسبياً مع الاحتفاظ بشيء من أصالته الفكرية كما يدل على ذلك كتابه **النقد الذاتي**. ثم عاد إلى المغرب ليتمغرب مجدداً. المهدي كان غربي الاتجاه، قلباً وقالباً، لدوافع شخصية واجتماعية وثقافية، تعرّف إلى المشرق في فترة متأخرة فلم يفهم تعقيداته ولا انتفع به. وكان في ذلك حتفه. يمكن القول إنه كان، بكيفية ما، ضحية التيار الناصري. بوعبيد ظلّ وفياً لوجهته الأصلية. صدمنا مرة ونحن طلبة في باريس عندما قال، ربما في ثورة غضب، إنه يودّ أن يستفيد من تجارب إسرائيل الناجحة لا من هزائم العرب المتوالية. حاول عبد الناصر استمالته عندما كان وزيراً للاقتصاد، دون جدوى، إذ لم يحصل أي تفاهم بينه وبين نظيره القيسوني، الإنجليزي التكوين والسلوك. عاش بوعبيد طويلاً في باريس وعاشر عدداً كبيراً من الفرنسيين فأدرك خطر الاغتراب، شرقاً أم غرباً. كان يرى أن مكوث المهدي طويلاً خارج الوطن يجره حتماً إلى ارتكاب أخطاء قاتلة. استغل فيما بعد بعض المتمشرقين في مجال الدعاية أو كسب سند بعض الجهات لكنه ظل باستمرار مغربي/غربي الاتجاه. لا شيء في تكوين بن بركة كان يشير إلى أنه سيسلك طريقاً مغايراً. لكن السياسة قدر أي بخت واتفاق..

* *

ترجمت إلى العربية المقال الذي طلبه مني مدير مجلة **ريناشيته** (النهضة) التي يصدرها الحزب الشيوعي الإيطالي. الباعث على الاستكتاب هو بالطبع صدور **الإيديولوجيا**... بالإيطالية. لكني أظن أن أنور عبد الملك لعب دوراً في القضية. يبدو أن هناك علاقة عضوية قديمة بين الشيوعيين الإيطاليين واليسار المصري كما أن هناك علاقة بين الشيوعيين الفرنسيين ورفاقهم في شمال إفريقيا.

ذاك من آثار توزيع العمل داخل الأممية، تماماً كما تمّت **الوزيعة** بين الدول الرأسمالية. . جانب من آحادية التاريخ.

* *

كنت البارحة في ضيافة مؤسسي مجلة **أنفاس**، نواياهم حسنة وآمالهم عريضة لكن معرفتهم بالواقع جدّ هزيلة. يعتقدون أن الواقع المجتمعي هو ما يرون كأفراد، كما لو كنا كلّنا «أولاد اليوم». كل واحد منهم يعتزم محو آثار الماضي من فكره ولسانه وسلوكه ويظن أن غيره سيقتدي به. والغير هو أولاً وأخيراً الشباب.

هل من الحق الاتجاه إلى الشباب لا لسبب إلاّ أن الاتصال بهم أسهل؟ يفهمون ما يُقال لهم، يجتمعون في أماكن معلومة، ينخرطون في جمعيات معترف بها. .؟ الجواب جاهز: وهل اتّبع الوطنيون، في بداية أمرهم، غير هذه الخطة؟ إذن الازدواجية نفسها: الدعوة إلى العمّال والفلاحين والاعتماد على الطلبة والتلاميذ.

* *

30 مارس

فيلم **سان برناردو** مستوحى من رواية. لذا الإيقاع البطيء والأداء المسرحي. يصف حالة نفسانية خاصة متجذرة في وضع طبقي متميّز. ملاك غنّي يسقط ضحية غيرة قاتلة. يتزوج بمعلّمة فيضطهدها ويجعل من حياتها جحيماً يدفعها إلى الانتحار. عندها تخونه أعصابه، يفقد كل إرادة ولم يعد يستطيع أخذ أي قرار مهما كان صغيراً. يحتمل الشريط تأويلات كثيرة، تاريخية ونفسانية، ماركسية وفرويدية، وهو ذو شحنة دعائية ثقيلة. إلاّ أنه يصف الأوضاع الإنسانية وصفاً دقيقاً.

لا نفهم جانباً كبيراً من الشعر الحديث المبني على دقة شمولية الوصف.

شعر المجتمع العلمي وصفي وشعر المجتمع الديني أخلاقي.

* *

يونيو 10

تقول ويقول أهلها: رجل غاضب، ساخط على نفسه وعلى الناس أجمعين. أحمق، حاقد. الصبر.. الصبر.. ولماذا؟ أي خير في حياة كلها مجابهة وخصام؟ لا يحبك من لا يحب أهلك!

جفّ المعين وصار العطف كله نحو ماريا المتخيلة.

* *

خميتة: ماريا في مرحلة لاحقة، بعد أن قضت سنوات في باريس.

يعود إدريس ويلتقي بها بالمصادفة. تسكن ميدان فرستنبرغ (حلمه الطويل). تلعب دوراً في وسط ضيق، بسبب امرأة مسنة أنيقة غنية (شكل مدام ولتر) تملك جريدة ودار نشر وتتطلع إلى نفوذ سياسي، وسط جماعة من المهاجرين والطلبة والصحفيين.

نتعرّف إلى حياة إدريس بطريقة معكوسة، في مقابلة/ مرافقة مع رجل يدّعي أنه صحفي سياسي في حين أنه في خدمة الخصوم.. سخرية مرّة.

* *

يوليو 27

أشارك لأول مرة في ملتقى الفكر الإسلامي الذي تنظمه كل سنة وزارة الشؤون الدينية في الجزائر. ما كنت أقبل الدعوة لو لم

أقرأ مساهمة علال الفاسي في دورة وهران حول السياسة الاقتصادية من منظور إسلامي. قرأتها بإمعان وناقشتها كما ناقشت قبل سنوات ما جاء في كتابه **النقد الذاتي**. والآن أشعر وكأني في سجن، أعدّ الأيام وأفكر في وسيلة أتذرع بها لمغادرة البلاد.

يبدو وكأن مولود قاسم وأحمد الإبراهيمي لا يمثلان الحكومة نفسها مع أنهما ينتسبان معاً إلى التيار الإسلامي ورغم أنهما قريبان، على ما يُقال، من بومدين. هل الدولة موزعة إلى إقطاعات مستقلة؟ وهؤلاء الأجانب القادمون من ألمانيا والسويد وإيطاليا.. هل يعتقدون ما يقولون عن الإسلام وعن الجزائر؟

شاهدت البارحة مشهداً مخجلاً، لا يصدّقه من لم يره بأمّ عينيه. مولود قاسم، الوزير المسؤول عن تنظيم الملتقى والذي استدعى رسمياً وشخصياً الضيوف، يوبخ من أعلى المنصة الباحث اللبناني ميشال حايك لأنه فاه بجمل عن الدين المسيحي لم ترق الوزير، القبائلي الأصل والذي ربما خشي أن تستغل ضده. وميشال حايك هذا تكلم بلغة عربية راقية في مستوى أبلغ ما كتبه الغزالي أو ابن عربي. رأيت الدموع تسيل على خدّه والوزير الجلف متمادٍ في توبيخه.

حضرت الملتقى لأني رأيت فيه مناسبة لأقدم دراسة شاملة على أعمال فون غرونباوم، كان قد اشتكى للأب قنواتي أن أعماله لم تدرس بعمق. قال الأب: يودّ أن أقوم بهذا العمل لكنه يكتب كما يكتب الألمان.. سلسلة من الملاحظات المتناثرة ولا خيط يربط بينها. بماذا نمسك وعلى من نعتمد لمناقشته؟ بعد الإعلان عن وفاته رأيت أن ألبي رغبته، أن أراجع كل كتاباته محاولاً وضعها في إطار نظري عام. وحتى إن نقدته بشدة فإن ذلك كان يرضيه بدون شك لأنه يضعه في مستوى المفكر لا الباحث النبّاش على الدقائق

والجزئيات كما وصفه بعض الفرنسيين. قلت: أي منبر أنسب للتعريف به من ملتقى إسلامي يعقد في منطقة المغرب التي كان يعقد عليها آمالاً كبيرة كصلة وصل بين الشرق والغرب بعد أن يئس من الجيل الجديد من المثقفين المشرقيين. كان لا يفتأ يقارن بين تزمّتهم وبين تفتح من سبقهم من المفكرين الأحرار مثل لطفي السيد وأحمد أمين وطه حسين وتوفيق الحكيم.

وجاء الدليل على صحة رأيه في تعقيب عثمان أمين على دراستي. ذكر أصوله العرقية وانتماءه الحضري وخدمته السياسة الأميركية. ولم يعرج على فحو مقالي.

* *

أغسطس 13

يكتب ياسين الحافظ: «تسألني عن إقامتي في الجزائر. لقد أفادتني بالطبع. ولكن هل أرضتني؟ لست أريد المجازفة بإجابة قصيرة قد تراها انزلاقاً إلى أحكام عاطفية وسريعة. وعلى كل حال، وفي ظل المرارة والمهانة التي نعيشها في المشرق، فإنني لم أجد فيها العزاء ولم أجد الأمل. فكلنا في الهمّ شرق. لقد أبديت انطباعاتي لأصدقاء جزائريين يحتلّون مراكز مسؤولة. ولم أخف عنهم ما هو جوهري ومبدئي في انطباعاتي. لم يحر أحدهم جواباً رافضاً. وكان صديقي الباهي محمد حاضراً بعضها، وقد أيّد، بيني وبينه بالطبع، وبعد نقاش طويل وتردّد، صحة انطباعاتي. لقد ازددت اقتناعاً ـ من تحليلي السريع للجهود الجزائرية في التنمية وفي سياساتها المغربية والعربية والدولية ـ أن العروبة ليست خياراً سلفياً وعاطفياً، بل هي، موضوعياً، خيار ثوري وجذري، يضعنا في مواجهة، لا تصالح، مع الامبريالية. وفي هذه المواجهة، وخلال

هذا التوتر بين العجز والأمل، ستتزلزل البنى القديمة التقليدية. طبعاً إن العروبة، بدون العقلانية والحداثة التي طالما دعوت إليها، محقاً، بدون جهود للتصنيع جدّية، سيبقى مجرد ثرثرة فارغة. ولكن هذه العروبة هي الشرط اللازم، ولا أقول الكافي. ما ذنب عبد الناصر، الذي استمرّ الغرب يدوسه بأقدامه منذ العام 1955 وحتى مات، سوى أنه نادى بالوحدة العربية؟ لقد كانت جهوده في التنمية أبسط بكثير من جهود بومدين، ومع ذلك غزيت مصر مرتين خلال عشر سنوات. أما عندما أمّم بومدين البترول الفرنسي فلم ينعقد حتى حاجبا بومبيدو غضباً..».

* *

الأربعاء 16

تتوالى فصول المسرحية ويرتفع عدد الضحايا والأمة صامتة.

تتوالى الفواجع كما توالت من قبل المشاريع والوعود.. بسرعة تجعل المرء عاجزاً عن التفكير والاستيعاب، فيلجأ إلى الصمت ويوكل كل شيء إلى «الزهر».

* *

الخميس 17

تأخرت رحلة عصام إلى جنيف من الساعة 9:25 إلى الساعة 15:40.

سنقول له يوماً، إن كان لنا يوم نستقبله نحن الثلاثة، ركبت الطائرة أول مرة وأنت واعٍ بما تفعل، يوم أذاعت الوكالات الدولية أن الجنرال الذي كان يهابهُ الكبار والصغار قد قتل (**ريبورتد كيلد**).

* *

الجمعة 18

حاجز أمني على طريق تمارة. سأل الدركي: أين تشتغلا؟ قلت: في كلية الآداب. ردّ: أتمنى أن تسمح لي الظروف فأسجل في الجامعة.

أهذه حواجز؟ أهذا تفتيش؟

قيل: أوفقير رأس المؤامرة، كبير الخونة. انتحر بعد أن انشكفت خيانته.. كم عدد الخونة؟ ألف.. هل يمكن؟ هل يعقل؟. مآسينا على قدّ حالنا..

* *

الخميس 24

أقرأ مطولة تيبو التي ألّفها روجي مارتن دي غار، رفيق أندريه جيد. تاريخ أسرة على طريقة زولا لكن بأسلوب أكثر تفنناً وانتقاء. الواقعية هنا تاريخية وليست طبيعية، هذه متولدة عن الرومانسية وتلك تنزع إلى الكلاسيكية.

ملاحظة: كيف يحصل أن يواصل المرء إنتاج هذا النوع من الأدب بعد أن اطلع على رواية بروست؟ المادّة واحدة رغم ما يتبادر للذهن، الفرْق في الأسلوب، أي في النظرة إلى الكون وإلى الحياة. يكتب مارتن دي غار، بكل وعي وبكل أمانة، رواية بورجوازية. ميزته الوضوح والصراحة والشفافية، وكلها صفات تذكّر بكتابة تولستوي وطوماس مان. في الواقع يذهب أبعد من هذين الكاتبين في النهج نفسه. لا توجد عنده أية إشارة إلى الانحلال أو الضعف أو التمايع. هل احتفظ كل من تولستوي ومان بشيء من إرث الطبيعيين وميلهم إلى تصوير الوحشي والمشوّه كعلامة إتمام وإلمام؟ لا يمس مارتن هذا الوتر، على الأقل في

عمله الأدبي، رغم صداقته الحميمة مع أندريه جيد الذي عرّف المثقفين الفرنسيين إلى خفايا النفوس عند دوستويفسكي وكونراد.

المشكلات التي يطرحها مارتن دي غار هي بالضبط تلك التي تحظى باهتمام المعلّمين الفرنسيين المشبعين بقيم الجمهورية العلمانية. هدفه أن يكون الشاهد الأمين على تطورات المجتمع، العامّة العادية، ويشارك في إبراز وعي جماعي معتدل ومسؤول. إلاّ أن هذا النوع من الأدب، إن كان فعلاً من الأدب، رغم الأسلوب الرصين المنتقى، مهدّد من وجهين: الاستطلاع الصحفي كالذي يقوم به جوزف كسّل من جهة والتحليل التاريخي في صورته المعاصرة، ما يسمّى بالتاريخ اللحظي، من جهة ثانية. كل هذه الأساليب التعبيرية تسقط قواعد اجتماعية عامّة على تجربة فرد بعينه: عملية تشخيصية بالمعنى البدهي. إن الرواية التقليدية مطوقة اليوم من كل جانب، من السينما والتلفزة والصحافة والتأليف التاريخي. ما هي خصوصيتها الآن؟ عندما نتكلم عن الواقعية أو الواقعية النقدية فإننا نعني فقط، وهذا ما ندركه اليوم بكل وضوح بسبب تكاثر وسائل التعبير، مقالة مشخصة. ما كان يكتب قديماً - في الآداب العربية مثلاً - في شكل محاورة أو مناظرة أو مقامة أو رسالة، صيغ في القرنين الأخيرين في شكل رواية توظف فيها الأشكال السابقة. الروائي الحديث (بلزاك، ديكنز، زولا، إلخ) هو صحفي الديموقراطية الناشئة، حيث حرية التعبير مقيدة بالقانون وبالعادات وبالمعتقد. كان اللجوء إلى «التمثيل» ضرورياً (قارن مع ظروف تأليف كليلة ودمنة). أما اليوم فإن الأوضاع مختلفة، على الأقل في الغرب. يستطيع كل فرد أن ينشر، في الصحف وفي غيرها، ما يشاء مهما كان عنيفاً أو بذيئاً - حتى أدب الخلاعة وهو آخر ملجأ للكاتب الساخط - لم يعد يمنع. تخشى السلطة عواقب

المنع أكثر مما يتحاشاها المؤلف. أين إذن مجال الرواية النقدية؟ القارئ يعرف مسبقاً كل المنافذ. لم يبقَ إذن إلاّ قلب الاتجاه، أي معاكسة الواقع التاريخي عوض مصاحبته. وهو ما يفعله الروائيون «الرجعيون» ـ الكاثوليكيون بخاصة ـ الذين يستثمرون إرث دوستويفسكي مع كثير من التبسيط..

* *

الأحد 27

البحر جميل، يزداد جمالاً كل يوم. دافئ هادئ، لونه يميل إلى الأخضر. والسماء مبيضة بضباب خفيف كما هو الحال عادة أثناء شهر أغسطس.

* *

الاثنين 28

أنهيت قراءة تيبو. حشر المؤلف في الجزء الأخير كل ما فضل لديه من وقائع. فتحول العمل إلى ملخص تاريخي. سئم وتعب أم التفت بغتة فلم يجد أحداً من رفاقه القدامى؟

* *

الثلاثاء 29

شاهدت في قاعة رينسانس شريط ركبة كلير للمخرج الفرنسي أريك روهمر. يعاكس بوعي سير التاريخ ويعود إلى ثرثرة القرن الثامن عشر عندما كان الناس يتطلعون إلى الجديد ولا يستطيعون تصوره.. ماريفو في ديكور أنطونيوني. أناقة ولقلقة، ملاعبة وعجز.

لم يبقَ أي صدى لأنين تشيخوف.

* *

الأربعاء 30

الطقس جميل، السماء زرقاء صافية. والصمت يعمّ المخلوقات. لا أحد يتعرّض لما حدث. وهل حدث شيء؟

* *

الخميس 31

بدأ لون البحر يتغيّر، من الأخضر الداكن إلى الأزرق الصافي. في مثل هذا الفصل تنتشر جراثيم الزكام. لو أذهب إلى مراكش؟ أجس النبض وأنفث ما في الصدر وأتابع التفكير في مشروع الرواية، لكني سجين البحث عن جذور الوطنية.. يتشعب ويردني إلى فضاء الماضي. يضيء الراهن دراسة الماضي وهذه لا تضيء الراهن إلاّ في حدود. أغلقت عليّ كل المنافذ، بلا فائدة.

* *

وصلت رسالة من لطيفة. تقول إنها مضطرة إلى ملازمة الفراش وإن عصام في حضانة سيدة تدعى مدام لانج لها خبرة في هذا المجال. تقرأ روايات كوليت وتشعر بالسأم. يرفض عصام أحياناً مفارقتها فيتستّر في دخاشيش الفندق. الرسالة مزينة ببعض خربشاته. قالت الدكتورة إنه غير راضٍ على إقصائه في دار الحضانة لأنه يخضع فيها لقواعد سويسرية صارمة.

لا بدّ أن ألتحق بهما رغم الجو الثقيل المخيم علينا هنا.

* *

سبتمبر 2

مكالمة من لطيفة.. متفائلة.

لكني أشك أن تنتفع حقاً من ملازمة الغرفة.

* *

الاثنين 4

جاء الخبر المؤلم ليحيي ذكريات مرّة. كنت راضياً بعصام وبه وحده. لكن الأطباء يغرون النساء بقولهم، الحمل يعيد الشباب. ما كان لي أن أعارض بعد أن صدرت مني تلك الكلمة القاسية: تزوجت المرأة الوحيدة في كل البلد التي ترفض الإنجاب! كل ما أودّ الآن هو أن تسلم، جسمانياً ونفسانياً، وأن نطوي معاً الصفحة. نرضى بما لدينا ولا نطلب المزيد. هذا هو سرّ الشباب.

* *

الخميس 7

علي أن أغادر القطار ثلاث محطات بعد لوزان.

الطقس دافئ، ربما حارّ بالنسبة للأهالي. البلد يسمّى **ايكل** والمصحة قرب المحطة. . مصحة ريفية أرقى من مستشفيات عديدة، عندنا وفي بلدان أوروبية كثيرة. . نتيجة المناخ المعتدل والعمل المتواصل والتربية والوعي بالمسؤولية، لدى الجميع وإزاء الجميع.

ايكل قرية جبلية شبيهة بقُرى أخرى زرناها معاً في مستهل علاقتنا، **درونيرو** في بيمون إيطاليا، **آيدلويس** وراء لوس أنجليس.

* *

أسكن نزل ماري ـ لويز (من هي هذه الأميرة؟) بعد عيادة لطيفة وزيارة عصام عند مدام لانج المربية المحنكة الوديعة. لا يشعر عصام، على ما يبدو، بأي قلق.

يوجد تلفاز في قاعة الأكل، مفتوح باستمرار. تلاحقني صور

من الوطن، ليس فيها ما يفرح. دراكولا يعلّق على أفاعيل فرانكنشتين!

* *

الجمعة 8

مأساة في أعقاب أخرى. ضجّة لا مثيل لها عن حادثة ميونيخ. يتساءلون جهراً وبدون تردد: هل هؤلاء بشر؟ ومن يتساءل؟ الألمان!.

في ظرف مثل هذا، إزاء هذا التصرف الأخرق، يبدو أن ما أكتبه عن «كونية القيم» مجرّد وهم، أتشبث به لأغراض مصلحية بحتة. في الواقع عقلانيتهم تولّد لاعقلانيتنا، إلاّ أن الأولى ليست في مستوى الثانية. وهذا فارق لا ينتبه له الكثيرون، منّا ومنهم. لو كنّا نردّ باللاّعقلانية على لاعقلانيتهم لجاز الأمر، ولكننا نعمّم جاعلين منها (أي لاعقلانيتنا) قيمة قيّمة، خاصة بنا وقابلة للتعميم، فنردّ بها حيث لا يجب ولا يفيد. المأساة هي أن يضطرّك الخصم إلى ارتكاب الخطأ والتمادي فيه.

طيب، لنقل إن الشطحات حول حادث ميونيخ يعلّل ويبرّر شطحات ملتقى الجزائر. أي عزاء لنا في هذا الإقرار؟ ماذا يفيد الجماعة أن أعترف أنا بالخطأ؟ الواقع لا يرتفع. والواقع المؤلم هو أن لاعقلانيتهم ظرفية، تظهر لتغيب، في حين أننا نصرّ على أن تلازم لاعقلانيتنا كل حركاتنا.

* *

أكتوبر 3

يكتب ياسين الحافظ بعد رحلة غير موفقة للجزائر:

«لست أدري إذا كنت تستغرب أم لا عندما أقول إن الكتاب العربي التقدمي (المشرقي) لم يدخل الجزائر بعد (مع أنه يدخل المغرب بحرية ويدخل تونس بنصف حرية). في الجزائر لا يستوردون سوى الكتاب العربي التقليدي أي كتب التراث الإسلامي..».

لا أستغرب ذلك لأن الجزائر تقدم الإسلام على العروبة. الكتاب العربي، في عين حكامها، إسلامي بالتعريف وأما الكتاب التقدمي فهو الفرنسي. وعود وزير الثقافة لا تنفع إذ مجال تصرفه محدود بمجال وزير الشؤون الإسلامية، وهو قبائلي، ومجال وزير المالية والاقتصاد، وهو قبائلي كذلك. واقع غائب عن المشارقة. لمست ذلك عندما كنت أحاور لطفي الخولي في القاهرة صيف 1960. يستمع إلى توضيحاتي، يدرك الخطأ في تحليلاته، التي كان ينشرها على أعمدة **الأهرام** أثناء مفاوضات افيان، ثم يقول: بايخ! بايخ!

* *

نوفمبر 7

وحكمت المحكمة..

* *

الأربعاء 8، باريس

شاهدت فيلم **الاعتداء** للمخرج الفرنسي إيف بواسه. كتب السيناريو جورج سانبرون، الشيوعي الإسباني اللاجئ إلى فرنسا. استوحى القصة من قضية بن بركة. جعل من البطل الذي يحمل اسم كسّار، اسم عجيب من وحي بعض المستعربين بدون شك، شخصاً رومانسياً يعشق الأرض والسماء والنساء والعمّال كأحد

أبطال مسرحيات لوركا. كل ما جاء في الفيلم ـ علاقة البطل بأستاذه وبالقصر وببطل الفيلم الحقيقي (د.) المثقف الباريسي الذي يمارس السياسة كهواية فيحترق بها بسبب تردده ووفائه للقيم الأخلاقية ـ كل ذلك غير مطابق لما هو معروف عن بن بركة. فيلم خيال لا تاريخ. لا عيب في ذلك لولا أن المخرج والممول وكاتب السيناريو يحاولون استثمار حادث كان له صدى ولا يزال. يحق لنا أن نقول إن التعاطف السياسي لا يكفي وإن المشروع فاشل لكثرة الأخطاء. اللوحة الوحيدة المطابقة للواقع هي التي يَعرض فيها البطل رأيه في سياسة الحزب الشيوعي الفرنسي.. لولا أنها تنتهي نهاية سيئة.

شتان بين هذا العمل المبتسر وفيلم فرانسيسكو روزي حول مقتل انريكو ماتّيي! آه لو ساعدت الظروف على كتابة قصة ما قاله ماتيي للمهدي بن بركة في فلورنسا خريف 1958!

* *

الخميس 9، نيويورك

في طريقي إلى اجتماع الخريجين العرب من الجامعات الأميركية المنعقد هذه السنة في بركلي. حطت الطائرة عند الساعة الثانية إلاّ خمس دقائق. الإقلاع إلى سان فرانسيسكو سيكون عند الساعة الخامسة. المبنى جديد، لكل شركة جناح خاص بها، لا ازدحام ولا لغط، كل واحد منكب على عمله بوعي وإتقان. التفتيش عام ودقيق، بسبب حادث ميونيخ. مع ذلك لم يخطر ببال أحد أن يمنع اجتماع بركلي.

* *

الجمعة 10، بركلي

يُقام الاجتماع في فندق كليرمونت، اسم يقترن بذكريات

حلوة. تذكر البناية بأحد قصور الريف الإنجليزي. وجدت عبد الباقي هرماسي ينتظرني في اللوبي رفقة خليلته الجديدة. قدّم لي بعض الأعضاء البارزين في جمعية الخريجين: نبيلة مانجو، فلورا آزار، فيث زياده، ليلى ميّو. أسماء عرب أميركا، أسجلها للاستعمال لاحقاً.

أسمع رجلاً ورائي يقول: رب لم يبقَ لنا منه سوى تحريم أكل الخنزير وتحليل كنز الذهب. أيكون المعنى لأبي العلاء؟ لم ألتفت لأرى وجه القائل.

* *

السبت 11

نجما المؤتمر هما پاپندريو اليوناني الذي يدرس الاقتصاد في كندا والذي دخل أميركا سرّاً، على ما قيل، ويغادرها تواً أثر إلقاء خطبته، ووليد خالدي الذي يشبه ابن لورد إنجليزي. يحكى أن عبد الناصر، عندما استقبله سنة 1956 بعد استقالته من هيئة تدريس جامعة أكسفورد عقب الاعتداء الثلاثي، لم يصدق أنه عربي حقاً. قال إنه سيكتتبني لفائدة مجلة **دراسات فلسطينية**. تكلّم بإنجليزية جدّ بليغة. حكى أن كيسنجر أقترب منه مرّة أثناء حفل في جامعة هارفرد ولما نطق بعبارة السياسة الصهيونية فزّ الهرّ دكتور كما لو رماه بقنينة زيت حارقة.

أتذكر ما كتبه ونستوك في مؤلفه عن الحركة الوطنية الفلسطينية. قال إن أحد أسباب عدم تأثير العرب في السياسة الإنجليزية، حتى أثناء الفترات التي توتّرت فيها علاقات سلطة الانتداب والنازحين اليهود، هو ذلك الحقد الذي كانت تكنّه الجماهير للأعيان. واضح أن وليد سليل تلك الطبقة. هل يسمع كلامه البليغ المعقول هناك؟

جين جيكوبس يهودية أميركية نبيهة أنيقة، اهتمت بما قلت في عرضي. قلت إن الثورة الفكرية التي أعقبت هزيمة 67 خنقت خنقاً بسبب تحالف بئيس بين أنظمة متضاربة المصالح والأهداف، من ضمنها ليبيا والجزائر. فلا مناص للفلسطينيين من إعلان استقلالهم الفكري والسياسي. عليهم أن يطرحوا على أنفسهم أسئلة في غاية الصعوبة وأن يحاولوا الإجابة عنها بدون مراوغة. ما هي الأمة الفلسطينية؟ مكوناتها وخصوصياتها؟ ما علاقاتها الموضوعية، حالاً ومستقبلاً، بالكيانات المجاورة، بما فيها الكيان اليهودي؟ ما هو شكل الوحدة العربية الذي يخدم مصالحهم في المرحلة الراهنة من نضالهم؟ أية دولة ينشدون؟ إلخ. التهرب من مواجهة هذه المشكلات المقلقة بترديد شعارات الآخرين يؤدي حتماً إلى هزيمة جديدة.

* *

الأحد 12

رافقتني هرماسي إلى المطار بعد أن تأخر موعد الرحلة إلى غاية الخامسة. جاءت معه خليلته الوديعة الناعمة. تكلمك برتابة ونعومة مخدرة كما لو كانت ممرضة. ولدت على شاطئ البحر، **أوندين**. قالت: لوس أنجليس صحراء قاحلة، عاطفياً وفكرياً. أجبت: ومع ذلك لها ميزتها. قلت ذلك وفي ذهني روايات تشاندلر. لم تدرك قصدي.

* *

الاثنين 13، لوس أنجليس

استيقظت في الغرفة نفسها من فندق **كليرمونت** التي سكنتها مع لطيفة أول ما جئنا إلى أميركا، عندما كنت متردداً بين الغربة

والأوبة. لم يتعود جسمي بعد على التوقيت المحلي.

جالس في مطعم شيبس انتظر أن تأتيني المضيفة بما كنت أحلم بأكله منذ شهور: بغرير أميركي مروي بعسل القبقب. دخلت مرة هذه القاعة مرتدياً قميصاً وسروالاً من الدنيم الإزرق، لباس عمّال «الموقف». التفت إلي الحاضرون محدقين كما لو كنت متنكراً أو في طريقي إلى استوديو يونيفرسال.

وستوود قرية حقيقية.

* *

الثلاثاء 14

على عكس المعهود كان الطقس صحواً في سان فرانسيسكو وصادفني في لوس أنجليس برد لاذع ومطر متواصل. لم ينقطع منذ السادسة من مساء أمس. لا أستطيع مغادرة الغرفة والالتحاق بالمطعم.

* *

قابلت كاتبة فون غرونباوم، متحسرة كئيبة. اشتغلت معه أكثر من عشر سنين فتشعر وكأنها فقدت زوجها. ومدام غرونباوم، الألمانية النحيفة، الشاعرة الغارقة في أحلام مؤلمة، تشتغل الآن في مكتبة الجامعة لتقاوم الحزن والوحدة. تلقت دروساً في علم المكتبات. شاركت في مباراة ونجحت. أما ابنتاها فقد فضّلتا الالتحاق بجامعة بركلي.

تألمت لرؤية مدام غرونباوم وقلت: هكذا تنتهي الهجرة. المهاجر مهجور، مهما فعل، في حياته وفي مماته. مات الرجل قبل أن يوظف كل المعلومات التي كنزها منذ عقود. كل ما قال وكتب إلى الآن سيذوب في بحر النسيان. لن يذكر في أي مرجع.

تنكرت له ڤيينا، مقته العرب والمسلمون، لم يعترف به اليهود أو المسيحيون، في أوروبا أو في أميركا. في النهاية الثقافة، مثل الثروة، لا تحمي من النسيان. كل ما سيجنيه هو أن يطلق اسمه على المعهد الذي عمل على تأسيسه.

معهد فون غرونباوم للدراسات الشرقية.

من هو غرونباوم هذا؟

باحث ألماني مغمور بلا شك.

كنت طالباً في معهد الدراسات السياسية بباريس ومدة ثلاث سنوات تخطيت كل صباح مدرج إميل بوتمي. إلى يومي هذا لا أعرف من هو بوتمي.

* *

ظنت الكاتبة أني جئت إلى لوس أنجليس لألقي محاضرة أو أعقد لقاء مع الزملاء. تعجبت عندما طلبت منها شهادة خدمة حتى استرجع ما ساهمت به في الصندوق الاجتماعي. أدركت أنها تراني للمرة الأخيرة فانحسرت البسمة على وجهها. جئت بالفعل لأضع حدّاً لفصل من حياتي تحوّل إلى ذكرى ساطعة بعد أن قررت في وقت ما أن أجعل من مقامي في أميركا مجرد جولة سياحية.

كان ولپرت، أستاذ تاريخ الهند، قد سألني قبل أن أغادر لوس أنجليس المرة الثانية: سمعت أنك عائد إلى بلدك لأن مستقبلك الآن مضمون هناك؟

من يطلق مثل هذه الإشاعات؟

* *

تجولت في وستوود ولاحظت أن محلات كثيرة كنت اختلف

إليها قد أقفلت، فتغيّر بذلك وجه الحي في أقل من ثلاث سنوات. يبدو أن هذا أمر عادي في أميركا لأن الإيجار يعقد لتلك الفترة بالذات وبما أنه في ارتفاع متواصل فلا يجدد العقد إلاّ من عرف مشروعه نجاحاً كبيراً. أما النجاح المتوسط فإنه لا يفيد. لا تتعلق إذن الذاكرة بهذا المحيط المتغيّر، بل بالمستقبل. يتكلم الأميركان على جيل الستينات كما نتكلم نحن عن القرن الماضي.

لا ينفع أن أسجل متى وأين تقلع الحافلة إلى المطار. لكل يوم تقويمه. صعب تلقين هذا الدرس لمن لم يعش هنا.

* *

الأربعاء 15

من الطائرة القاصدة شيكاغو ألمح مناظر تذكرني بالمغرب. أرض عارية، لا شجر ولا بشر. المسالك مستقيمة إلى غاية الأفق. الطرق المنجورة قليلة. أتصوّر أن حِيَل الإنسان لم تنفع هنا فظلّ هذا الجزء من نيفادا على حالته الأولى. ما تراه في لوس أنجليس خرق للطبيعة كلّف أموالاً طائلة تكدست في المنطقة الشرقية والجنوبية من البلد.

إرادة وتصميم وعمل دؤوب لكن على أساس مال موفّر وافر.

* *

شيكاغو مدينة مفتوحة على رياح الشمال القارصة. تشبه زوريخ في موقعها، على شاطئ بحيرة ميشيغن، وفي معمارها كذلك. ليست، كما يتصوّر البعض، مدينة آل كبّونه فقط، بل مركز علم وفن وأدب، كما هو حال زوريخ. يتعلق بها من يسكنها مدّة. يُقال إن بعضهم يسبح في البحيرة حتى أثناء فصل الشتاء، برخصة. ألا تجمد؟

طال النقاش مع زوجة أبو اللغد العنيدة اللاذعة. تعرف المغرب ومدينة الرباط بخاصة، تنوي أن تدرسها كما درست القاهرة. تتكلم عن **الأپارتايد** في المغرب، متأثرة بما كتبه الفرنسيون بعد الاستقلال. لم تعر وزناً للإرث الاستعماري.

يتشكى أبو اللغد من كونه احتجز، عند سفره الأخير إلى المغرب، في المطار طويلاً بسبب جوازه الأردني في حين أن زوجته اجتازت كل العراقيل بجوازها الأميركي!

* *

السبت 18

من يسافر على متن طائرة **اير فرانس** الرابطة يومياً باريس بالبيضاء، والتي تقلع من أورلي عند الساعة العاشرة وربع، يرى وجه الإنسانية القبيح: المعمّر العجوز الذي لم يعرف أبداً معنى الأناقة والذي يتكلم بصوت مخمور، المرأة الحديثة الثراء رفقة خليلها الفرنسي والتي تحمل حقيبة جلدية ثمينة، رجل الأعمال الذي لم ينجح في مقاومة البدانة والذي يتصنع دماثة الأخلاق، الموظف الصغير الذي يرتدي لباس طراز. . كل هؤلاء يتبادلون التحية كما لو كانوا في صالون. . وبينهم بعض العمال أو التجار المهاجرين وبعض الطلبة القابعين في ركن مطأطئي الرؤوس، لا يخاطبهم أحد. .

ثم هنا وهناك سواح غافلون عمّا يجري حولهم.

* *

ديسمبر 11، تونس

كتب مراسل جريدة **العمل**: «تكلّم الأستاذ العروي على منبر الجامعة التونسية حول مستقبلية التاريخ. . ونحن نقدر فيه سبقه

لكثير من شؤون التاريخ العربي.. كما نقدر فيه نظرة تنفي التعصّب الأعمى أو التقديس الأصم».

فرق بين تونس والمغرب، ما هو السر؟ ألأن الاسم معروف هنا ومجهول في مناطق كثيرة من وطننا؟ طبعاً لا. السبب هو المنع. يدور النقاش عندنا سرّاً فتحور الأفكار وتشوّه المواقف.

يقول الجنحاني إن ما يحيّر اليسار التونسي هو موقفي من التعريب. لا يرون أني أخشى فوق كل شيء انشطار المجتمع على أساس لغوي - ثقافي - اجتماعي، كما هو الوضع في بعض أقطار أميركا الجنوبية وكما كان عندنا أيام الاستعمار. عندها تكون الحركة الوطنية قد فشلت فشلاً ذريعاً.

* *

الثلاثاء 12، فلورنسا

يفهم الإيطاليون مشكلات العرب تلقائياً لأنهم لا يزالون يعيشون بعضها. لا يعطفون على العرب بقدر ما يدركون انشغالاتهم. قلت هنا ما سبق أن فصّلته في لوڤان لكن شتان بين الأثر هنا وهناك.

قلت: «تبدو اللاّتاريخانية وكأنها تساوي بين الشعوب وبين الثقافات - بعكس النظرة الاستعمارية التطورية - فننخدع ولا ندرك أننا باعتناقها نقبل ضمنياً تبعيتنا للغير». هذا نقد للباحثين - الشعراء الذين يرفعون راية الغيرية والحق في التمايز والاختلاف، استغربه الحاضرون في ملتقى لوڤان في حين أن الإيطاليين، تلامذة كروتشه وقُرّاء غرامشي، أدركوا مغزاه بدون أدنى صعوبة.

* *

قدمني أحد الزملاء المصريين إلى لويجي بايطه، المكلّف داخل

قيادة الحزب الشيوعي الإيطالي بشؤون العالم الثالث. قال: عندكم شيوعيون ملكيون على ما أرى. كان يشير إلى تصريح صحفي لعلي يعته يهنيئ فيه نفسه وحزبه والشعب المغربي على فشل المغامرة التي قادها الجنرال أوفقير الفاشستي. كنت أجهل كل شيء عن ذلك التصريح فلم أعلق عليه. وحتى لو كنت قد قرأته لما ناقشت فحواه أمام الأجانب.

منذ أن كان وعلي يعته لا يتوخى إلاً أمراً واحداً وهو أن يقبل حزبه ضمن الأحزاب الوطنية المساهمة في اللعبة السياسية. العمل الثوري بالنسبة إليه هو التأثير السياسي والفكري في النخبة الوصية على المجتمع ككل. فأتباعه لا يحبون ما أقول لأني أمزق الأقنعة وأكشف الواقع. يخاصمونني كما لو كنت عضواً في حزبهم. وليسوا وحدهم أنصار «التقية». كنت قدمت عرضاً أمام الطلبة الاستقلاليين في إطار التحضير للمؤتمر الاستثنائي سنة 1955، فعقّب مهدي علوي: هل من مصلحتنا أن نصرح بكل شيء؟

* *

1973

يناير 19، باريس

لم يحضر جرمان عياش مع أن حرب الريف هي موضوع رسالته. وحضر آخرون، منهم من يستحق ومنهم من لا يستحق. يضع المناظرة في سياق الأحداث من غادر المغرب منذ عشرين سنة. قال أحدهم: يؤخذ علينا أننا نرى الأمور من بعيد لكني أشعر حسب أصداء الداخل أني أقرب إلى رأي الشعب من أولئك الذين ينتقدوننا.

ما كان لي أن أتغيّب رغم يقيني أن اللقاء سيستغل في اتجاهات متباينة. كتبت أشياء عن ابن عبد الكريم أغضبت الكثيرين. فهذه فرصة لأوضح موقفي. تقيدت في هذا الشأن بما وجدت في الوثائق وما سمعت من الشهود، زيادة على أني قابلت المعني نفسه وأعضاء أسرته في القاهرة. كنت آنذاك محاطاً بأبناء الشمال، الطريس وأعوانه من قدماء حزب الإصلاح، الذين كانوا يحفظون الرواية التطوانية.

يحق لكل منا أن يقول ما يشاء عن تجربة الريف لكن لا يجوز اختزال تاريخ المغرب الحديث فيها وحدها. نحتاج إلى مصالحة وموازنة لا إلى حذف وطمس. قلت في مناسبات عدة، وفي هذه

كذلك، إن الوطنية المغربية تغذت من رافدين، لكني لم أضعهما أبداً في مرتبة واحدة، وبأحرى لم أستبدل أبداً «الإيجابي» «بالسلبي»، المعرب بالمبهم. هذا أمر لم يخطر أبداً على بالي. «السلبي» هو ما أهمل، ما لم يؤخذ في الاعتبار، لسبب بديهي وهو أنه لم يعرف طريقه إلى العبارة الواعية. لذلك كان قوة معارضة ومجابهة لا وسيلة تأسيس وبناء. المطلوب اليوم هو أن ندخله، نحن الدارسين، في المعادلة، لا أن ننسف به ما سبق التركيز عليه.

صفق الكثيرون، بعضهم عن حسن نيّة والبعض الآخر حسب تأويلهم الخاص. يظنون أني أعتمد الإيماء في حين أني أقول ما أقول لا أكثر ولا أقل.

تختلف آراء الأجانب حسب الجنسية (الفرنسيين وغيرهم) وحسب الانتماء السياسي (اليمين واليسار)، لكن يتفق كلّهم في عدائهم للدولة الشريفة. يرون فيها رمز الإسلام والعروبة والملكية والإقطاعية والرأسمالية والعبودية والذكورية إلخ. كل واحد يشخّص فيها ما يمقت في مجتمعه. ويبقى بالطبع خارج هذا التيار الحاقد اليمين المتطرف الغارق في التقليد، المتعالي عن الراهن، المنزوي في قلاعه المتداعية، يندب حظ الشعوب ويرثي تساقط العروش. فهذا يعبّر عن إعجابه وولائه ويدعو إلى الوفاء والصمود، لكنه لا يحضر المؤتمرات ولا يكتب في الصحف. فما فائدته؟

* *

مقابلة طويلة مع حميد برادة. يقول إن عمله في **جون افريك** يتيح له الفرصة للاطلاع على أسرار قلّ ما تنشر. يحاول أن يجرني إلى الحاضر فألجأ إلى تحليل الماضي. فيصر على ضرورة التوضيح. هل المشكل اليوم هو أخذ المبادرة ولو بمساعدة من

الغير؟ أقول: أخذ المبادرة في الداخل وفيه فقط. وهذا أمر ممكن. لا أزال أؤمن بضرورة توحيد الصف الوطني ولو مقابل تنازلات للجناح التقليدي.

لا يتكلم عن نفسه. يسمع ولا يمتعض. طبع أم تطبّع؟ ما أسعده!

* *

فبراير 21

إعلامنا في غاية الغباوة. أمس فسّر لنا سعادة الوزير أن القذافي عميل. وها هو اليوم ضحية اعتداء سافر على إحدى طائراته فوق سماء سيناء!

* *

فبراير 22

تقرر إرسال تجردة عسكرية إلى سوريا. كان يُقال لنا: لا نودّ أن تتسرب أفكار فتاكة إلى جسمنا السليم. ماذا حصل إذن؟

* *

فبراير 23

حاضر علال رفقة المهدي بن عبود وآخرين.

مستواهم الإيديولوجي ضعيف. أفكارهم مأخوذة من أدبيات الماركسية المبسطة (الماركسية الموضوعية). يحتفظ علال بقدرته الخارقة على المناظرة الشكلية. إلاّ أن قوته الحقيقية تكمن في تأويل الآيات القرآنية على ضوء مستجدات السياسة. يجعلك تعتقد أنها تطابق فعلاً النازلة. يحول الجمع إلى «حلقة» بالمعنى العادي للكلمة، حلقة استظهار الحق في وجه الظلم والطغيان. إنه **كوّاي**. .

يجسّد أنسية دينية أبلغ وأصدق من مثيلتها المسيحية وذلك لأسباب تعود من جهة إلى ماهية الإسلام كحركة إصلاحية في الأصل ومن جهة أخرى إلى تأزم الوضع الاجتماعي في المغرب. ضعفه هو أنه قابل للاستمالة في أية لحظة. تكفي إشارة من السلطة لتتغيّر معارضته إلى مساندة. حصل ذلك قبل سنوات وقد يحصل في المستقبل القريب. لو كنّا نعيش في إطار سياسي حقيقي، على النمط الأنجلوساكسوني، لكان له تأثير عميق وبعيد، ولو في حدود ضيقة، ولأسدى للإسلام، كعقيدة، خدمة لا تنسى.

* *

مارس 10

صدرت ثلاثة بلاغات: الأول نفى ما تناقلته وكالات الأخبار. الثاني أقرّ بصحتها والثالث أتى بالتوضيحات اللازمة. تشبه الأحداث تلك التي وقعت في منطقة وجدة قبل شهور والتي كانت الحكومة قد اعترفت بحدوثها. كانت العادة هي النفي، لماذا الصراحة اليوم؟ دليل قوة أم عجز؟ تتهم البلاغات المعارضة الداخلية والتحريضات الخارجية. دخلنا مرحلة الاستقطاب التي تنبأ بها الكثيرون.

* *

مارس 26

مررت بباب المشور الخلفي فرأيت جموعاً من الناس. ثم جاءت الشرطة وطوقت الشوارع الرئيسية فطفق المتفرجون يسرعون إلى بيوتهم كأنهم على موعد مع أمر هامّ. ثم لمحت قرب الحي الجامعي مراسل جريدة **لوموند** يحث الخطى. فقلت: هذا غراب النحس. أكاد ألمس كهربة الجو، جو الترقب والإدالة.

علمت فيما بعد أن الأمر يتعلق باجتماع لقدماء المجاهدين

وأعضاء جيش التحرير حضره علال الفاسي وعبد اللطيف بن جلون والدكتور الخطيب. يُعتبر هؤلاء مقاومين حقيقيين، الواقع أنهم وحدهم يستطيعون الكلام باسم الأغلبية الأمية.

قال: كنت أتوقع أن بعض عناصر أسرتي وأسرتكم، أسرة المقاومة، سيبيعون ضمائرهم خدمة للأجنبي. كما قال حكيم كل شيء يُحمل إلاّ تراب الوطن. فهؤلاء لم يحملوا معهم تراب وطنهم. والأدهى أنهم يعيشون ويعملون في عاصمة الدولة التي استعمرت بلادنا، التي عذبت وشرّدت ونفت.. إن الشباب لا يعرف عنكم شيئاً. لا يعرف ثمن الاستقلال. والتبعية علينا نحن حيث لم نوضح لهم ذلك فعاشوا على الأفكار المستوردة. فارقوا الإيمان وتعودوا على الإلحاد.

هل يفهم من هذا الكلام أن الوطني هو من يظل قابعاً هنا وإن عذب وإن سجن وإن هدّد بالموت؟

* *

مارس 30

افتتاحية **ماروك سوار** ليوم 28: «لم يعد مجال للتردد. حان الوقت أن ينتظم أنصار النظام، على صورته الحالية، داخل حزب يواجه الأعداء بعزيمة توازي تصميمهم وعنادهم».

منذ أحداث الصخيرات ومحرر اليومية الرسمية يردد هذه الدعوة لكن بصفة محتشمة. أما اليوم فإنه يضع النقاط على الحروف. النظام يدعم أصحاب المصالح فعلى هؤلاء أن يدعموه. الكلام موجه بالدرجة الأولى إلى البورجوازية الاستقلالية التي تشكو من الرشوة والمحسوبية وتفضيل الأجانب. يذكر أن هذه جزئيات لا

تطمس الحقيقة الأساسية وهي أن النظام هو رب نعمتهم. والكلام موجه أيضاً إلى جيش الموظفين المتعاطفين مع اليسار. الاستقطاب هو التهديد المستمر لكل معارض، أكان باليد أو باللسان أو بالقلب حتى.

حزب رسمي نشيط ومؤثر؟ مجرد خيال. كسب عطف بعض أصحاب المصالح وضمان حياد الأغلبية؟ أمر وارد.

* *

حضر علال الفاسي وعبد اللّه إبراهيم حفل زفاف الشريف الوزاني «الذي ينتمي إلى أسرة معروفة لولائها للعرش» هذا ما قاله المذيع. كان عليه أن يسأل السيد علال عن ظروف ضياع منطقة توات وتفويت ثُلث أراضي الغرب للمعمرين الفرنسيين.

المهم أن يظهر علال على الشاشة وسط الضيوف الرسميين وكذلك عبد اللّه إبراهيم الذي كتب في أسبوعيته: «إن الجماهير المنظمة وحدها قادرة على تغيير الوضع». ما بقي الوضع بقيت المعارضة والعكس صحيح.

* *

1 أبريل

ذهبت مع عصام إلى الشاطئ. يوم جميل مع هبوب ريح لطيفة. شيدنا قصبة ببروجها الأربعة والخندق المحيط بها. لامسها الموج فزاد الرمل متانة. أنهينا البناء فقرّر عصام أن نهدم القصبة قبل أن نلتحق بمقهى الشاطئ. قلت: نذهب إلى المقهى ثم نعود ونرى. ألحّ على الهدم فكان له ما أراد. ذهبنا ثم رجعنا فلم نرَ شيئاً مما شيّدنا. فكرت أن هذه صورة لتاريخنا.

* *

4 أبريل

لا أدري هل هي سياسة مدروسة، كما يدعي عبد الله إبراهيم، أم لا. لكن الملاحظ هو أن إجراءات كثيرة تؤدي إلى إحياء النظام المخزني العتيق وبالتالي إلى محو كل ما استجد في عهد الحماية. بلاد السيبة التي ربطها الفرنسيون بباقي الوطن بواسطة التجنيد قد أقصيت مجدداً. والقسم الواعي النشيط من الحركة الوطنية قد كبّل. وما نسمع من جدال فهو بين فئتين كانتا دائماً عماد المخزن في الماضي. وقد يدل التنقيب على أن الاستمرار يطال الأشخاص أنفسهم. حتى تراشقهما بالألقاب يحيي عبارات الماضي. هذا يقول: والله لأدخلنها! وذاك يرد: إذا دخلتها تحزّبت وتخربت. لا أحد منهم يتصور مواطنة دون خدمة كما كان الأسلاف لا يرون الإيمان يتمّ بدون إمام.

* *

6 أبريل

قيل إن الحكومة طلبت نقل سفير أميركا لأنه استهزأ في حفل رسمي بسياسة المغرب في الشرق الأوسط. إلى هذا الحدّ انحطت سمعة البلد. ومع ذلك ما يشغل بال المسؤولين هو الوضع الداخلي.

* *

8 أبريل

في الصفحة الرابعة من يومية **الرأي** خبر بدون تعليق عن اعتقالات جديدة.

يلاحظ أحد المتعاطفين أن أغلبية أعضاء جمعية المقاومين يعتبرون رفاق المتّهمين. فلا يفهم تصرفهم. الواقع هو أنه يجب الحسم.. إما وإما.. المساندة أو التنديد. وأما الرهان على أن

الخصم يعرف حسن النية فهذه مغالطة. الوضع لا يسمح بنهج الاعتدال. لا أحد يتحكم في الموقف، داخلاً أو خارجاً، لا النظام ولا المعارضة. لولا مأساة الضحايا، وجلهم من الشباب المثقف البرئ، ضحايا الجهل والحقد، لأمكن القول إن الخير فيما حصل. حلّ مفروض، حلّ سلبي، يفتح الباب على وضعية غير التي كنّا نتطلع إليها.

* *

أبريل 10

عقد اجتماع في مقر عمالة مكناس خصّص لتنظيم موسم الشيخ الكامل. وذلك بهدف إنعاش الحركة السياحية. يبدو للمرء أحياناً أن هناك أفراداً من بقايا إدارة الحماية الفرنسية يعملون على الانتقام من الوطنيين.

* *

أبريل 12

تأتي الضربة الجديدة المصوبة للمقاومة الفلسطينية لتنسي المغاربة مأساتهم. تلتقي صحف الحكومة والمعارضة للتعبير عن السخط نفسه، مع الوفاء لتحالفات كل فريق. يهاجم علال الفاسي مصر صراحة ويتكتم على السعودية بسبب النهج الإسلامي الذي ما فتئ يدعو إليه. والحكومة تستقبل وزيراً أميركياً دون الإشارة إلى دور واشنطن.

أبريل 17

خطاب في غاية العنف ضد أعداء الداخل والخارج. يقول إن الذين ينتقدونه على عدم إشراك الشعب في تسيير شؤون البلاد كان عليهم أن يهبوا للدفاع، ولو بالقلم، على المقدسات. حسب هذا

المنطق لا يشارك في الحياة العامّة إلاّ من قبل قواعد اللعبة كما وضعت منذ سنين. لكن الخلاف هو بالضبط حول تلك القواعد. هاجمهم بالأمس لأنهم لم يوافقوا على التخلي عن المناطق الشرقية واليوم يوبخهم لأنهم لم ينهضوا للدافع عن النظام. هل النظام فوق الوطن؟ ثم ما هذه اللهجة؟ أين اللياقة؟ أين قاعدة «الدين المعاملة» التي أمر الوزير الجديد بتعليق اللافتات بشأنها؟ صحيح أن ذلك الوزير لا يفتأ يشتم من كانوا إلى عهد قريب رفاقه في الحزب.

* *

20 أبريل

كلام المولى الذي ينتسب إلى قبيلة فيعود أعلم بمفاخرها وأحرص على مصالحها. العقلية المخزنية فتاكة. الدفاع عن النظام هو دفاع عن نصيب، فردي أو جماعي، من النفوذ. لا الولاء صادق ولا المعارضة جادّة. في هذا المناخ لا يمكن أن يتجذر فكر سياسي بالمعنى الدقيق. كل فكرة تعرض إلاّ وينظر إليها من جهة ما تحتمله من خطر على الوضع القائم. المشكلات الجوهرية ـ اللغة، الإدارة المحلية، الديموقراطية، الوعي المدني، الوحدة القومية ـ لا تطرح بجدّ، بل تعود مادّة للهمس، أو السخرية، حول موائد الكارتة. هناك إذن عملية تعتيم جماعية تقود حتماً إلى تأثر الكثيرين، والشبان بخاصة، بالدعايات الأجنبية المغرضة. لا يأتي التطرف، اليساري أو الديني، صدفة.

* *

23 أبريل

تلتقي مرة أخرى الصحف الرسمية والاستقلالية في الدعوة إلى توحيد الصف الإسلامي، بل إلى عقد معاهدة بين العرب وإيران.

هذا عبد اللّه كنون يسرّ لصديق له أنه زار عدداً كبيراً من الدول الإسلامية وأنه وجد فيها استجابة لدعوته إلى الوحدة بل لترشيح ملك المغرب إلى الخلافة (هكذا). وهذا وزير الخارجية الإيراني يعود من جولة عبر دول أوروبا وأميركا ليصرح في بيروت أن بلاده أصبحت قوة دولية ولم تعد إقليمية فقط. وأن الشعبين العربي والإيراني عاشا تاريخاً مشتركاً طيلة قرون فلا داعي ليفترقا الآن، مضمناً كلامه تهديداً واضحاً للعراق. تطورات عفوية أم موجهة؟ لصالح من؟ لا يخفى على أحد أنّ الهدف هو تقويض وحدة الصف العربي. دلّت التجربة أن توحيد العرب أمر عسير. فما القول في توحيد المسلمين؟ هل يصح إبدال الصعب بالمحال؟ مذ أن ابتلي العرب بمشكل فلسطين لم يكن اليهود وحدهم الجانب الرابح بل كان الرابح أيضاً الأتراك والفرس. انسحبت بريطانيا من الخليج وأميركا منشغلة بحرب فيتنام. فكلّفت إيران بالسهر على مصالح الغرب ومعاكسة تيار القومية العربية. غرقت مصر في مشاكلها الداخلية فتركت الميدان للسعودية، لكن هذه لا تهتم إلاّ بمحاربة الأفكار الهدّامة. كيفما حلّلنا الوضع نجد العرب مطوقين. قد يبدو لهم أن الحلّ الإسلامي متاح. لكنه حلّ خادع. لا تهدف إيران من وراء دعوتها الإسلامية إلاّ إلى إضعاف العرب إذ يعلم ساستها أن العرب منذ القديم هم أسياد المنطقة. لا يسمع للفرس صوت إلاّ إذا فقد العرب وجهتهم القومية.

* *

24 أبريل

من الناس من لا يعرف كلمة شرف. لا يساند إخوانه في المحنة ولا يسكت بل يهاجم وبوقاحة. الضربة التي نزلت بهم إنما

هي خطة لإنقاذهم من الاضمحلال. هذا هو تأويله لما يجري. وجودهم، في حدّ ذاته، كسب للخصم ولو ظهروا بمظهر الأقوياء لكان الكسب أكبر، وبما أنهم خسروا المعركة فإن الحكومة اضطرت للتدخل لإنقاذ سمعتهم وتزويدهم بشهادة «بكورة» كاذبة. يا له من منطق!!

* *

ماي 16

ذكرى إنشاء الجيش الملكي، ذكرى اغتصاب فلسطين، ذكرى الاحتجاج على صدور الظهير البربري. يكتب علال في العلم ويربط بين هذه الأحداث الثلاثة. هدفه واضح وهو التقرب من الدولة وإن أدى ذلك إلى تحريف التاريخ.

يقول إن كتلة العمل الوطني هي المسؤولة عن الحملة الاحتجاجية. هذا غير صحيح إذ الوعي السياسي كان لم يتبلور بعد. والمقال يستفز، ربما عن غير قصد، كل من لا يشعر بانتماء قوي للعروبة. الاستفزاز ناتج عن عدم فهم الوضع الحقيقي للبلاد وعدم استنطاق التاريخ حسب منهج عقلاني رصين. هناك مسلّمة وهي أن العدو لا يخلق شيئاً من لا شيء. ذلك الشيء الموجود، مهما دقّ، لا مناص لنا من إدخاله في المعادلة اليوم إذ نحاور الأحفاد لا الأجداد والأحفاد لهم رأي في القضية. دعوة اليوم، مهما بدت لنا مبسترة أو منحرفة، هي مخالفة لدعوة الأمس بمجرد أنها تجري بين المغاربة. وترديد سخافات حول لغة القرآن والأصل المشرقي لا يفيد.

* *

24 ماي

رسالة توبيخ من عبد الكريم حليم على يد العميد جعفر الكتاني:

«وان الوزارة إذ تسجل عليكم موقفكم هذا تذكركم بضرورة تسليم هذه المواضيع وتؤكد لكم أن تمتثلوا إلى التعليمات التي وجهت إليكم في الرسالتين المذكورتين آنفاً وذلك قبل 29 ماي الجاري.».

* *

عصام: لماذا يسقط المطر في بعض الليالي؟

ـ اللّه هو الذي يفعل ذلك.

ـ أعرف كيف يكون اللّه. أبيض وبيده شطّابة.

* *

16 يونيو

لا شيء يتغيّر في الوضع السياسي العربي منذ ربع قرن. ذاك حكم الجغرافية. لا تزال مصر تطالب بإنشاء دولة، ولو على قسم فقط من التراب الفلسطيني. ولا تزال الأردن تنظر بحذر إلى تحركات مصر والفلسطينيين. مما يجعل موقف إسرائيل جدّ مريح. والقيادة الفلسطينية عاجزة عن اتخاذ قرارات واضحة على أساس هذا الواقع الذي لن يتغيّر في المستقبل المنظور. لها استراتيجية تجاه إسرائيل، مهما يكن الحكم على منطلقاتها وحظوظ نجاحها، لكن ليست لها خطة تجاه العرب. إن الأعيان اختاروا، داخل وخارج الأرض المحتلة، الولاء للعرش الهاشمي خوفاً من اليهود ودفاعاً عن مصالحهم وهم بذلك تصالحوا مع أميركا. أما الثوار أو الفدائيون فإنهم لم يخضعوا لأي منطق. إذا كانوا يرفضون الحسين ونظامه

فعليهم أن يعتمدوا على الرأي العام الدولي (أي الغربي في الحقيقة) لإقامة دولة على قسم من أرض فلسطين. هذا حلّ لا مفرّ منه لأن الدول العربية قبلته، صراحة في حالة مصر وضمنياً في حالة سوريا. أما الدول الأخرى، البعيدة عن ميدان المواجهة، فلا دخل لها في القضية إذ لا تتحمل أية مسؤولية. وقد يفيد الثورة أن تستغني عن المساعدات العربية واستبدالها، ولو جزئياً، بمساعدات دولية، لأن هذا الإجراء سيضمن لها حرية القرار وسيعزز مركزها ديبلوماسياً. أما الموقف الحالي، معاداة الحسين ومغازلة بعض الدول العربية مع مهاجمة البعض الآخر، ثم رفض قرارات الأمم المتحدة وعدم الإصغاء لأية من الدول العظمى، فذاك مجرد رفض للواقع يحمل في ذاته بذور مآسٍ جديدة. تجتاز الثورة سلسلة لا حدّ لها من الأزمات تلهيها عن مهامها، تجزئها إلى فئات متناحرة وأخيراً تمنعها من التأثير في سير الأحداث. ما سبب هذا العجز الملازم؟

* *

18 يونيو

يحاول حزب الاستقلال ومنذ سنوات أن يجعل من محمد الزرقطوني مؤسس ورئيس المقاومة كلها. وهذا ما لا يقرّ به المقاومون. صحيح أن عدداً منهم كانوا قد نشطوا في وقت ما داخل الحزب أو إحدى المنظمات الموازية له. لكن عندما أقدموا على مقاومة المستعمر بالسلاح فعلوا ذلك بدون انتظار إشارة من الزعماء الذين كانوا في السجن. ما يغفر لحزب الاستقلال هو أن غيره، ممن لا علاقة له أصلاً بالمقاومة، يحاول أن يسخّرها لأغراضه ويدّعي أنه هو الذي نفخ فيها الروح.. يا لها من معجزة لو صحت!

* *

يونيو 28، باريس

اغتيال محمد بوضيا الذي كان يعمل لصالح الفلسطينيين. التفسير الرسمي جاهز ومعتاد: كان يحمل قنبلة. أذاعوه وأقفلوا الملف.

* *

يوليو 11، بوسطن

كل القنوات التلفزية تنقل مباشرة شهادة جون ميتشل، وزير الداخلية في إدارة نيكسن، أمام لجنة الكونغرس عن فضيحة وترغيت. مسرحية وأية مسرحية! هؤلاء الناس يتقنون التمثيل منذ الصغر. كيف يصدق أي عاقل أن كل ما حدث لم يطلع عليه الرئيس؟ المسألة المطروحة أمام الجميع هي حول سلطة الرئيس. اكتشف الأميركان أنهم لا يعيشون تحت نظام جمهوري بل تحت نظام ملكي أو استبدادي ـ انتخابي. السلطة محدودة في المدّة وغير محدودة أثناء الولاية!

* *

يوليو 13

قرأت في يومية **لوموند** استجواباً عن المغرب واكتشفت فيه أن هناك اشتراكية مغربية؟ «آه.. لو اطلع لينين على نظام الجماعة!» أهذا جهل أم استجهال أم غرور؟ هل يظن أن علم الغير يقف بالضرورة عند حدود علمه هو! وقد يكون مجرد استخفاف بالصحفي وبالصحيفة وبقُرائها.

كان أحد الصحفيين يقول في باريس بداية الستينات: نأكل المشوي عند السفير والطجين عند زعيم المعارضة.

* *

يوليو 15

فتاة مغربية تجوب شوارع بوسطن مكتوباً على كعب حذائها العالي: نيكسن هو مولاها! مغامرة، غاضبة على كل التقاليد. ككل المهاجرين تحكم على مظاهر الحياة الأميركية حكماً سلبياً، لكني لا أشك أنها تغيّر رأيها جذرياً بمجرد أن تعود إلى المغرب. تظن أن التغيير لا يتطلب سوى العزيمة. فلا ترى العوائق النفسانية.

* *

يوليو 21

شاهدت فيلمين لأحد كبار المخرجين اليابانيين، **أوزو**. لا يعبر عن أي مطلب، يكتفي بتسجيل الحياة اليومية. نرى كيف يعيش أعضاء البورجوازية الصغيرة، في البيت وفي الشارع، في المقهى وفي المكتب، وندرك أن مجتمعهم تائه ممزق كمجتمعنا. ينطقون بكلمات أجنبية وعلى الجدران لافتات بالحروف اللاتينية. يقول أحد الأشخاص: لو كسبنا الحرب لوقفنا اللحظة وسط نيويورك نرى الشيء عينه لا صورته الزائفة. يجتمع الناس أمام التلفاز ليشاهدوا مباراة بيزبول ويعلقون عليها بعبارات العارف المتفنن، مما أثار ضحك المشاهد الأميركي. شاب لا يفكر إلاّ في اقتناء عدّة الگولف وزوجته تعامله تماماً كما تعامل المرأة الأميركية زوجها. والمعلّم المتقاعد، رمز القيم التقليدية، يبعث مشاعر الشفقة والسخرية في نفوس تلامذته القدماء عندما يلبّي دعوتهم إلى مطعم راقٍ. وهؤلاء كانوا مرشحين ليكونوا أبطال الحرب، وها هم قد تحولوا إلى موظفين يجتمعون كل مساء ليفرغوا كؤوس الويسكي حتى يغلبهم السكر. وتصل المهزلة ذروتها أثناء حفلة الزواج عندما يرتدي

العريس وأبوه **الفراك** فيما تطلع العروسة **بالكيمونو** مزينة على الطريقة اليابانية العتيقة. الكآبة التي ترشح بها كل مناظر الشريط ليست سوى عبارة متعارفة، مؤطرة اجتماعياً، عن اليأس، يأس المخرج وهو ينظر إلى مجتمعه الممزق الأخرس، الذي فقد، عكس ما يُقال، توازنه الموروث دون أن يستطيع استبداله بتوازن جديد. لم يمتلك بعد تلك النغمة الحنينية الخاصة، الكامنة في قلب الحداثة والدالّة على استيعابها وتضمينها.

هذا هو شريط **يوم خريف بعد الظهر** (1962). أما الشريط الثاني، **لذة الأرز مع الشاي الأخضر** (1952) فإنه يشبه عشرات الأفلام والمسرحيات العربية فيما يتعلق بالمضمون لا بالشكل والإخراج. لماذا ينجح اليابانيون فيما يخفق فيه العرب؟ هل يعود ذلك إلى خصوصية التمثيل وبطء الأداء؟ هل هو الشعور بالغرابة إزاء عالم بعيد جداً عن محيطنا العادي؟ هل هو الذكاء في تشخيص موضوعات ومواقف عامة؟ على كل حال تنجح ببساطتهم حيث تخفق زخرفتنا.

٭ يتعرض الشريط لمسألة الزواج التقليدي الذي يتم عبر وسائط، لعالم النساء المغلق، للمجتمع البورجوازي الخاضع للتقاليد والأعراف والمجزأ إلى فئات متنابذة. نرى صالات نوم أوروبية، نشاهد أدواراً تشبه ما نعرف عن بعض الأسر المغربية الثرية من سكان البيضاء، الأثاث لوي 15 المذهب، برودة العلاقات بين أعضاء الأسرة، التستر والنفاق. كل ما يحدث في الختام هو أن الزوجة تتعلم كيف تهيئ لنفسها طبق الأرز وتحضر الشاي الأخضر، بمفردها، مستغنية عن غيرها. تتعلم كيف تتذوق طعم الحياة البسيطة، العذبة المرّة. قد يُقال: هذا نقد لاذع لأمركة اليابان، لتأثر

المغلوب بالغالب. هل هذا هو التأويل الصحيح؟ أليس الشريط مجرد شهادة على يابان اليوم المجزأ المزدوج اللغة والثقافة؟

* *

يوليو 24

تصور قصة حب في المهجر. المرأة عاملة نشيطة تتذكر بحنان ما تركت وراءها، تبحث عن سرّ ذاتها وتشعر بفرحة ما بعدها فرحة إذ تتنسّم في الفتى الطارئ عبير الوطن. يتبادلان الذكريات. ما يجري بينهما لذيذ، مرة دون ومرة فوق اللذة التي بطعم الشهد.

معاودة النقاش عن هناك وهنا. تسترجع عهد الشباب، ما لمست ولم تفهم.

تنقلبُ الأدوار: هي، المرأة اللامنتمية تودّ أن تنسلخ عن ذاتها وتتغيّر إلى أبعد حدّ. هو، لأول مرة منذ سنوات، لم ير البحر أثناء الصيف، فيشعر بالحزن والقلق. خلق جديد، نفسانية مستحدثة وسط مدينة تستقبل المطر كل مساء وفي انتظار حدث جسيم.

الحب في ديار الغربة قوي ومهدّد.

* *

يوليو 26

حمزة علاء الدين مطرب من النوبة.

لا يوجد مؤلّف يستحق التنويه عن الموسيقى الشرقية وعن قدرتها الخارقة على إثارة الحنين. أية علاقة بين الطرب وحياة الشعوب العربية؟ هذا موضوع لتلاميذ فوكو: الكلمات والألحان.

الموسيقى النوبية، في تعريفه، هي البدوية. يحاول دغدغة العواطف بالتلميح إلى الاستغلال والاضطهاد. يقول: فهمتم

المعنى؟ هل أنتم في الصورة؟ يحاكم المدنية، الأغلبية، التكنولوجيا، التاريخ.

ليكن اللّه في عونه. كلام فنان، مفهوم ومعذور.

* *

27 يوليو

بعد الظهر سقط المطر بغزارة لمدة ثلاثين دقيقة تقريباً ولم تنخفض درجة الحرارة. نزع البعض قمصانهم وساروا في الشارع كما لو كانوا في بيوتهم تحت الرشاش. قد يكون هذا السلوك هو ما يلائم الحال. كنت أستعدّ للذهاب إلى المسبح الجامعي. سألازم الغرفة.

توقف المطر، ارتفعت الحرارة، تضاعفت الرطوبة. أشعر بالتعب.

لم تكتب لطيفة.

* *

29 يوليو

شاه إيران على الشاشة. يتقمّص دور الزعيم الغيور الذي جعل من وطنه قوة دولية في مستوى إنجلترا وفرنسا. لن يقبل بأي وجه تفكك دولة باكستان. يتدخل، إذا طلب منه ذلك، في حالة تهديد قوة ثورية لأي واحد من بلدان الخليج. لا ملاحظة له على تصرفات إسرائيل. متى يستيقظ العرب؟ متى يتخلّون عن الأنانية واللهو والجري وراء الملذّات؟

مؤلم أن نعيش مأساة تبدو للغير مهزلة.

* *

أغسطس 2

ألقى البارحة شارل عيساوي محاضرة عمومية عن اقتصاديات النفط. شعرت بالخجل وأنا أسمعه يقول (نحن) ويحاول استمالة الحاضرين بنكت باردة. قلت: هكذا ينشأ «المرح اليهودي»، ليس خاصاً باليهود. كل منا، نحن العرب، يستطيع أن يخترعه مجدداً. والأميركان متعودون بدون شك على هذا النوع من البهلوانيات.

يقول: أينما ذكر اسم الله وجد البترول وبكثرة ثم يتجاسر فيستعمل كلمة ابتزاز. أولم تمتنع أميركا وإلى عهد قريب عن بيع منتجات كثيرة للصين؟ أولم تستعمل تصدير مادة السوجا لإرغام حليفتها اليابان على تقديم تنازلات لا علاقة لها بتجارة المواد الغذائية؟ أوليس هذا ابتزازاً؟ الحقيقة المرة هي أن الغربيين يقولون في نفوسهم وفيما بينهم، كما فعلوا عقب تأميم قناة السويس، كيف يجرؤ هؤلاء العرب؟ لولا علمنا ومالنا وتقنياتنا لما استفادوا بتلك الثروة الدفينة؟ لو لجأت روسيا إلى السياسة نفسها لما خطر على بال أحد أن يرميها بالابتزاز. لا محل هنا للنقاش العقلاني. من يغفل ذلك يخدع نفسه والناس.

* *

أغسطس 3، كونكورد

مناظر خضراء تذكر بسويسرا، ألمانيا، وكما يدلّ على ذلك اسم المنطقة، إنجلترا التي لم أزرها بعد. يتهاطل المطر ولا تخف الحرارة.

هنا بدأت ثورة المعمرين. يقولون ونقول بعدهم: هكذا نشأت أمة. في أماكن أخرى نتكلم نحن، لا هم، عن عودة الروح وعن يقظة أو إحياء. بسبب هذا الفرق في التأويل والتعبير يستعمل

الأميركيون وعلى اثرهم الإنجليز ثم الأوروبيون، عبارة أرض عتيقة وأمة جديدة. يعممون تجربتهم فلا يقبلون أبداً أن يكون الوضع الجديد إحياءاً للقديم. نرى الآثار السلبية لهذا التصور الموروث في كل أنحاء العالم وبخاصة في فلسطين. في العمق يعتبر الأميركان أن حق اليهود أقدم من حق العرب إذا نظر إلى الماضي وأقوى إذا نظر إلى الحاضر. الدولة الإسرائيلية قائمة، أما الفلسطينية فإنها قد تقوم، إن كتب لها أن تقوم، لا إحياء لما كان، ولو أيام الانتداب البريطاني، بل كبناء جديد على أساس المفاوضة والتراضي بعد موافقة اليهود والدول العظمى. فرق كبير بين التصورين!.

* *

أغسطس 8

شاهدت في قاعة تحمل اسم الجزائر ويملكها، فيما قيل، مواطن فلسطيني، فيلم **كازابلانكا**. القاعة مليئة بالطلبة الذين رأوا الشريط مراراً حتى حفظوا الحوار عن ظهر قلب وأصبحوا يردّدونه كالشعر. لا ينتبهون إلى ضعف العقدة ولا إلى الديكور الواهي المخجل ولا إلى الأخطاء التاريخية والجغرافية الواضحة ولا إلى صلف الأبطال وإنما ينساقون وراء الموسيقى الحزينة وما تحمله من رومانسية رخيصة.. حين يسكب بوغارت الدموع إثر لقائه المفاجئ مع عشيقته القديمة وحين يقرر التخلي عنها حتى يتيح لها الفرصة لتقوم بدورها جنب زوجها الزعيم السياسي المناهض للنازية، حين يدرك أن الأفضل له أن يعيش على ذكراه وأن يعتبر لقاء البيضاء مرحلة لامعة بين كارثة محققة وأخرى متوقعة. محنته العاطفية خطوة أولى نحو التضحية في سبيل الحرية ومكافحة الطغيان. يتظاهر بالحياد لكنه يعلم أنه أميركي، لا يخطئ عندما تدقّ ساعة

الأميركيون وعلى اثرهم الإنجليز ثم الأوروبيون، عبارة أرض عتيقة وأمة جديدة. يعممون تجربتهم فلا يقبلون أبداً أن يكون الوضع الجديد إحياءاً للقديم. نرى الآثار السلبية لهذا التصور الموروث في كل أنحاء العالم وبخاصة في فلسطين. في العمق يعتبر الأميركان أن حق اليهود أقدم من حق العرب إذا نظر إلى الماضي وأقوى إذا نظر إلى الحاضر. الدولة الإسرائيلية قائمة، أما الفلسطينية فإنها قد تقوم، إن كتب لها أن تقوم، لا إحياء لما كان، ولو أيام الانتداب البريطاني، بل كبناء جديد على أساس المفاوضة والتراضي بعد موافقة اليهود والدول العظمى. فرق كبير بين التصورين!.

* *

أغسطس 8

شاهدت في قاعة تحمل اسم الجزائر ويملكها، فيما قيل، مواطن فلسطيني، فيلم **كازابلانكا**. القاعة مليئة بالطلبة الذين رأوا الشريط مراراً حتى حفظوا الحوار عن ظهر قلب وأصبحوا يردّدونه كالشعر. لا ينتبهون إلى ضعف العقدة ولا إلى الديكور الواهي المخجل ولا إلى الأخطاء التاريخية والجغرافية الواضحة ولا إلى صلف الأبطال وإنما ينساقون وراء الموسيقى الحزينة وما تحمله من رومانسية رخيصة. . حين يسكب بوغارت الدموع إثر لقائه المفاجئ مع عشيقته القديمة وحين يقرر التخلي عنها حتى يتيح لها الفرصة لتقوم بدورها جنب زوجها الزعيم السياسي المناهض للنازية، حين يدرك أن الأفضل له أن يعيش على ذكراه وأن يعتبر لقاء البيضاء مرحلة لامعة بين كارثة محققة وأخرى متوقعة. محنته العاطفية خطوة أولى نحو التضحية في سبيل الحرية ومكافحة الطغيان. يتظاهر بالحياد لكنه يعلم أنه أميركي، لا يخطئ عندما تدقّ ساعة

الاختيار لأن أميركا هي الملجأ الأخير لكل مضطهدي الدنيا.

فيلم دعائي ذكي إذ لا يزال يؤثر بعد مرور نصف قرن على إنجازه ورغم ما فيه من خلل. نشاهده كما نستمع إلى أغنية شعبية بسيطة يؤديها بدون إتقان فنانون هواة غلبتهم أحزان الحياة.

* *

أغسطس 9

حفلة عشاء في بيت الطالبة المغربية التي تساكن زميلة لها أميركية زنجية. تقول إن هذه طالبة في الجامعة وفي الوقت نفسه تتمرّن على الرقص. يسألها جميع أصدقائها على مدى تقدمها في هذا الفن لا على حال دراستها.

حضر عدد من أساتذة براندايس الذين يحقدون على نيكسن حقداً مرضياً. تذكرت كتابات توماس وولف وكذلك حكم كارلتون كوون، أستاذ الأنثروبولوجيا في متحف پيبوضي التابع لجامعة هارفرد، من أن الجهاز العظمي الأكثر ارتباطاً بالبشرية هو جهاز الساميين. هل يدخل فيهم العرب؟ والبربر الذين كانوا موضوع دراسته لسنوات عدّة؟

غريب هذا التشابه في السلوك والهيأة رغم تباعد الديار والأزمنة. يأتون من كل جهات المعمورة إلى باريس أو نيويورك ثم يتكلفون نطق الارستقراطيين وفتورهم وتعاليهم الدّال على قرون من البطالة واللامبالاة. يتساءل الكثيرون: ما سرّ هذا الانجذاب؟ عودة إلى وولف المسكين، لقد حيّرته المسألة حتى فقد توازنه الوجداني، قد يكون الدافع هو الطموح بكل بساطة، خاصة عند المثقفين. هذا سلوك يفتح لهم بعض الأبواب، وإذا فشل المسعى صبغ حياتهم ببعض الغرابة. هم أيضاً يقولون: نحن ملح الأرض، وإن عنوا

بذلك غير ما يعنيه الارستقراطيون.

* *

أغسطس 10

إلى متى يصرّ الفلسطينيون على تجنب كل سياسة إيجابية؟ من المستحيل أن يحققوا شيئاً ذا بال في بيروت. يستفيد البعض من الفوضى. لكنهم قلّة والأمر لن يدوم.

يقولون: لا نطالب أميركا إلاّ بقسط من الإنصاف. يبدو المطلب طبيعياً لكنه محال في حق أميركا. لا أحد يستطيع أن يحدد من يؤثر في الآخر، أميركا أم إسرائيل. يعتقد يهود أميركا أن تطرفهم هو ما يفهمه تلقائياً الأميركيون نظراً لتجربتهم التاريخية. نلاحظ أن المنطق نفسه يعمل في فيتنام وفي الشرق الأوسط. مَنْ المبدع ومَنْ المقلّد؟. إلاّ إذا كان الأصل يوجد في **العهد القديم**، مرجع الفريقين.

وقد يكون السبب أبسط من كل هذا وهو اتباع الطريق السهل. الخطة الإسرائيلية ناجحة إلى الآن، ما الداعي إلى تغييرها؟ هذا لبّ تصريحات كيسينجر. الحمل كله على العرب، وعلى الفلسطينيين بخاصة. هم المتضررون فعليهم أن يجتهدوا. أحسن سياسة بالنسبة للأميركان ولسائر العالم هو إهمال القضية. إذ الوضع الحالي لا يضر سوى العرب.

عوض أن يأخذ الفلسطينيون، وهم المعنيون بالمسألة أولاً وأخيراً، هذه النقطة بجدّ ويخططوا على ضوئها سياسة طويلة الأمد، نراهم يكتفون بعدّ الأيام وانتظار المستحيل. كل ما يحدث يصدمهم.

* *

أغسطس 17

علي ونينو. هذه رواية أمرها عجيب. يقول الناشر إن مؤلفها من أهل القوقاز وإنه كان من أعداء الثورة البولشفية وإنه حارب الجيش الأحمر إلى حين انهيار المقاومة الوطنية. عندها لجأ إلى ألمانيا ومنها إلى إيطاليا. كتب هذه الرواية ونشرها بألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية ثم اختفى كلّياً. لا يعرف أحد شيئاً عن سنواته الأخيرة. هذه ترجمة إنجليزية تنشر لأول مرة[1].

رواية ممتازة. تشبه إلى حدّ كبير **قنديل أم هاشم**. هل اطلع عليها يحيى حقي؟ مستبعد لولا أن عالم الديبلوماسية له قواعده الخاصة.

* *

أغسطس 18

كان آخر لقاء مع الطلبة وبعده ذهبت إلى حي **بلمونت** لأقابل الأستاذ ديكه النايجري. لاجئ بعد أن كان رئيس جامعة ووزيراً في وطنه قبل قيام النظام العسكري. رجل رصين ومطّلع. لا يريد المكوث هنا طويلاً بل يتمنّى أن تسمح له الظروف بالعودة قريباً إلى بلاده.

قال إنه زار تونس وإن أحد التونسيين السود أكّد له وجود قدر كبير من الميز العنصري. سأل: هل هذا صحيح؟ بماذا أجيب؟ تذكرت ما قالته عفوياً إحدى السيدات المصريات: لم أذهب بعد إلى إفريقيا! يجب أن نعي هذه الحساسية التي غذتها مؤخراً كتابات برنارد لويس.

---

(1) كاتب رواية، حسب آخر التنقيبات، يهودي من باكو يدعى ليف نوسباوم اعتنق الإسلام وعمل كخبير لدى السلطات الألمانية والإيطالية إلى غاية 1938 (مارس 2001).

كان جاك برك المولود في الجزائر يصف السوريين بكبار البيض. والسوريون هنا في بوسطن مندمجون في مجتمع البيض. هل نفترق نحن العرب حتى في هذه النقطة؟ من الإفريقي ومن العربي حقاً؟

* *

أغسطس 20

حضرت البارحة حفلاً بيعت فيه بالمزاد رسوم زيتية خصص ريعها لمساعدة طفل عربي أعمى. أقيم الحفل في بيت أسرة فتى متزوج بسورية التقاها بالمغرب حيث كان يشتغل ضمن فيلق السلام. لاحظت زيجات مختلطة غير معهودة عندنا. تخاطبني امرأة أميركية زنجية بلهجة القاهرة. التقط جملاً من حوار ساخن بين طالب آسيوي من دار السلام وآخر فلسطيني عن الرق في إفريقيا وحقيقة دور العرب في نشأته وتسييره. تقدم لي ابنة أحد أساتذة الجامعة أمها وهي ألمانية من **بريسلاو** ـ اسم مدينة توجد اليوم في نطاق بولونيا وتحمل اسماً آخر. أنظر إلى من حولي في هذه الحديقة الغناء من أحد أحياء بوسطن الأنيقة، وأرى نفسي في صورة طائر حط على رأس شجرة عالية ليستريح قبل أن يستأنف مشواره الطويل. فرق بين العابر والمستوطن، العابر لا يسمع لأنه لا يشارك.

* *

أغسطس 22

أستاذ قانون في جامعة هارفرد يراسل **نيويورك تايمز** واضعاً إسرائيل موضع الزنوج والعرب موضع **كلو كلوكس كلان**. يحرّف الحقائق عمداً. يُدعى هو وأمثاله للكتابة لكن في نطاق ما يفهمه الأميركان تلقائياً. همّ الإعلامي المتخصص أن يكسب الحرب الدعائية في الحال، مهما تكن الآثار على المستقبل.

وقاحة فتاكة.

* *

أغسطس 27، باريس

يناقش بعض النُقاد، على أمواج الإذاعة، كتاب المؤرخ بيير شونو، **إسبانيا في عهد شارل الخامس**. يقولون إنه كان من الشمال يميل إلى الاعتدال ويتوخى المصالحة ثم جاء إلى إسبانيا وتعلّم فيها التطرف والتعصب. يميل الأوروبيون طبيعياً إلى «عنصرة» التاريخ. تبدو لنا منطقة المتوسط منيرة لامعة وتبدو لهم ظلامية حالكة. نلتفت إلى الطبيعة الساطعة ويلتفتون إلى اللباس الأسود. هذا هو انطباعهم الأول ويظل يتحكم في لاوعيهم كلما واجهوا رجال المنطقة أو تعرضوا لثقافتهم. قد يتغلب بعضهم على هذه العقدة بعد سنوات من البحث والتنقيب ومع ذلك يبقى شيء من هذا الانطباع السلبي. وهو ما لاحظته عند فون غرونباوم وعند روجي كايْوَا أثناء لقاء صقيليا.

لا أقول إن هذا الحكم خطأ كله وإنما أسجل أن الجغرافية الثقافية، ربط ثقافة أو منظومة فكرية بمنطقة معينة عادة قديمة، متأصلة في الشرق وإنها استغلت ضده بعد أن فقد امتيازه.

لم يعد مجال للكلام على جاذبية الجنوب أو السفر إلى إيطاليا أو كلاسيكية غوته ونور فان گوخ.

* *

أغسطس 31، سويسرا

صدر الحكم بالإعدام في حق ستة عشر متهماً وفي اليوم نفسه وصل إلى باريس وزير مغربي.

هذا ما أقرأ في الصحف وأنا في طريقي إلى **ڤيلار** لزيارة عصام.

* *

فتاة من عمق أميركا ـ كانساس؟ انديانا؟ نبراسكا؟ تقرأ كتاباً بعنوان **هو هنا وليس بصامت** (الخالق فيما أعتقد). جاءت إلى سويسرا بحثاً عن «معنى». هذا ما قالته لجارها الأميركي. قدّم لها زوجته ثم قال إنهما يقومان برحلة طويلة عبر أوروبا بعد أن قضيا شهراً كاملاً في إسرائيل. تشجّعت الزوجة وبدأت تصف ما رأت هناك: الاقتصاد المزدهر والديموقراطية النشيطة والتعليم المتطور، إلخ. أصغت الفتاة بما تقتضيه اللياقة، لا غير. فتحمس الزوج وعرض المشكلات القائمة: التفاوت بين اليهود الشرقيين والغربيين، أوضاع الأقلية العربية، مسألة الحقوق السياسية. استغربت الفتاة: «ما كنت أتصور وضعاً يكون فيه اليهود أغلبية وغيرهم أقلية».

دعاية ذكية ناجحة. تمرّ عبر قنوات الحياة العادية. لم تبدِ الفتاة الشقراء اهتماماً بالغاً بما قِيل لها، لكنه تغلغل في اللاوعي وعند الحاجة سيتحكم في فكرها وسلوكها وتصبح، بدون جهد، نظيرة جارَيْها. اقتنعت الآن أن إسرائيل دولة كسائر الدول، لها مشكلاتها، البسيطة والشائكة، تجتهد لحلّها فتنجح أحياناً وتخفق أخرى. وأين الدولة التي لا تواجه مشكلات مستعصية؟ هذا قانون الحياة لا يعترض عليه إلاّ عنيد مكابر. من يحاول هدم دولة كباقي الدول إنما هو أخرق، متعصب، إرهابي.

قد تكون هذه أول مرة سمعت فيها الفتاة بإسرائيل. كوّنت عنها فكرة ولم يعد في استطاعة أحد أن يحملها على مراجعتها بالعودة إلى الأصول البعيدة. ستقول بدورها: ما لنا وهذا الزبور! ننطلق من

الراهن ونقف عنده.

يقول الكثيرون منا: إذا فعلنا ذلك خسرنا المعركة. وأقول أنا: نستطيع أن ننطلق من الراهن ونقف عنده ومع ذلك نصل إلى نتيجة.

* *

سبتمبر 9، ڤيلار

عملية فدائية جديدة في قلب باريس. إن كان الهدف هو تذكير الناس بمأساة الشعب الفلسطيني فهذا أمر حاصل. تغيّرت لهجة الصحف الأوروبية بكيفية مذهلة ـ هؤلاء أفراد يحاولون استعادة وطنهم السليب. لا أحد يجرؤ اليوم على القول إن العرب قوم رُحّل لا يعرفون معنى الوطن. لكن مع تكرار العمليات سيضعف التأثير وتتضاعف السلبيات. سيقولون: لا فرق بينهم وبين متطرفي الإسرائيليين. عجزوا عن مواجهة أعدائهم الإسرائيليين أولاً ثم إخوانهم الأردنيين ثانياً، فها هم يوجهون ضرباتهم إلى الأبرياء بعيداً عن ميدان المعركة. ثم ماذا يريدون بالتحديد؟ ما هو برنامجهم السياسي؟ وقد يرى بعض الخبثاء في هذا النشاط مبرراً لتعنت الإسرائيليين.

العمل الفدائي لا يغني عن استراتيجية.

* *

سبتمبر 22، مراكش

وصلت إلى نزل المنارة عند الساعة السادسة مساء. وعلى طول الطريق صدمتني مظاهر الفقر والتعاسة. قطعت مائة كيلو متر فدخلت أرضاً جرداء، يتطاير فوقها غبار آخر الصيف. كنت أظن الصحراء بعيدة فإذا بها قريبة، محدقة بنا، زاحفة إلينا. لم أصادف مدينة أتوقف عندها ولا مدشراً حتى.

ما أكثر العاهرات في شوارع المدينة! هذه ظاهرة معتادة مذ أن كانت مراكش محطة استراحة لجنود اللفيف الأجنبي. وأي وجه آخر للكسب حيث لا صناعة ولا تجارة مستقلة عن الحركة السياحية. ويفخر المسؤولون بجهودهم «الجبارة» لجلب الاستثمارات الخارجية!.

* *

سبتمبر 24

أمشي في شوارع الحمراء تحت أشعة الشمس المحرقة وأقول: أحسن وسيلة للتعرف إلى واقع الوطن هو أن تراه بعين السواح، رابط الجأش إن أمكن. لماذا يفضلون هذه المدينة على سائر حواضر المغرب؟ ألبهجتها وجمالها أم لغرابتها وانحطاطها؟ أتصور أن المدينة لا تتطلع إلاّ إلى أن تترك على حالها، غارقة في حلمها الطويل. لسعتها الحوادث فاستيقظت برهة ثم عاندت وفرضت ما أرادت. لن تعود إلى مقدمة المسرح. لن تقود معركة التجديد. لن تستعيد مركزها كعاصمة القطر. ما يستهوي السواح هو هذا العناد، هو سرّ الانزواء عن نور التاريخ. بعضهم يخشاه وبعضهم يتمنّاه، بعضهم يستعجله وبعضهم يستنكره.. حال إنسانية لا تشاركهم طموحاتهم.

هذه مدينة تهجر. ماذا كان يقول عنها ابن الموقت، ابنها الغاضب الذي كذّبت حساباته النجوم، لو قام من قبره ورآها فريسة السواح وجاريتهم في آن؟

* *

أدلى بورقيبة بتصريح إلى جريدة ألمانية كله تخاذل وتشفي. هل قال فعلاً ما ينسب إليه؟ حتى لو صدر تكذيب لما نفع

والتكذيب غير وارد على أي حال. بورقيبة هو هو، لن ينسى أبداً تجربته المرّة مع المشارقة قبل وبعد استقلال تونس (مساندة عدوه صلاح بن يوسف وحملة التكفير).

يقول إن إسرائيل تستطيع أن تحتفظ بكل الأراضي المحتلّة، حتى بدون مساعدة أميركا، بل تستطيع أن تحقق حلم اليهود الدائم: إنشاء دولة من النيل إلى الفرات. إن صحّ ما ينسب إليه أتصور أن هذه مقدمة برهان على صحة رأيه الداعي إلى المبادرة بإنشاء دولة فلسطينية لأن الوقت لم يعد في صالح العرب. وهو رأي معاكس لما يروجه الجزائريون، من أن العرب يملكون الأرض والعدد والزمن، يملكون عوامل النصر هذه لو كانوا موحدين أو في طريقهم إلى الوحدة كما كانت الصين منذ قرون. وهو رأي معاكس كذلك لسياسة لا حرب ولا سلم، خطة عبد الناصر، لأنها لم تعد، إن كانت في وقت ما، في صالح العرب. وللبرهنة على ما يقول يلجأ بورقيبة إلى خليط من الحجج، القوية والضعيفة، كما هي عادة خطباء السياسة.

يحاول إقناع الأوروبيين في حين أن المطلوب إقناع العرب والفلسطينيين بالذات. حججه مفهومة للغرب ومرفوضة منذ عقود لدى العرب. هل قرّر مخاطبة الرأي العربي عن طريق الصحافة الغربية؟ هذا راسب من تجربته الشخصية عندما كان يعارض إدارة أوروبية تؤثر فيها ما تنشره صحف العواصم الكبرى. أولم يتيقّن بعد أن تصريحاته للأجانب تستغلّ ضد العرب وضده نفسه؟ غباء أم غرور؟

* *

26 سبتمبر

لاحظت أن كل دكاكين أحد أزقة المدينة القديمة لا تبيع إلاّ

أجهزة الراديو والتلفزيون. ثم تنبهت أن الأمر ليس غريباً. هذه حرفة أضيفت إلى الحرف التقليدية التي تتقاسم السوق القديمة. مصنوع مستحدث، تقنياته عالية، مع ذلك لا يغير النظام القائم بل يندرج فيه ويعززه. هذا وجه مما يتشدّق به الكثيرون: مزاوجة الأصالة والمعاصرة.

وفي جامع الفنا يصرخ أحد القصّاص في ميكروفون: تقولون إن هذا القرآن ليس بشيء وأنا أقول إنه كل شيء. به جعل محمد الدنيا تحت قدميه. ثم يرصّع كلامه بعبارات فرنسية وأحياناً إنجليزية. هذا القاص هو رمز الدولة وعدد كبير من المثقفين، ليس في مضمون قوله فقط بل في أسلوبه وكيفية إيصال فكره للجمهور.

* *

أكتوبر 2

ألقى علال الفاسي، بعد عبد اللّه كنون، ثاني درس ضمن سلسلة الدروس الحسنية. كان، كما يُقال، يجرح ويداوي. هاجم المنافقين، وهم الحاشية، الذين يخدمون مصالحهم الخاصة. ركّز على واجب الأمر بالمعروف وطالب، بالمناسبة، بتعديل أحد بنود القانون المدني الذي يمنع المواطن من أن يكاتب وكيل الدولة في شأن لا يضرّه شخصياً. يقول: هذه المادة، المستوحاة من القانون الفرنسي، تتعارض مع واجب الأمر بالمعروف إذ ما يضرّ المسلمين كجماعة يضرّ كل واحد منهم شخصياً. ثم توسع في هذه النقطة ليؤكّد ضرورة تحكيم القرآن في كل شيء ونبذ الطاغوت الذي هو الشيوعية (هكذا) وكل شرع وضعي. هذا نقد للنظام القائم في البلاد برمته إذ كل مؤسساته موروثة عن عهد الحماية والحكم بالطاغوت هو القاعدة فيه لا الاستثناء. بهذا الموقف الرافض يبرر علال

حضوره في هذا الحفل الرسمي لدى أنصاره وأحبائه المتعصبين مع أنه لم يكن أبداً من أنصار المقاطعة. كان دائماً يرى أن الحضور من باب النصيحة. ثم تطرق طويلاً إلى مسألة الملكية في الإسلام محللاً مفهوم الاستهام. قال إن القانون التجاري المغربي لا يُراعي مقتضيات نظام الشركة الإسلامي. كان كلامه، الذي لم يقلّ تطرفاً عن نقد الشيوعيين، يبعث الفزع في قلب كل ملاك لو لم يكن السامعون قد تعودوا عليه وأيقنوا أنه يعبّر عن حلم غير قابل للتحقيق. قرّر أن المالك ليس حرّ التصرف فيما يملك إذ لغير المالك حق فيه. يعارض الشيوعية لأنها تعود في آخر المطاف إلى إقامة ملكية فردية. ليست الملكية وظيفة اجتماعية، وإلاّ لما جاز نزعها للمصلحة، بل الصحيح هو أن للملكية وظيفة. هذه أفكار ثورية، خطيرة، هدّامة لو صرّح بها غيره ولو أخذت مأخذ الجد.. وعلال نفسه هل يعتقد حقاً أن الحاضرين يسمعون ويعون؟

أنهى كلامه، كما هو منتظر ومطلوب بالدعاء لصاحب الأمر، لكن مع هذه الزيادة التي قد لا تعجب.. نطلب من اللّه التوفيق والتسديد.. من صميم قلبنا لأن في ذلك صالح وطننا..

* *

7 أكتوبر

اندلعت الحرب البارحة السبت عند الساعة الثانية عشرة زوالاً يوم العاشر من رمضان عندهم الثامن عندنا. يجب الانتظار على الأقل يوماً كاملاً قبل إبداء أي رأي. كان الغربيون، إلى حدّ الأمس، ينتقدون تعنت إسرائيل، ماذا سيقولون الآن؟ إذا تلاحقت الهزائم على الإسرائيليين سيعودون إلى موقفهم المبدئي: الدفاع عن الدولة اليهودية بدون تحفظ. أما التعليقات الأولى فستدور حول

حظوظ كلا الفريقين في الظروف الراهنة. هل الدول العربية مستعدة فعلاً للمشاركة؟ على الأقل تمّ التنسيق هذه المرة بين مصر وسوريا.

* *

8 أكتوبر

لا حظ للعقل فيما يذيعه ويكتبه الفرنسيون. يقول الوزير الأول إن القوات المصرية والسورية هي المعتدية. حسب هذا المنطق كان على العرب أن ينتظروا حتى تقرر إسرائيل من تلقاء نفسها الانسحاب من أرضهم المحتلة. يقول أحد الاشتراكيين إن الدولة الإسرائيلية ديموقراطية. هل يعني هذا أن لها الحق أن تتصرف كما تشاء؟ لماذا لا يطبق هذا المنطق في فيتنام؟ يردّ وزير الخارجية ـ وحده ـ متسائلاً: هل يجوز أن نصف بالعدوان من يدخل إلى بيته؟ يتكلم الجنرال **غالْوا** (منظر الحرب النووية) عن حدود إسرائيل الطبيعية! ولا يفهم كيف استطاعت مصر أن تنظم عملية ضخمة كالتي حصلت دون أن تعلم بها إسرائيل. يتّهم ضمنياً الولايات المتحدة بالتواطؤ والتستر!

* *

9 أكتوبر، الساعة الواحدة

تطالب الحكومة الأميركية بأن يعود الطرفان إلى خط إطلاق النار. لا بدّ أن تتدخل السعودية، بكيفية ما، لتساعد تلك الحكومة على مواجهة الضغط الداخلي. وإلاّ تمادت في سفاهتها وربما اضطرت إلى التدخل لصالح إسرائيل.

قيل إن روسيا طلبت من الجزائر أن تتدخل. إن صحّ الخبر يكون غريباً أن تنتظر الجزائر أن تطالبها روسيا بأن تفي بالتزاماتها

العربية. مع أنها كانت أعلنت مراراً أنها تشارك متى اندلعت الحرب. كانت عندئذ تتحدى مصر والشرق عموماً.

استعانت الإذاعة الفرنسية بخبرة الجنرال بوفر. يتعجب: هذه المرة يحارب العرب فعلاً. تصريحات قد تشجعهم على الصمود.

* *

أكتوبر 10

قال المذيع: وغداً تشرق الشمس.

يستحيل أن يقف الأوروبيون والأميركان موقف الحياد مع أن هذه الحرب تختلف، في دوافعها وظروف اندلاعها، عن الحروب السابقة. كم مرة سمعنا أن العرب غير جادّين وأنهم ينتظرون من الغير تحرير أرضهم. كم مرة قيل: العرب أمام اختبار، إما تحرير أرضهم المحتلة بالقوة وإما قبول شروط المنتصر. مع كل هذا يقف الغربيون موقفهم سنة 1967 كما لو كانت سيناء والجولان أرضاً إسرائيلية. لا أستبعد أن تتدخل أميركا عسكرياً وأن تتكون فرقاً من المتطوعة الأوروبيين تقابل الجنود الآتية من البلاد العربية البعيدة. في هذه الحال نعود إلى وضع 1947 و1948. لذا يجب أن يعلن العرب من الآن برنامجاً سياسياً معتدلاً لإقناع الرأي العام الدولي أن إسرائيل غير مهددة في كيانها وأن الهدف هو تحرير أرض أخذت بالقوة ولم تنفع المفاوضات في استردادها. لقد برهن العسكريون على كفاءة قتالية، فعلى القادة أن يظهروا كفاءة سياسية.

* *

أكتوبر 11

منذ البداية وأنا أخشى أن نسقط في أخطائنا المعتادة. للأسف الشديد حصل الخطأ هنا في المغرب. مدة يومين خيّم الصمت

وتحفظ المسؤولون في تصريحاتهم الرسمية وحسناً فعلوا. ثم غلب الطبع التطبع وبدأ الكلام على حرب رمضان المباركة. ونشرت جريدة **العلم** النص الإنجليزي للخطاب المنسوب إلى بنجمين فرانكلين عن خطر اليهود على الديموقراطية الناشئة في أميركا. لا تنتظر الآلة الدعائية الصهيونية إلا مثل هذه الهفوات لتستعيد سيطرتها كاملة على أذهان الغربيين. والغريب هو أن من يتشدق اليوم بالانتصار، من ينتقد بعنف الروح الانهزامية، هو بالضبط من كان إلى حدّ الأمس يشخصها أكبر تشخيص ويرمي قادة المشرق بالجهل والغباوة وتجاهل الواقع. الانتصارات العربية حقيقية لكنها لا تزال جزئية ومهددة في كل لحظة ولا يمكن بحال أن تعزى إلى حضور الفيلق المغربي. مهما تكن شجاعة الجنود وحنكة الضباط لا يمكن بحال أن يلعبوا دوراً حاسماً في المعركة. إن كان عرب المشرق قد استفادوا من مأساة 1967 فهذا لا ينطبق على المغاربة.

* *

14 أكتوبر

٭ لم تؤثر التهديدات السعودية. عاد واضحاً أن الأميركيين لن يسمحوا بأن تذوق إسرائيل مرارة الهزيمة. يتوجهون لروسيا ويطالبونها لا بعدم التدخل فقط بل بالامتناع عن تشجيع العرب على مواصلة القتال. يعتبرون أن أي نصر عربي يمثّل ضربة لنفوذهم في المنطقة. لن يوافقوا على أن تعود إسرائيل إلى حدود 1967 إلاّ إذا طلب ذلك منهم المعنيون بالأمر أي الإسرائيليون. هذا أمر يصعب تصوره مع أنه وحده مفتاح الحلّ النهائي. قد لا تكون لهذه الحرب سوى نتيجة واحدة: تحوّل في نفسانيات الإسرائيليين يؤدي بعد حين إلى تحول سياسي في إسرائيل وبالتالي في أميركا. أما

العكس، أي ضغط أميركا على إسرائيل، فمستحيل. سيظهر جلياً للجميع أن السبب الحقيقي لانهزام العرب هو التفوق الأميركي الحالي، العسكري والسياسي، على روسيا والصين معاً. لو تحقق توازن، إيجابي أو سلبي، بالتدخل أو بعدمه، لأمكن أن يحقق العرب بعض أهدافهم، إعادة إسرائيل إلى ما كانت عليه سنة 1956 قبل أن يحميها الغرب بكل قواه.

* *

15 أكتوبر

يقول التونسيون في تعليقاتهم: لا بدّ أن تصاحب السياسة العمليات العسكرية، أن تقدم الجزرة بعد العصا، وهو وجه الصواب. كان الإسرائيليون يقولون ذلك ويفعلون عكسه. أتمنى أن لا يقع العرب في الخطأ نفسه وأن لا يمزجوا تحرير الأراضي السورية والمصرية المحتلة بمشكل فلسطين. وإلاّ تغيّر الجو في الحين ضدهم في الأمم المتحدة وفي غيرها من المنابر الدولية.

غداً يخطب السادات. أتمنى أن يلزم حدود المعقول كما أتمنّى أن يفهم الفلسطينيون الوضع على حقيقته ولا يغتروا بالمكاسب الآنية لأن أهميتها نفسانية أكثر منها عسكرية أو سياسية. ويا حبّذا لو وعد المصريون والسوريون بالإبقاء على المعمرين اليهود، وإن جاؤوا كغزاة، ما داموا يقبلون السيادة العربية. لا أحد يعرف مسبقاً وقع هذا الوعد داخل إسرائيل وخارجها، لكنه قد يفيد دون أن يمثّل خطراً على أمن البلدين.

* *

16 أكتوبر

مما قال السادات: «عاهدتم وكنتم الأوفياء وصادقتم وكنتم

أخلص الأصدقاء وحاربتم طلائع المعركة وكنتم أشجع المحاربين.. لسنا دعاة إبادة كما يزعمون.. صواريخنا موجودة الآن على قواعدها مستعدّة للانطلاق إلى أعماق الأعماق في إسرائيل. كان في وسعنا أن نعطي الأوامر.. نردع أنفسنا بأنفسنا.. كان عليهم أن يتذكروا.. العين بالعين والسن بالسن والعمق بالعمق... نفضّل احترام العالم بغير عطف على عطف العالم بدون احترام.. هذه المنطقة قادرة على أن تمنح وأن تمنع.. كتب عليكم القتال وهو كره لكم.. ربنا كن لنا عوناً وهدى.. إن تنصروا اللّه ينصركم ويثبت أقدامكم..».

استعادت مصر دروها القيادي كما استعادت القوات المسلحة نفوذها في البلاد. هي الآن واثقة أن حكمها سيستمرّ. رغم الأسلوب وما فيه من تصنع بلاغي ورغم الإيحاءات القرآنية التي قد يسيئ السامع الغربي تأويلها، فإنه استطاع تجنب العبارات المعتادة التي لا تهدف إلاّ لدغدغة عواطف العرب. تقدم ببرنامج سياسي لخّصه في أربع نقاط: 1/ وقف إطلاق النار بشرط الانسحاب الكامل والفوري تحت إشراف الأمم المتحدة. 2/ الدعوة إلى مؤتمر دولي تستدعى إليه كل الدول العربية والزعماء الفلسطينيون ويعد السادات بالعمل على إقناعهم بالحضور. 3/ فتح قناة السويس للملاحة الدولية. 4/ التزام الجميع بقواعد واضحة غير مطاطة. برنامج معتدل يفتح الباب لإحلال السلام لو كانت أميركا وإسرائيل تريدان فعلاً السلم. لكن ما يهمّهما الآن هو منع العرب من تحقيق نصر ثابت. من المستبعد أن تقبل أميركا أن تظهر وكأنها خضعت لشروط العرب ورضيت بالتحكيم إلى الأمم المتحدة. لكن إذا تجندت الدول العربية النفطية وهدّدت بسحب أموالها يمكن أن يؤثر التهديد في الحكومات الأوروبية التي قد تضغط حينئذ على

أميركا.. بشرط أن تطول الحرب ولا يبادر الفلسطينيون والجزائريون والليبيون بالرفض.

* *

18 أكتوبر

كان خطاب السادات في الوقت نفسه متأخراً عن الأحداث وسابقاً لأوانه. لم يتحقق النصر بعد.

هذه حرب تقليدية يقودها زعماء محافظون ومع ذلك ذاقت إسرائيل الأمرين بشهادة أصدقائها. ماذا كان يحدث لو كانت الأنظمة ثورية مستعدة للتضحية بكل شيء؟

لم يحصل أي تقدم تجاه ثورة عربية والحركة الفلسطينية لا تزال دون النضج.

كان القذافي يدعو إلى لزوم الحياد بين الشرق والغرب وإلى التسلّح عند الغرب. لولا السلاح الروسي لما تقدمت الجيوش العربية متراً واحداً. ومع ذلك تقوت الجبهة المحافظة وسيجد القذافي نفسه أكثر عزلة بسبب تهوره وقلّة تجربته.

* *

19 أكتوبر

خبر مقلق جدّاً عن تسلل إسرائيلي إلى الضفة الغربية من القناة. إذا تمركز المتسللون فهذا يعني أن الجيش المصري لا يسيطر على مجموع الضفة الشرقية ويعود التحرك في قلب سيناء بدون فائدة. يعرف المصريون أن أسلوب الإسرائيليين في القتال هو الهجوم الخاطف والهروب إلى الأمام. فكيف سهوا عن ذلك ولم يحسبوا له ألف حساب؟ إذا لم يتمكنوا من تطويق المتسللين خلال اليومين المقبلين انقلب الوضع رأساً على عقب. لا شك أن العملية داخلة

في خطة أميركا معارضة لمشروع فتح القناة للملاحة دون اتفاق دولي مسبق.

* *

أكتوبر 21

زارني أحد الصحفيين. قال إن الرأي السائد هو أن المسؤولين وجدوا حلاً لمشكلة البلاد بإرسال قسم من الجيش إلى الجولان. قلت هذه خطوة لا يمكن التنبؤ بعواقبها.

سألني عن الوضع في المشرق. ركّزت على النقاط التالية: 1/ أهمية الحرب بالنسبة لمصر كدولة. ستستعيد مركزها بين الدول العربية ولو لمدّة. 2/ انعكاس الوضع الجديد على مشروع الوحدة العربية. 3/ انعكاس هذا الوضع على دولة عربية بعينها كالجزائر وليبيا. 4/ ضرورة تغيير خطة الفلسطينيين تجاه إسرائيل. ليس من الضروري التخلّي عن فكرة الدولة الديموقراطية العلمانية كهدف بعيد لكن لا بدّ من تحديد مراحل.

* *

أكتوبر 22

تمّ الاتفاق بين روسيا وأميركا على وقف إطلاق النار.

ستعم الخيبة الشعوب العربية ـ وليس الحكومات ـ التي بدأت تحلم بحرب طويلة. كانت نقطة التحول عبور وحدات إسرائيلية إلى غرب القناة. أوقف التقدم في سيناء وأفقد اجتياز المصريين إلى الضفة الشرقية كل فائدة. سيدّعي الإسرائيليون أنهم صدوا هجوماً مباغتاً دون أن يلحق أي أذى بإسرائيل في حدودها القديمة بل الجديدة. سيركزون على أن ما حدث يبرّر موقفهم المبدئي أي ضرورة الاحتفاظ بمناطق واسعة تقيهم ضرر المباغتة. بعد أيام

سيشاركهم المعلقون رأيهم هذا ناسين ما رددوه في بداية الحرب.

أما العرب فسيتشبثون بنتائج الأيام الثلاثة الأولى: الإقدام على مفاجأة العدو، اجتياز القناة، وحدة الصف العربي: وهي نتائج مهمة نفسانياً أي بالنسبة إلى العرب وإلى بعض القادة بوجه خاص. سيتعزز مركز السادات الذي طالما ذاق مرارة الخيبة وهو يجول العواصم العربية مستجدياً. سيقلل المعلقون العرب من النتائج الموضوعية، كون الجيوش العربية لم تصب أهدافاً حاسمة بعد اليوم الرابع مكتفية بالدفاع عن مواقعها الجديدة وأنها أخفقت في تطويق الوحدات المتسربة إلى غرب القناة.

كل شيء متوقف على الضمانات الروسية. لم تستطع روسيا ردّ الضغوط الأميركية. وإذا ما زاد الضغط فقد يتهيأ الجو لجولة خامسة تنتقم فيها إسرائيل وأميركا من مصر وتجاسرها على أخذ المبادرة. قد يُقال: لم تتدخل هذه المرة جيوش عربية كبيرة. لكن إذا لم يتسع الوقت لكي تتدخل في هذه الحرب فكيف تستطيع ذلك في حرب قادمة؟ استراتيجية إسرائيل معروفة، ولن تغيرها يقيناً في المستقبل لأنها في موقع أحسن بالنسبة إلى ذلك الشكل من المواجهة. ثم ما أوقف العمليات اليوم يوقفها غداً.

أشار السادات في خطابه الأربعاء الماضي إلى حرب طويلة وقد يكون بذلك ثبط العزائم. هذا ما سيستغله ضده وبدون تردد قادة ليبيا والجزائر والمقاومة الفلسطينية.

في صالح من يكون الحل النهائي؟ هذا الأمر بيد الروس والدول العربية النفطية. النتيجة الملموسة الوحيدة لقتال دام ستة عشر يوماً هي تحريك القضية ومنع إسرائيل من التمركز في الأراضي المحتلة.

* *

24 أكتوبر

رسالة من وزير التربية الوطنية مؤرخة في 19 أكتوبر:

«.. نظراً للأهمية التي توليها الوزارة للبحث العلمي واللغوي يشرفني أن أخبركم بأنني ارتأيت نقلكم إلى معهد الأبحاث والدراسات للتعريب. وعليه أرجوكم أن تلتحقوا اثر توصلكم بهذا الكتاب بالمعهد المذكور حيث سيعيّن لكم مديره المهامّ الجديدة التي تنتظركم...».

يطول التعليق على هذا القرار. المهمّ هو أن السياسة الداخلية لا تتأثر بما يجري خارج البلاد (الصحيح هو أن السياسة الخارجية، العربية بالذات، استمرار للسياسة الداخلية). الهدف هو التخلص من كل العناصر التي تعتبر «رافضة». ويدلّ اختيار المبعدين من كلية الآداب على خبرة إذ لا يمكن القول إن جماعة بعينها مستهدفة. الغرض هو التخويف وبالأسف رأيت أنه حاصل بعد اجتماع مع بعض الزملاء المبعدين.

* *

في الوقت الذي كانت مصر كلها مبتهجة بانتصارها وكان القادة المصريون لا يهتمون إلاّ بالتشاور مع حلفائهم الروس إذا بالإسرائيليين يهجمون باتجاه مدينة السويس هدفهم تطويق الجيش الثالث. لا شك أن مبادرتهم بقبول نداء مجلس الأمن ووقف إطلاق النار كان خدعة. حتى في حالة الوقف الفعلي لإطلاق النار يمكنهم الآن القيام بضربة خاطفة تقطع طريق التموين على أحد الجيشين، الشمالي أو الجنوبي، وحتى على الاثنين. لا أدري كيف تهاونت القيادة المصرية ولم تتخذ منذ الثلاثاء الفائت الإجراءات اللازمة

حتى ولو أدّى ذلك إلى الانسحاب وراء القناة. . الوضع الآن أخطر من السابق. قد زال الحاجز المائي وأصبحت كل الطرق مفتوحة أمام القوات الإسرائيلية إذا ما تعززت. فتكون النتيجة، نتيجة اندلاع الحرب، تمكين إسرائيل من القضاء النهائي على مصر. والمؤسف هو أن الإسرائيليين حققوا كالعادة أكبر مكاسبهم بعد الدعوة إلى وقف إطلاق النار. يتوقعون تردّد العرب ويستفيدون منه في الحين. للخروج من المأزق لا بدّ من مبادرة جديدة، تدوم أسبوعاً على الأقل، وبمشاركة الأردن الفعلية. ومع ذلك قد تنتهي بهزيمة شنعاء.

* *

تحققت كل المخاوف.

ولا زالت صحفنا تنتقد مصر لأنها قبلت قرار مجلس الأمن. كيف انتهاج سياسة معقولة وكل رئيس عربي يدلي برأيه لأنه بعث ببعض جنوده أو أعلن قطع العلاقات الديبلوماسية مع بعض الدول الغربية؟ فاجعة تتحول إلى مهزلة!. وروسيا صامتة. لا أحد يستطيع أن يتكهن بما تريد. إن ظلت على هذه الحال ستطرد لا محالة من المنطقة.

* *

أكتوبر 25

قالت الصحف الأوروبية عند اندلاع الحرب وقبل نجاح العبور: هذا انتحار. هل تصدق تنبؤاتها؟ الواقع المرّ هو أن أميركا أقوى من روسيا في المنطقة العربية وفي غيرها. وبالتالي ترجح كفة إسرائيل دائماً في النهاية. المهمّ الآن هو انتشال مصر من الورطة ولو أدّى ذلك إلى مفاوضات مباشرة. لا مفرّ منها رغم المراوغات.

وإلاّ ضاع الوقت بدون فائدة.

* *

أعلن متحدّث رسمي في مصر أن كل وسائل الاتصال مع الجيش الثالث قد قطعت. نجحت إذن الخطة الإسرائيلية بسبب براعة التاكتيك وبسبب تهاون وتقاعس المصريين إن لم يكن سوء تفاهم بين القيادتين السياسية والعسكرية. يودّ الإسرائيليون أن يكون استسلام الجيش الثالث، إن حدث، ثأراً لاستسلام حامية إسرائيلية صغيرة في المنطقة ذاتها بداية الحرب.

محنة مصر اليوم كمحنتها ومحنة العرب سنة 1967.

* *

أكتوبر 27

مكاسب إسرائيل كبيرة: تمكّنت من صدّ هجوم مباغت واسع استطاعت أن تسترجع جلّ ما ضاع منها في الأيام الأولى. عوضت ما لم تسترجعه باحتلال منطقة استراتيجية غرب القناة. استدرجت أميركا لكي توضح للجميع أنها لا تقبل أي تغيير في ميزان القوى المحلّي ولو أدّى الأمر إلى حرب كونية.

مكاسب العرب، بالمقابل، معنوية فقط، إن استمر مفعولها. حتى الاستيلاء على قسم من سيناء عاد بدون فائدة إذ لا تستطيع مصر أن تفتح القناة للملاحة. كشفت أطوار الحرب الأخيرة أن القيادة العسكرية المصرية عاجزة عن إبداع وتنفيذ خطة هجومية جريئة. تحركاتها دفاعية فقط تمهيداً لحلّ ديبلوماسي. عكس ما قيل مراراً الدولة التي لا تستطيع تحمل حرب طويلة هي مصر. الدعم الأميركي مضمون لإسرائيل وهذه تعرف كيف توظف ذلك الدعم بسرعة وبذكاء.

مع تواجد قوى دولية يظل وضع القناة مجمداً وتضطرّ مصر إلى الدخول في مفاوضات شبه مباشرة مع إسرائيل. سيفرض عليها حلّ أقل ما فيه الاعتراف قانونياً بالدولة اليهودية وبالتالي التخلّي عن مطالب الفلسطينيين، حرية الملاحة في كل ممرات المنطقة، تجريد مناطق كبيرة من السلاح وضمنها شرم الشيخ، إذا لم تجد إسرائيل حجة مقنعة للاحتفاظ بمواقع شمال سيناء. ستتخلى مصر ضمنياً عن مطالب سوريا والأردن تاركة الدولتين تفاوضان رأساً العدو المشترك. إذا ما رفضت مصر هذه الشروط، التي تمثّل الخط الأدنى، أو إذا تعثرت المفاوضات، سيبقى الوضع على ما هو عليه: الجيش الإسرائيلي مخيّم على بضع كيلومترات من القاهرة.

سيتساءل الكثيرون: هل هذا الحلّ في صالح مصر؟ بل سيذهب البعض إلى التأكيد: هذا ما كان يهدف إليه السادات. وستحتد الخلافات العربية.

* *

28 أكتوبر

يتّهم هيكل أميركا بأنها زوّدت إسرائيل بمعلومات التقطتها طائراتها الاستطلاعية وبذلك مكّنتها من اجتياز القناة.

كالعادة كلامه هراء حتى ولو صادف الواقع ووافق ما يقوله رجل الشارع. ليس غريباً أن تعلم إسرائيل شيئاً عن طريق أميركا. الغريب هو أن القيادة المصرية لم تحسب لذلك حساباً ولم تتخذ الإجراءات اللازمة لوقف التسرب الإسرائيلي وذلك لمدّة ثلاثة أيام فيما كانت الأخبار تتكلم على معارك وهمية في سيناء. عدنا إذن إلى منطق: «كنا ننتظرهم من الشرق فجاؤوا من الغرب».

ما نراه ويراه الجميع هو أن التشبث بمكاسب الأيام الأولى كان

قراراً سياسياً يخدم هدفاً ديبلوماسياً لم يتحقق وكان هو أصل البلاء. عندما يقول الصحفيون العرب إن الجيش المصري قد تغلب على عقدته، يبدو أن في هذا القول كثيراً من التجاوز. لقد وقف مذهولاً عندما اجتاز الإسرائيليون القناة ولم يندحروا في قلب سيناء!

* *

29 أكتوبر

جاء في الأخبار أن القوات الدولية ستتمركز بين الإسماعيلية وميناء السويس. مما يفيد أن المصريين اعترفوا بأن مدينة السويس ضمن المنطقة التي احتلتها القوات الإسرائيلية وهو اعتراف بالهزيمة. ما يؤكد هذا المعنى إرسال وزير مصري إلى واشنطن، رغم إن البعض قد يرى في ذلك محاولة التحرر من وصاية الروس.

واضح أن أميركا وحدها قادرة على ردع إسرائيل وحملها على تطبيق قرارات الأمم المتحدة. على مصر إذن أن تؤدي الثمن، منه العدول عن استعمال سلاح النفط. في الوقت نفسه يعرب جنرالات إسرائيل عن سخطهم مدّعين أنهم كانوا، قبل وقف إطلاق النار، على وشك إحراز نصر ساحق. لا ينكرون دور الأميركان في هذا النجاح، لكن تحليلاتهم تبدو أقرب إلى حقيقة الأمر من خرافات هيكل (الحلايقي). المسألة اليوم بين أيدي الأميركان. سيقترحون الحلول التي توافق مصالحهم. كيفما تطور الوضع لا أعتقد أن وحدة الصف العربي ستستمرّ. مصر مضطرة الآن إلى اتباع خطة منفردة. وبما أن الأمر يتعلق اليوم بمصير مصر وليس بتحرير فلسطين فستختار كل دولة الدفاع عن مصالحها مستقلة عن الجيران.

* *

نوفمبر 2

من مصلحة الجميع أن تحلّ مصر مشكلتها بالطريقة التي ترتضيها وفي أقرب وقت. وإلاّ استغلّت الأنظمة المحافظة الوضع الجديد لتتمركز وتستعيد نفوذها. مأساة فوق أخرى!

* *

القتل في الصباح الباكر وفي المساء مخاطبة الشعب في شأن الشرق الأوسط.. ضحايا جدد على مذبح فلسطين.

* *

نوفمبر 7

زارني صحفي مغربي رفقة زميلتين له من تونس. قال إنه يشتغل في الإذاعة. لا يعرف عني شيئاً. لا شك أن طلب المقابلة جاء من الصحفيتين الزائرتين.

دار الحديث حول الوضع الثقافي في البلاد العربية. كان واضحاً أن الفتاتين لا تهتمّان بأحداث المشرق الأخيرة. تلحان على مسألة الهوية الثقافية والإسلامية بخاصة. هذه نتيجة سلبية لتربية بورقيبة. تتقوّى الوطنية القطرية على حساب القومية العربية لكنها تعزز في الوقت نفسه الانتماء الإسلامي كضامن للهوية الثقافية والأصالة الحضارية.

قلت إن ما يجري الآن في الشرق مفيد لأنه مكّن العرب من تحقيق بعض المكاسب، أهمها الخروج من حالة الجمود التي عرقلت كل نشاط. لكن هناك جانب سلبي هو أن الناس سيعتقدون مجدداً أن المشكل عسكري فقط. وهذا تراجع بالنسبة إلى الوعي الذي تلا حرب 1967 حيث أدرك الجميع أن التسلّح غير مجدٍ إذا لم يواكبه، بل يسبقه، إصلاح سياسي واجتماعي وثقافي. لا مناص من

التأهيل العسكري، إذ الحرب كلها تقنية اليوم، لكن أي تأهيل يظل عقيماً ما لم يجر في محيط ثقافي ملائم. وهذا ما برهنت عليه الحرب الأخيرة. لم تستطع الأنظمة العربية القائمة مواصلة الحرب ولا حتى استغلال الانتصارات الأولى بسبب الخمول الذي يطبع الحياة العمومية.

أثناء كلامي كانت إحدى الصحفيتين تقاطعني ملحّة على إشكالية الدين والثورة. قالت: إذا كانت قواعد الإسلام مناقضة لمتطلبات العصر فالتحديث يؤدّي لا محالة إلى اضمحلال دور الدين في حياتنا اليومية. فكيف نتميز عن غيرنا؟

قلت: ومن ركّز في الأذهان أن الدين الإسلامي يتلخص في العبادات؟ متى ظهر هذا التأويل المبتسر وفي أي ظرف تسرّب إلى أعماق الوعي؟ حتى العبارة التقليدية (الدين المعاملات) حرفت عن معناها الأصلي.

كل مقال تأويل وكل تأويل، في نظر المؤرخ، اجتهاد حتى عندما يدعي إحياء السنة. الأصولي متأول مثله مثل خصومه. نقرر على هذا الأساس أن الدين شيء والسلوك الديني (التعبّد) شيء ثانٍ. وأن هذا الأخير مرتبط بتأويل معيّن خاضع بالضرورة للتطور. لنضع مجدداً العقيدة قبل الطقوس. لنحاول أن نفهمها حقاً والفهم لا يحصل إلاّ إذا وافق الذهنية الراهنة وإلاّ كانت العقيدة عبارة جوفاء مبهمة كالتي ينطق بها الأمّي. لا تتجاوز اللسان ولا تؤثر في القلب. وهو عكس المطلوب من الإيمان.

إذا قدمنا الجانب الاعتقادي على الجانب التعبدي بحثنا جاذّين عما يفصلنا عن غيرنا، أكانوا نصارى أو يهوداً أو بوذيين أو وثنيين، إلخ، ولا نعود نلتفت، كما نفعل اليوم، إلى المظاهر التي

تشدّ النظر وتميّز المسلم مع أنها قد تكون إسلامية وقد لا تكون.

هذا التطور المنشود لا يتعلق بالفرد بقدر ما يتعلق بالمجتمع والمطلوب من المثقفين أن يلعبوا فيه دور المبدع، وإن كلّف ذلك بعضهم متاعب كثيرة.

* *

نوفمبر 12

إلى أين تسير المفاوضات؟

يعتبر العرب أن كل مفاوضة هي في صالح إسرائيل ويعتبر غير العرب أنها الآن في صالح العرب نظراً للواقع العسكري. إذا ما تمّ الصلح فعلاً واعترفت مصر بإسرائيل بكل ما يقتضي هذا الاعتراف من تنازلات فيزول أهم عائق لتقدم الشعوب العربية. إن الحكومات التي تستفيد الآن داخلياً من دورها المزعوم في الدفاع عن الحق العربي ستخضع مجدداً لقوانين الجدلية الاجتماعية وتتحرّر عندئذ طاقات حقيقية غير طاقة البترول الوهمية.

وهذا التطور، إن حصل، يكون في صالح الفلسطينيين أنفسهم إن كانوا جادّين في ندائهم بالثورة وبالوحدة. سيعوضون عن القسم الضائع من وطنهم التاريخي بتقوية العناصر التقدمية العربية إذا ما عرفوا كيف يطورون علاقاتهم بها.

إن التنازلات الحقيقية ستأتي من الجانب المصري، عكس ما تقوله الدعاية العربية، لكن هذا لا يعني بالضرورة تغيير سياستها الخارجية، كما يتخوف البعض، لأن هذه خاضعة في كل الأحوال للواقع وللمصلحة.

* *

نوفمبر 15

جاء في ركن خواطر طائرة الذي يكتبه عبد الجبار السحيمي في جريدة **العلم**:

«لا تربطني بالأستاذ العروي غير تقديري لكتاباته.. لذلك فقد شعرت بكثير من الخيبة حين سمعت أنه أبعد من الجامعة.. فمن يستطيع أن يبرّر مثل هذا الإجراء؟ أنا لا أقول إن مثل هذا الإجراء يجب أن يراجع، لكنني أقول إن العقلية التي استولدت هذا الإجراء هي التي يجب أن تراجع حتى لا تسهم في إفقار جامعتنا أو حرمانها من إطاراتها الجيدة.».

* *

رأيت الأستاذ عبد الكريم غلاّب مدير جريدة **العلم** واقفاً في ميدان ابن ياسين ينتظر تاكسي. توقفت وعرضت عليه أن أوصله إلى حيث يريد. رفض العرض ثم كلّمني في أمور شتى ولم يتعرض بكلمة لما أشار إليه مساعده السحيمي.

* *

نوفمبر 18

يستعدّ حزب الاستقلال إلى تلبية «نداء الوطن» وأصبحت صحفه تبدي ولاء أكبر من ولاء الجرائد الحكومية. يتساءل المرء عن المغزى الحقيقي لحملة التعريب التي قادها قبل أشهر. أما كان الهدف منها إعطاء الدليل على أنه لا يزال يتمتّع ببعض النفوذ في القطاعات التقليدية التي يريد النظام استقطابها؟ إذا كان النظام يلعب اليوم ورقة التقاليد الوطنية والإسلامية فهذه هي رأس مال الحزب ولا مفرّ من إشراكه في الحكم لضمان نجاح السياسة الجديدة.

العقلية المسيطرة على حزب علال مخزنية بالأساس، لا يعني النقد سوى إسداء النصيحة لأولي الأمر.

أصبح واضحاً أن الداعين إلى التعريب ـ داخل وخارج حزب الاستقلال ـ لا يفهمون من الكلمة تعريب اللسان ـ كما نفعل نحن لأسباب وطنية وقومية ـ وإنما يفهمون تعريب العقول (المفاهيم حسب قولهم)، أي العودة إلى نظام يلعبون فيه الدور القيادي. هذا ما حصل في كلية الآداب (ثورة ثقافية باعتراف القائمين بها) وما سيحصل عن قرب في مؤسسات أخرى. بدأنا نسمع الدعوة إلى تعريب كلية الحقوق، رغم أن هذه تحظى برعاية سامية خاصة إذ القسم الفرنسي فيها هو المزود الرئيسي لأطر الإدارة العليا. وبدأنا نسمع كذلك بضرورة الاكتفاء بتدريس الفلسفة الإسلامية (أي أصول الدين) في صف الباكالوريا. كل ذلك تمهيداً لتوظيف الآلاف من خريجي المعاهد التقليدية ليحلوا محل الأساتذة المفرنسين. وهكذا يكسب الحزب أتباعاً نشيطين ومستعدين لنشر أفكاره. أما النظام فلا شيء يهمّه سوى كسب المساندة في الراهن دون التفكير في العواقب..

* *

نوفمبر 19

زار المغرب موفدون من الأردن وأميركا والسعودية واليوم يصل ممثل عن رومانيا، بعد مشاورة مع إسرائيل. أمر غريب!

يميّز الأجانب الدول العربية على أساس مرونة الحُكام!

* *

نوفمبر 26

رسالة إلى وزير التربية الوطنية:

«توصلت برسالة تطلب مني الالتحاق بمعهد الأبحاث والدراسات للتعريب. وفعلاً اتصلت بمدير المعهد المذكور وسلمت له نسخة من الرسالة ثم انتظرت مدة شهر حتى يتوصل المعهد بقرار التعيين فأتمكن من الحكم عليه من الوجهة القانونية.

ويما أن هذا القرار لم يصل بعد فإني فضلت أن أبعث إلى معاليكم هذه الرسالة طالباً توضيح ما يلي:

1 ـ إن وضعيتي الإدارية في كلية الآداب غامضة منذ سنوات ولم تسوّ لا على ضوء قانون 18 يونيو 1970 ولا في نطاق ما قبله من قوانين.

2 ـ إذا طبق قانون 18 يونيو وتمّ بعد ذلك نقلي حسب القواعد المرعية، أي كأستاذ صاحب كرسي منتدب لدى المعهد المذكور لغرض معين، فلن يكون لي أي موجب للاعتراض.

3 ـ لكن في حالة عدم اتباع هذه المسطرة والاكتفاء برسالة 19 أكتوبر 1973، بما فيها من غموض، سأبقى عملياً أستاذاً في كلية الآداب مبعداً عن التدريس ويكون لي الحق عندئذ أن أطرح مسألة مشروعية القرار أمام الهيئات المختصة.

وهذا ما جعلني أبعث بهذه الرسالة عن طريق عمادة كلية الآداب مع إرسال نسخة منها للاطلاع إلى مدير معهد التعريب.

وختاماً أودّ أن أركّز، معالي الوزير، على الصبغة الاستفسارية لهذه الرسالة مع أني أستخلص من الإجراء الذي اتخذ بدون موافقتي وبدون إفصاح عن مبرّر موضوعي، أن

الوزارة لم تعد في حاجة إلى عملي في التعليم بصفة عامّة وهذا استنتاج أحتفظ بحق استغلاله لاحقاً.

وتقبلوا، معالي الوزير، عبارات التقدير. . ».

* *

نوفمبر 27

قال المذيع واصفاً إبحار الباخرة التي تحمل وفد المغرب إلى مؤتمر القمة المنعقد في الجزائر:

«أمام هذا المنظر تصعد إلى الذاكرة سلسلة الأحداث التي كان هذا المرسى مسرحاً لها. . هنا جاء. . مسترسخاً أهل العدوة ضد نصارى الأندلس. . وجاء. . وجاء. . واليوم يبحر البطل مستجيباً لدعوة إخوانه المجتمعين في الجزائر لإنقاذ الأراضي العربية المحتلة ومؤازرة الشعب الفلسطيني. . ».

كم من قرون تفصلنا عن الحاضر؟

* *

نوفمبر 29

يشاهد المرء على الشاشة جلسات مؤتمر القمة السادس فيرى بوضوح التفاوت بين الشعوب العربية: أصحاب العباية والجلباب وأصحاب البذلة الأوروبية وهيهات أن يكون التمايز في اللباس فقط!.

الرئيس الوحيد الذي أقدم على تحليل سياسي هو بورقيبة. أتصور أنه قرّر أن يعبّر عن رأيه علانية لأنه شعر أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك في الجلسات المغلقة. كان السخط بادياً على وجوه

زملائه. أما السادات والأسد فإنهما لم يقولا شيئاً مفيداً، ربما عن قصد.

هل يمثّل هؤلاء الجيل الحالي؟ من الصعب القول إنهم لا يمثلون إلاّ أنفسهم. المحقق أنهم لا يمثلون المستقبل، القسم الواعي من المجتمع العربي. رغم التقدم الحاصل ما زلنا وسط الطريق. عندما كان الصينيون في وسط الطريق، ينتظرون القفزة التي تحط بهم في أحضان القرن العشرين، هل كانوا يعيشون في مثل هذا الخلط الذي نفخر به؟ نضر أنفسنا بأنفسنا. كل واحد منا يزكي عمل الآخر إذا كان يعيق تقدم المجتمع ويقاطعه إذا فعل العكس. من هنا سهولة الرمي بالعمالة والخيانة. الخيانة موضوعية، عامّة، غير مقصودة ولا واعية، فلا نحتاج إلى عدو خارجي.

* *

ديسمبر 2، باريس

يقول ريمون آرون: كنت العام الماضي تشكو مرارة الهزيمة واليوم ها أنت تنتصر! لم أدرك قصده في الحين ثم اتضح لي من باقي كلامه أنه يعتبر أن العرب قد حققوا نصراً في مواجهتهم مع إسرائيل. قال إنه التقى هنري كيسينجر الذي صاح في وجهه: لا يمكن أن نخوض حرباً نووية من أجل إسرائيل!

لا بدّ من تأويل قول آرون.

أتصور أنه يعني أن العرب نجحوا في جعل قضيتهم ضمن مشاغل الدول الكبرى وهذا لم يكن حاصلاً من قبل. أصبح الحلّ اليوم بيد أميركا وليس بيد إسرائيل فهذا، في عين المحلّل، كسب مهمّ.

وقد يعني شيئاً آخر وهو أن أميركا أنقذت إسرائيل من الهزيمة

بوسائل تقليدية، دون لجوء إلى السلاح النووي. فنزعت بذلك المبادرة منها. إذا كان الوضع الحالي ناتج أساساً عن الجهد الأميركي فهذا يفيد ضمنياً أن إسرائيل قد انهزمت.

* *

4 ديسمبر

✗ يعزز التأويل السابق تصرف المؤرخ بيير فيدال ـ ناكه الذي ألحّ على أن أقابل زميلاً له من إسرائيل. كان يعتقد، فيما يبدو، أني سأرفض الدعوة. هل هذه تجربتهم مع المشارقة؟

خرجت من المقابلة مندهشاً. يجب على العرب، حسب قول الأستاذ، أن يطمئنوا الإسرائيليين الذين يعيشون في جوّ من الهوس والرعب! هل هذا صحيح أم هي خطة لاستدراج العرب؟ الخوف قد يكون صادقاً وقد يكون مفتعلاً، ناتجاً عن تربية تخدم أهدافاً سياسية. معلوم أن الصهاينة قد لجأوا أحياناً إلى تخويف اليهود لإرغامهم على مغادرة الأوطان التي عاشوا فيها منذ قرون. أولم يتبعوا السياسة نفسها في إسرائيل؟ البحث في هذه النقطة موكول للفلسطينيين، سيما عرب إسرائيل. نحن نعتقد أن الإسرائيليين هم المدعوون إلى استمالة العرب، أصحاب الحق الضائع، فيما يرى الإسرائيليون وأنصارهم أن السياسة تقضي أن يقدم العرب الدليل تلو الدليل على نيتهم الحسنة وميلهم إلى المسالمة. انقلبت إذن الآية. وهذا الأمر يدلّ في حدّ ذاته على أن العرب لا يزالون يمثّلون العنصر الأساس في الشرق الأوسط، رغم ضعفهم وانقسامهم وتفاهة قيادتهم، إذ يطلب منهم أن يرحبوا بالوافد عليهم، مهزومين كانوا أو نصف منتصرين.

وقد تكون خطة تاكتيكية. من يدري؟

الخلاصة هي أنه يجب الخروج من سياسة الانفعال. إلى حدّ الآن لم يفهم هذا الدرس سوى المصريين. تعلموا الصبر بطول المحن وتلاحق المصائب.

* *

الكلام نفسه سمعته من صحفية إسرائيلية لا تنتمي إلى يهود المشرق ولا إلى الإسرائيليين الناشئين في فلسطين.

أقول: كيف تبنى سياسة على رعب جماعي؟ هناك تناقض بين الواقعية المطلوبة من كل حكومة وبين عدم الاستقرار المتولد عن نفسانية مهزوزة. هذا العنصر وحده، الذي لا ينكره الإسرائيليون، يقضي أن يكون حلّ قضية فلسطين دولياً، بل أن تكون المفاوضات بين الطرفين غير مباشرة، إذ التفاوض يكون بالتعريف بين عقلاء لا بين مرضى.. وإلاّ وجبت الوصاية.

لولا إيماني الراسخ أن الصلح يخدم العرب على المدى الطويل لقلت إن ما يُطلب منهم مجحف. اعتدي عليهم بدءاً ثم تكالبت ضدهم قوى عظيمة لا يعرفون عنها الكثير ولا تعرف عنهم شيئاً واليوم يطلب منهم ليس فقط التنازل عن حقوق ثابتة، بالاعتراف بالأمر الواقع اعترافاً تاماً غير مشروط، بل كذلك إعطاء ضمانات حتى يتغلب الإسرائيليون على مشكلاتهم الذاتية.

إسمح وتسامح، تنازل عن حقك ثم اضمن لي حيازته إلى الأبد: مطلب غريب!

قارن مع موقف الحلفاء بعد الحربين الكونيتين.

* *

ديسمبر 6، أديس أبابا

في انتظار انعقاد مؤتمر الدراسات الإفريقية. كان المفروض أن

يجتمع أعضاء المجلس التنفيذي ثلاثة أيام قبل موعد انعقاد المؤتمر. لم يحضر منهم أحد سواي وها أنا اليوم سجين فندق جميل عصري لكنه بعيد عن وسط المدينة. أجدّد تجربة الصيف الماضي حيث عدت من الجزائر مريضاً يائساً.

* *

7 ديسمبر

طقس مراكش ومناظرها كذلك.. كثرة المتسولين والعاطلين والوسطاء من كل نوع، الذين يعرضون عليك خدماتهم وبإلحاح مملّ. صور البؤس واحدة من شرق إلى غرب القارة.

يتعجب الزملاء إذ يجولون في **المركاتو** (السوق)، بناية تعود إلى عهد الاحتلال الإيطالي، من وفرة الفواكه بعد أن سمعوا كثيراً عن المجاعة. الواقع أن هذه لا تضر أبداً العاصمة!

ترى من حين لآخر عمارة عصرية ـ البنك المركزي، قصر البلدية، مكتب البريد، مقر وزارة ..ـ التي تعير للبلد لمسة حضرية. عدد الأجانب قليل ومقالد الحكم بأيدي أبناء البلد. التلفزة تستعمل الإنجليزية والأمهرية، مع نتائج الازدواجية التي نشكو منها. أغلب الموادّ والوثائق المبثوثة مستوردة من أميركا.

* *

9 ديسمبر

استدعينا إلى حفلة في المسرح الوطني أقامتها فرقة سوفياتية من النوع الذي يزور أقاصي سيبيريا. قال زميل من أوكرانيا: طبعاً يرفض كبار الفنانين السفر إلى إفريقيا!

حضر الامبراطور العجوز وصفق له طويلاً المدعوون، أغلبهم

أجانب. رغم الحضور الأميركي يلاحظ المرء محاولة السوفيات التحبب للنظام مستغلين علاقات تقليدية تعود إلى العهد القيصري وتربط بين الكنيستين الوطنيتين. حتى مداخلات الباحثين السوفيات تترك هذا الانطباع. يبدو أن سياسة موسكو الخارجية تميّز بين الدول القومية العريقة والدول الجديدة المتولدة عن انهيار الأنظمة الاستعمارية.

* *

ديسمبر 10

كان الامبراطور نحيفاً، أنيقاً في زيّه العسكري، محاطاً بعدد كبير من الأعوان، لكنه بدا لي وحيداً حزيناً منهكاً. تكلم بصوت ضعيف مبحوح.

اختارني المنظمون لألقي بين يديه كلمة تحية قصيرة باسم المشاركين الأفارقة. أغضب هذا الاختيار أعضاء الوفد المصري الذين حضروا بكثرة. الواقع أن المثقف المصري العادي، بخلاف المواطن الأمّي والمثقف العالي، لا يعرف كيف يتصرف خارج بلده، في حالة الانكسار وفي حالة الانتصار. من خلال تبرم الأفارقة يلمس المرء حقد العالم على العرب. يرى عدد كبير من الزنوج والهندوس أن العرب سبقوا الغربيين إلى الاستعمار وفرض دينهم وثقافتهم ولغتهم بالقوة. هل هذه العقيدة أصيلة عندهم أم وليدة ثقافتهم الغربية، سيما الذين اعتنقوا المسيحية؟ أم هل هي صورة جديدة للشعوبية القديمة يشاركهم فيها الأتراك والإيرانيون؟ إذا كان السبب ملتبساً فإن النتيجة جدّ واضحة وليست في صالح العرب!

* *

ديسمبر 12

استدعى رئيس الجامعة الأستاذ علي مزروعي، وهو من عرب كينيا، عالي الثقافة فصيح اللسان، إلى إلقاء محاضرة أمام الطلبة. حضروا بكثرة لكن للاحتجاج لا للاستماع. قالوا إنه لا فائدة للتظاهر والافتخار بجامعة لا تتمتع بالحرية الأكاديمية المعروفة في باقي العالم. أكدوا أنهم لن ينصتوا إلى المحاضرة إلاّ بعد أن تلبّى مطالبهم التي أهملت منذ عقود. بعد عشرين دقيقة من الصخب قبل الرئيس أن يترك مقعده إلى أحد الطلبة على أساس أنهم يستمعون إلى المحاضرة ثم يتابعون فيما بينهم نقاش مشكلاتهم. استطاع الطالب أن يوفر هدوءاً نسبياً وألقى علي مزروعي كلمته قاطعها الحاضرون بعبارات جد بذيئة في حق الامبراطور ونظامه..

علّق زميل مصري: ما دام الطلبة يمثّلون أقلية فلا خوف على النظام، الخطر هو أن يستميلوا الشعب.. ثم التحليل الذي سمعناه ماركسي صرف، وليس في صالحنا. علينا أن نجرهم إلى جانبنا بتقديم تحليل متميّز خاص بنا.. وتمادى الزميل الكريم في كلام ينمّ عن ضيق أفق وأنانية البيروقراطية المصرية.

تشعر في هذا البلد شعوراً حادّاً بندرة الخيرات وما يتولد عن هذا الوضع البئيس من تنافس، إن لم نقل من تقاتل، بين مكونات المجتمع!

* *

ديسمبر 14

أستغرب ولا أستغرب قول السر أنفري، مستشار إنجليزي. يقول: لا بديل للنظام في المستقبل المرئي. البلاد شاسعة، مجزأة إلى جماعات، دينية لغوية عرقية، مختلفة. لا رابط بينها سوى

شخص الامبراطور. الديموقراطية تؤدي حتماً إلى الانحلال والانقسام والتفتت. لكن إذا أدخلت بعض التعديلات، إذ اعترفت الدولة ببعض الحريات، إذا أقيمت ديموقراطية مقيدة ومضبوطة، ستتحسن الأوضاع ثم تستقر في ظرف وجيز..

هل أنا حقاً هنا في إثيوبيا؟

* *

ديسمبر 15

وصلت لطيفة على متن الخطوط الإثيوبية عند الساعة السادسة. كنت في جولة إلى منطقة أكسيوم الأثرية. لكنها استقبلت أحسن استقبال.

في المساء استدعينا إلى مطعم **فيلا فرده**. وجدنا على الباب جندياً يرتدي الزي الإيطالي، يرحب بالزبائن ويؤدي تحية الأقمصة السود! كم دام الاستعمار الإيطالي؟ أقل من عقد واحد، مزعج هذا التعلق بالماضي المؤلم المر.

أتذكر البيضاء.

* *

ديسمبر 19، أثينا

لم أرَ القاهرة منذ صيف 1960 وكنت قد سمعت عن أحوالها آراء متناقضة. فقررت أن أزورها بعد مغادرة أديس أبابا. اتصلت بالسفارة المصرية واتخذت كل الإجراءات اللازمة. لكن عند وصولنا إلى مطار القاهرة قالت السيدة المكلفة بمصالح الصحة إننا جئنا من إفريقيا الاستوائية وإن القانون يفرض أن يكون قد مرت على الحقنة ضد الحمى الصفراء مدة أربعين يوماً وعرضت علينا بخبث أن نقضيها في فندق المطار.

غضبت لطيفة. حاولت الاتصال ببعض المعارف لكن الجميع كان مشغولاً بالتحضير لمفاوضات واشنطن. فقررنا أن نركب أول طائرة تغادر المطار. فكانت اليونانية.

لم يكن الظرف مؤاتياً لزيارة مصر. كنت سأنبش عن الماضي، عن بديل لم يتحقق. كنت سأدخل في صراع خفي مع رفيقتي! كنت سأستمع إلى ترهات بعبارات بليغة!

صاحب الفندق من يونانيي مصر. سألنا عن أوضاع بلد لم نره.

* *

ديسمبر 23، باريس

فلاديمير جانكليڤيتش أستاذ فلسفة في السوربون. أستمع إليه يجيب على الأثير عن سؤال حول مغزى **نويل** في المجتمع الأوروبي المعاصر. استغلّ الفرصة ليوبّخ قادة الغرب على تخليهم عن شعب المسيح ومساندة أعدائه المعتدين. يقول إن هذه خيانة لمغزى **نويل**.

عندما يتشاغل المثقفون بالسياسة يكشفون عن جهل مطبق. كيف يؤخذ على هايديغر وحده انحيازه لجانب النازية؟ الفيلسوف عنيد في آرائه طيع في سلوكه. يختار هذا الجانب أو ذاك لأسباب ذاتية في الغالب ويظل وفياً لاختياره مهما كان ثم يتفنن في تبريره إذا اقتضى الحال. لا يجد صعوبة في ذلك حتى لو كان اختياره خطأ بيناً. لا يضره أن يتعارض مع البديهة لأن عمله اليومي هو بالضبط نقض الظاهر. يستطيع أن يجد معنى لما لا معنى له.

المشكل هو استغلال اسمه وشهرته للتأثير على الرأي العام. لو قدم كلام جانكليڤيتش كرأي فردي لرجل متعاطف مع إخوانه في

الدين أينما كانوا ومهما فعلوا لما كان داعٍ للاعتراض. لكنه يقدّم كتحليل موضوعي صادر عن أستاذ جامعيٍ مرموق وفيلسوف واسع الاطلاع يعرف ما لا يعرفه عامة الناس.

* *

أرى في باريس خزان فن وليس منبعاً فكرياً. الإبداع الفلسفي لا يوجد عند أستاذ السوربون عندما يلقي درسه أو يتحدث إلى صحفي بل عند فنان، منعزل ناسك غير مهتم بما يكتب أو يُقال عنه، مثل جورج براك.. يجاهد نفسه ويصارع الطبيعة منذ عقود. لا يتوخى الجمال. ماذا إذن؟

* *

ديسمبر 30، الرباط

يكتب هشام جعيط في رسالة أنه قرأ في مجلة اليونيسكو مقالي عن فون غرونباوم وردّ غابريللي الذي لا يمثّل في نظره التيار الغالب اليوم في صفوف المستشرقين:

«لا بدّ لنا من جهة أن نُسمع صوت الثقافة العربية الإسلامية المتميّز ونعطي الدليل على أننا أدركنا سن الرشد. لكن من جهة ثانية لا يمكن أن نهمل جمهور المستشرقين الذين يتابعون أعمالنا باهتمام وفي حالات كثيرة يتفهمون أغراضنا أكثر مما يفعل مواطنونا. أشاطرك الحرص على محاورتهم بلباقة ومرونة..».

نعم يعرفك من لا يحتاج إليك، وينكرك من قد يستفيد منك!

* *

فهرس الأعلام

أ

إمبراطور الحبشة 218, 219

إبراهيم (عبد اللّه) 169, 170

الإبراهيمي (أحمد طالب) 114, 115, 118, 145

ابن بركة (المهدي) 66, 97, 100, 142, 154, 155

ابن جلون (الطاهر) 135

ابن مراد (توفيق) 24

ابن المواز (أحمد) 109, 122

أبو اللغد (إبراهيم) 122, 161

الأخضر غزال (أحمد) 138

أدونيس 139

أرون (ريمون) 133, 215

الأسد (حافظ) 215

أمين (عثمان) 146

أوفقير (محمد) 148, 163

أوزو (يازوجيرو) 178

ملحوظة: لم تثبت في هذه القائمة إلاّ من كان في ذكر اسمه فائدة

ب

پاپاندريو (أندرياس) 156

باحنيني (محمد) 114, 138

باهي (محمد) 116, 146

پايطه (لويجي) 162

برادة (محمد) 136

برادة (عيد) 165

برك (جاك) 75, 76, 102, 104,125, 187

بلافريج (أحمد) 100, 108

البلغيثي (أحمد) 109, 122

بناني (أحمد) 107, 125, 128

بواسه (ايف) 154

بورقيبة (الحبيب) 23, 71, 137, 191, 192, 214

بوعبيد (عبد الرحيم) 66, 128, 142

بوعلو (إبراهيم) 97, 98

بومدين (الهواري) 10, 145, 147

پوناوالا (إسماعيل) 34

ج

جانكليفتيش (فلاديمير) 222

جعيط (هشام) 74, 223

الجنحاني (الحبيب) 162

ح

الحافظ (ياسين) 105, 141, 146, 153

حايك (ميشل) 145

الحجوي (محمد) 122, 123, 127, 130, 140
حداد (مالك) 116
حنفي (حسن) 95

خ

خالدي (وليد) 156
الخطابي (محمد بن عبد الكريم) 106, 108, 164
الخولي (لطفي) 154

د

ديسانطي (دومينيك) 54, 55

ر

رعد (رياض) 91, 92, 100

س

السادات (أنور) 198-9, 200, 202, 215
سارتر (جان ـ پول) 13, 73, 83, 128
السحيمي (عبد الجبار) 211

ش

شاه إيران 181
الشرقاوي (عبد الرحمن) 117
الشرقاوي (محمد) 124, 128
شو (ج. برنارد) 82

ع

عبد الملك (أنور) 39, 95, 142
عبد الناصر (جمال) 7, 9, 11, 13, 14, 16, 17, 21, 22, 37, 79, 92, 109, 118, 133, 142, 156

عبده (محمد) 40, 95, 104, 127

العظم (صادق جلال) 72

عيساوي (شارل) 182

غ

غاليسو (روني) 120

غلاب (عبد الكريم) 103, 211

ف

ڤاردنبورغ (جاكوبس) 26, 27, 35, 37, 90

الفاسي (علال) 102, 103, 106, 108, 109, 121, 125, 128, 129, 136, 141, 166, 168, 169, 171, 174, 193

فون غرونباوم (غوستاف) 17, 26, 39, 43, 44, 53, 55, 59, 62, 71, 74, 75, 77, 90, 138, 145, 158, 223

ق

قاسم (مولود) 145

القذافي (معمر) 166, 200

قلماوي (سمير) 70, 71

قنواتي (الأب) 28, 29, 31, 37, 40, 44, 53, 62, 145

ك

كايوا (روجي) 75, 119

الكتاني (إبراهيم) 102, 107, 125, 126, 128, 130

كدبرة (أحمد رضا) 66, 80

كر (مالكولم) 40, 95
كنون (عبد اللّه) 112, 173, 193
كيسينجر (هنري) 156, 185, 215
كنيدي (جون) 109, 111
كنيدي (روبرت) 41, 46, 51, 56, 58, 59, 60

ل

لابيكا (جورج) 66, 121
لغلام (جاكلين) 67, 69, 114, 131
لوفو (ريمي) 109, 110, 133

م

مارتن دي غار (روجي) 148
ماسبرو (فرانسوا) 71, 100
ماكرثي (يوجين) 46, 47, 51, 56, 59, 60, 62
مدكور (إبراهيم) 76
مرسي (زغلول) 73, 111, 119
مزروعي (علي) 220
المسعدي (محمود) 71
مندور (محمد) 76
مهدي (محسن) 52, 53, 73
ميسن (هربوت) 73

ن

نوسباوم (ليف) 186
نيكسن (ريشرد) 60, 88, 177, 178, 184

هـ

هرماسي (عبد الباقي) 41, 156, 157

هيكل (حسنين) 31, 206, 207

و

وتربري (جون) 109, 133

وولپرت (ستانلي) 33, 40, 159

ويسبر (يوجين) 32, 40, 44, 70

ي

يعته (علي) 163

عبد الله العروي

خواطر الصباح

تبدأ خواطر العروي، أحد أبرز المفكّرين العرب المعاصرين، في هذا الكتاب يوم 8 يونيو 1967 بتعليق مهم جداً، حيث يقول: بعد 19 سنة قضي الأمر وضاعت فلسطين بكاملها... مؤقتاً في أحسن الاحتمالات... نجحت خطة إسرائيل: حرب قصيرة وسلام مفروض.

وتتوالى خواطر العروي لتغطي مرحلة هامة جداً في السياسة كما في الاجتماع والثقافة، لتنتهي سنة 1973 في أعقاب حرب تشرين.

يكتُب العروي بلغة سرديّة سلسة. فالعروي ورغم شهرته كمفكّر إلا أنه أحبَّ فن الرواية وكتب العديد من الروايات وآخر كتاب نشره قبل هذه الخواطر هو رواية «غيلة»، لذلك نجد متعة في السير مع العروي الذي يعبّر بجمل قصيرة وكثيفة، متنقلاً بين المغرب وأميركا والعديد من الدول العربية، مقدّماً لنا العديد من الشخصيات السياسية والفكرية والفنية والثقافية التي التقاها أو حاورها.

يختم العروي: يشاهد المرء على الشاشة جلسات مؤتمر القمة العربي السادس فيرى بوضوح التفاوت بين الشعوب العربية.. هل يمثّل هؤلاء (الملوك والرؤساء) الجيل الحالي؟ من الصعب القول إنهم لا يمثّلون سوى أنفسهم. لكن المحقق أنهم لا يمثّلون المستقبل..

ISBN 9953-68-342-5




لوحة الغلاف: ماغريت



المركز الثقافي العربي
ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت- لبنان
ص.ب 4006 - الدار البيضاء - المغرب